موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم





موسوعة عالم الأديان

كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الكَنيسَة البيزَنطِيَّة الأُرْثُذوكسيَّة

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء التّاسع

الكنيسة البيزنطيّة الأرثذوكسيّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	: موسوعـة عالـم الأديـان كُلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم
إسم الكِتاب	: الكنيسةُ البيزنطيّةُ الأرثُذُوكسيّة
الجزء	: التّاسِع
المؤلّف	: مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرّج
قياس الكتاب	: ٢٠ × ٢٨
مَكان النَّشر	: بيروت
دَار النّشر والتّوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتَويات

الفَصْلُ الأوَّل

فــي مُوَاجَهَـــــةِ البِـــدَع

الفَصْلُ الثَّانِي

المَسِيحِيَّــة وهِرَقـلُ وَفَـارِس والإسْـــلاَم

الفَصْلُ الثَّالث

المَسِيحِيَّـةُ المَشْرِقِيَّـةُ والخِلافَـةُ الأمَوِيَّـة

الفَصْلُ الرَّابع

المَسِيحِيَّـةُ المَشْرِقِيَّـةُ والعَهـد العبَّاسـيّ

الفَصْلُ الخَامِس

المَسِيحِيَّـةُ المَشْرِقِيَّـةُ فـي القُرُونِ الوُسـطَى

الفَصْلُ السَّادِس

إنعِكَاسَات الحَمـلاتِ الصَّليبيَّـة

الفَصْلُ السَّابِع

في العَهدِ العُثمَانـيّ

الفَصْلُ الثَّامِن

الأرثُذُوكسِيَّـة العَالَميَّـة

الفَصلُ الأوّل

في مُوَاجَهَةِ البِدَع

الأُرثُذُوكسِيَّة الخَلقيدُونيَّة

الفِكْرُ المَسِيحِيّ بين الوثنيّة واجْتِيَاحِ الفُرس

إسْتِقامَة وَسْط الصِّرَاعَات

المَجْمَعُ المَسْكُونِي الخَامِس

الأُرثُذُوكسِيَّة الخَلقيدُونِيَّة

إنّ كلمة **أُرثُذوكْس**[1]، كما عرّفتها دائرة المعارف، صفة يونانيّة مؤلّفة من كلمتَين: **أرثؤس** أي المستقيم، و**ذوكسا** أي الطريق والمذهب. تُطلق، لغةً، على كلّ قول، أو فعل، أو مظهر، موافق للعقيدة التقليديّة السلفيّة، المتوارثة، دينيًّا كان ذلك أو فلسفيًّا، أو فنيًّا.

هذا الجزء من الموسوعة، يتناول الكنائس البيزنطيّة التي تقرّ بالمجامع المسكونيّة السبعة الأولى، وهي مجموعة كنائس يربطها إيمان واحد وتشريع واحد وليتورجية واحدة، ولكن ليس لها سلطة مركزيّة واحدة، وإنْ كان للبطريرك القسطنطينيّ أولّيّة شرفيّة، وحقّ المبادرة لدعوة السينودوس الأرثذوكسيّ العام. وهي تضمّ البطريركيّات الرسوليّة الشرقيّة الأربع القديمة: القسطنطينيّة والإسكندريّة وأنطاكية وأورشليم؛ والبطريركيّات المستحدثة: الروسيّة واليوغوسلافيّة والرومانيّة والبلغاريّة والجيورجيّة؛ وكنيستا قبرص واليونان؛ وكنائس تنعم بإدارة ذاتيّة بدون استقلال كامل: فنلندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا؛ وجاليات تابعة للكنائس الأمّ في أميركا وأوروبّا الغربيّة وأستراليا وأفريقيا.

---

١ ـ اعتمدنا في أعمالنا كتابة كلمة **أُرثُذوكْس** بهذا الشكل قناعة منّا بأنّه الأصح قياسًا مع اللفظ اليوناني، فيما يكتبها أكثرهم **أرثُوذكس**، وبعضهم **أورثُذوكس**، او **أرثُوذوكس** وبعضهم الآخر **أرثُذْكس**، وفي مطلق الأشكال يبقى المعنى نفسه.

إمّا إطلاق تسمية "الروم" على أتباع الكنيسة البيزنطيّة، فحديث نسبيّا، إذ لم تكن هذه التسمية معروفة في الدولة الإسلاميّة. فالاسم الذي كان شائعا آنذاك هو "الملكيّة" أو "الملكانية"، وهذا اللقب الأخير أطلقه أهل المعارضة، في تحدّيهم السلطة المركزية البيزنطية، على أتباع المجمع الخلقيدوني، أي أتباع الملك، نسبة إلى الأمبراطور مرقيانس (٤٥٠ ـ ٤٥٧) الذي ناصر مقرّرات المجمع الخلقيدوني، في حين أطلق أنصار المجمع الخلقيدوني على المعارضة القائلة بالطبيعة الواحدة في المسيح لقب "اليعاقبة" نسبة إلى يعقوب البرادعي. وقد استمرّ هذا اللقب معروفا حتى أوائل القرن الثامن عشر. أمّا إطلاق لقب "روم" على الكنيسة البيزنطيّة الخلقيدونيّة فيعود إلى خطأ في الترجمة الأجنبية للاسم. فكلمة "روم" مقتطعة من لفظة "رومانيين ROMANIAN" الواردة في التواقيع السلطانية العثمانية نسبة إلى الاسم الذي أُطلق على القسطنطينية منذ تأسيسها: "روما الجديدة LA NOUVELLE ROME". فقد انتسبت الكنيسة البيزنطية الأرثذوكسيّة إلى القسطنطينية بتراثها الفكري واللاهوتي والفني واللغوي، لذلك توهّم الكثيرون أن المنتسبين إلى هذه الكنيسة هم من أصل إثني إغريقي أو يوناني. وما زاد الأمر التباسًا تبنّي هذه الكنيسة للطقس البيزنطي باللغة اليونانية. فاقتطعوا تسمية "روم" من "رومان" للدلالة على الانتساب الاثني لهذه الكنيسة، فوقعوا في خطأ فادح أصبح من الصعب إصلاحه.

لقد تناولنا في الجزء الثّامن من هذه الموسوعة موضوع نشوء المسيحية وانتشارها وتطوّر كنائسها ومعتقداتها وخلافاتها، وصولا إلى المجمع المسكوني الخلقيدوني الذي عُقد سنة ٤٥١ ومقرّراته الحاسمة التي نتج عنها نشوء كنيسة جامعة واحدة تقول

١ ـ راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة: الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة.

بمعتقد واحد، وتعلّم تعليمًا واحدًا، وتعتبر كلّ خارج عنها خارجًا عن تعاليم الكنيسة. ولقد كانت تلك المقرّرات بمثابة المفصل التاريخيّ المسيحيّ الذي قرّر وحدة الإيمان بطبيعة السيّد المسيح ومشيئته، بلاهوته وناسوته. واعتبر منذ ذلك التاريخ أنّ كلّ كنيسة تخلص لهذا الإيمان هي كنيسة مستقيمة الرأي، أي أنّها أرثذوكسيّة، وأنّ كلّ كنيسة تخرج عن تلك المقرّرات الإيمانيّة، لا تكون أرثذوكسيّة.

ومعلوم أنّ الكنيسة البيزنطيّة كانت الكنيسة الرائدة في مجال القول باستقامة الرأي، فكانت أوّل من حمل تسمية الكنيسة الأرثذوكسيّة. أمّا انفصال الكنائس في ما بـ إلى كنائس كاثوليكيّة متمسّكة بالمقرّرات الخلقيدونيّة تخضع لسطة بابا روما، وكنائس أرثذوكسيّة متمسّكة، هي الأخرى، بالمقرّرات الخلقيدونيّة، وغير خاضعة لسلطة بابا روما، هذا الإنفصال، لا ينزع عن الكنائس الكاثوليكيّة صفة الأرثذوكسيّة بمعناها الحقيقي، كما أنّه لا يمنح الكنائس غير الخلقيدونيّة صفة الأرثذوكسيّة بمعناها الأساسي. ولكنّ اعتبار تلك الكنائس لنفسها بأنّها هي صاحبة الرأي المستقيم والإيمان الصحيح، وأنّ الخلقيدونيّين إنّما هم المخطئون، قد جعلها تسمّي نفسها أرثذوكسيّة.

علمًا بأنّ الخلافات المعتقديّة بين بعض الكنائس غير الخلقيدونيّة التي أطلقت على نفسها تسمية أرثذوكسيّة وبين الكنيسة الأرثذوكسيّة الخلقيدونيّة البيزنطيّة، هي نفسها الخلافات المعتقديّة بين تلك الكنائس وبين الكنيسة الكاثوليكيّة. كما أنّ وحدة المعتقد بين الكنيسة الأرثذوكسيّة الخلقيدونيّة الشرقيّة وبين الكنيسة الكاثوليكيّة الخلقيدونيّة الغربيّة تجعل من الكنيستين، ومن فروعهما، كنيسة جامعة واحدة.

ولعلّ الباحث والمؤرّخ الكنسيّ اللبنانيّ الأرثذوكسيّ د. أسد رستم كان أبلغ من تناول جوهر هذه المسألة بقوله:

... علينا أن نُقلع عن التشويق إلى طقس معيّن أرثذوكسيًّا كان أم كاثوليكيًا، فكنيسة المسيح، غربيّة وشرقيّة، في آن واحد. ويجب أن نظلّ هكذا لأنّ السيّد المخلّص إله كامل في إنسان كامل ولأنّ هذه الصفة الشاملة التي تضمّ الشرق والغرب صفة لازمة للكنيسة على ممرّ العصور. وكفانا نحن الإثنين إلى أن يتمّ اتحادنا، أنّ هيرارخيتيتا رسوليّتان وأنّ دستور إيماننا إلهيّ بشريّ واحد لا غشّ فيه، وأنّنا نمارس أسرارًا إلهيّة مقدّسة واحدة تنشئ فينا، بنعمة الله، عندما نصبح مستعدّين، ظرفًا روحيًا طاهرًا يتطلّب الاتّحاد[١] .

إذا تعمّق الباحث في مقرّرات المجامع المسكونيّة السبعة الأولى التي تعترف بها، إلى اليوم، الكنيسة الأرثذوكسيّة البيزنطيّة الخلقيدونيّة، يستخلص أنّ خلاصة تلك المقرّرات تختصَر في المحافظة على الإيمان بطبيعة المسيح ومشيئته تبعًا لفعل الإيمان الذي وضعه مجمع نيقية سنة ٣٢٥، الذي حرّم آريوس وأعلن قانون الإيمان المعروف بالقانون النيقاوي، أو قانون الإيمان النيقاوي، الذي شكّل، منذ ذلك التاريخ، الصلاة الرئيسة التي ينطق بها المؤمن المسيحيّ بحسب قوانين الإيمان الكنسيّة الأساسيّة، وأصبحت تلك الصلاة تعرف عند المسيحيّين بـ"فعل الإيمان"، وهي التالية:

أُؤمِن بإلهٍ واحدٍ آبٍ ضابطِ الكلّ. خالقِ السماءَ والأرض. كلّ ما يُرى وما لا يُرى. وبربٍّ واحدٍ يسوعَ المسيح. إبنِ اللهِ الوَحيد. المولودِ منَ الآب قبْل كُلّ الدهُور. نور مِن نور. إلهٍ حقّ مِن إلهٍ حَق. مولودٍ غير مخلوق. مساوٍ للآب في الجوهر. الذي كان به كلُّ شيء. الذي مِن أجلِنا نحن البشر ومِن أجلِ خلاصنا نزل من السماء. وتجسّدَ من الروحِ القدُسِ ومِن مريم العذراءِ وتأنّس. وصُلبَ عنّا على عهد بيلاطُس البُنطيّ. وتألّمَ وقُبرَ وقامَ في اليومِ الثالثِ على ما في الكتُب. وصعد إلى السماء. وجلَسَ عن يمينِ الآب. وأيضًا يأتي بمجدٍ ليدينَ الأحياءَ والأموات. الذي لا فناء

---

١ - رستم د. أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، المكتبة البولسيّة (بيروت،١٩٨٨) ١: ٢٤.

لمُلكه. وبالرّوحِ القدُسِ الربّ المُحيي. المُنبثِقِ مِن الآب. الذي هوَ معَ الآبِ والإبـن. مسـجودٌ لـهُ ومُمجَّد. النـاطقُ بالأنبيـاء. وبكنيسـةٍ واحـدةٍ جامعــةٍ مقدّسـةٍ رسـوليّة. وأعترفُ بمعموديّةٍ واحدةٍ لمغفرةِ الخطايا. وأترجّى قيامةَ الموتَى والحياةَ في الدهـرِ الآتي. آمين.

فعل الإيمان هذا، كما أقرّه المجمع الخلقيدوني، هـو الصـلاة الأسـاس فـي الكنيسـة البيزنطيّة الخلقيدونيّة النيقاويّة الأرثذوكسيّة، إلاّ أنّه ليس على ما هو عليه فــي الكنـائس غير القائلة بمقرّرات المجامع السـبعة الأولـى، وخاصّـة المجمـع النيقـاوي، وإن كـانت تسمّي نفسها أرثذوكسيّة. ولقد جاءت تلك المقرّرات نتيجة صراع فكريّ عميـق. لذلـك لا بدّ من استعراض تاريخ الفكر المسيحيّ من بداياته.

الفِكْرُ المَسِيحِيّ
بين الوثنيّة واجْتِياحِ الفرس

بينما كانت المسيحيّة تشقّ طريقها إلى القلوب والعقول بعد مجيء المسيح، كان عليها أن تواجه التيّارات الفكريّة التي كانت قد بهرت العقول في ذلك العصر الناهض من التاريخ. فلقد جاء المسيح يوم كان العصر رومانيًا في الشرق. وكانت البلاغة أحبّ الآداب عند الناس. والبليغ "كان الشخص الذي يترافع أمام المحاكم ويعلّم الناس فنّ المرافعة". غير أنّه، عمليًّا، كان البليغ "محاضرًا يذهب من مكان إلى آخر ليظهر مقدرته كخطيب أمام الجماهير المتعلّمة... فكان البلغاء يخطبون في عدد كبير من المواضيع دون أن يقتنعوا بصحّتها"[1]. وكانت البلاغة عنصر مباهاة، وكانت مادّة أرستقراطيّة. ومن الأمثلة على المباهاة، أنّ أدريانوس الصوريّ، عندما هاجر إلى أثينة "حيث تبوّأ كرسي البلاغة وفي الخطاب الافتتاحيّ الذي وجّهه إلى الأثينيّين، أسهب في الكلام، ليس على حكمتهم، بل على حكمته، لأنّه بدأ كلامه بقوله: للمرّة الثانية تأتي الآداب من فينيقية"[2]. ومن أدريانوس أيضًا نسوق مثل أرستقراطيّة البلاغة، إذ كان هذا

---

١ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٨) ١: ٣٥٤.

٢ - PHILOSTRATUS & EUNAPINS, *THE LIVES OF THE SOPHISTS*, RD. & TR. WILMER C. WRIGT (LONDON, 1922) .P. 227.

البليغ الصوريّ "يلبس الثياب الثمينة ويزيّن نفسه بالجواهر ويركب، في طريقه لإلقاء محاضراته، عربة كانت لجُمُ خيولها مطليّة بالفضّة... وعندما كان أدريانوس في أثينة قابل الأمبراطور ماركوس أورليوس[1] الذي دعاه في طريق عودته إلى العاصمة لزيارة بلاطه. وكان أدريانوس مسرورًا بمغادرة أثينة حيث حوكم وبرّئ من تهمة قتل سفسطائيّ أهانه. وشرّف أدريانوس الأمبراطور بصداقته له، حتّى أنّه تنازل وعيّن له موضوع إحدى خطبه. وعيّنه كومودوس[2]، خلف أوريليوس، سكرتيره الخاصّ"[3].

كان أمثال أدريانوس عديدين. ومن هؤلاء: أنتيباتر تلميذ أدريانوس، وقد عاش في النصف الأوّل من القرن الميلاديّ الثاني. ولوكيانوس السميساطيّ المولود حوالى سنة ١٢٥. وسواهما ممّن كانوا يمتهنون الأدب المأجور أحيانًا.

وفي أفضل الأحوال، كان الفكر يتناول الأفلاطونيّة الحديثة، إضافة إلى السفسطائيّة. وكانت أفامية قد غدت في القرن الثالث مركز مدرسة للأفلاطونيّة الحديثة. وأغلب الظنّ، أنّ النظريّة الجوهريّة قد وُضعت في مدينة صيدا. أمّا صور، فقد حافظت على شهرة عالية في الفلسفة. وكان للإسكندريّة أيضًا مكانة عالية في هذا المجال. أمّا بيروت، فقد برزت في مجال القانون بفضل مدرسة الحقوق الرومانيّة التي ازدهرت فيها منذ أوائل القرن الثالث حتّى منتصف القرن السادس. وقد سمّي

---

١ ـ ماركوس أورليوس (١٢١ ـ ١٨٠): فيلسوف رواقي وأمبراطور روماني ١٦١ ـ ١٨٠، تبنّاه أنطونيوس بيوس واستخلفه مع ابنه بالتبني لوكيوس فروس ١٦١، انفرد بالحكم فأضحى أمبراطورًا رومانيًا ١٦٩ ـ ١٨٠، اشتهر في الفلسفة بـ"تأملاته" وفي الحكم بإخلاصه لواجبه، عطف على الفقراء وخفف عنهم الضرائب وتسامح مع أعدائه السياسيّين، حدّ من وحشيّة اللهو فمنع إطلاق الوحوش للفتك ولكنّه واصل سياسة تراجان في اضطهاد المسيحيّين.

٢ ـ كومودوس (١٦١ ـ ١٩٣): إبن ماركوس أورليوس وخليفته، أمبراطور روماني ١٨٠ ـ ١٩٢، كان عربيدًا مغرورًا وضيع الميول معجبًا بقواه الجسديّة، كرهه الناس كرهًا عميقًا وانتهى الأمر بقتله.

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٥٥.

يوستينيانوس مدينة بيروت "أمّ القوانين ومرضعتها". ومن معهدها برز أقطاب القانون في ذلك العصر، أمثال بابينيانوس[1] وأولبيانوس[2].

كان فلاسفة الأفلاطونيّة الحديثة يتناولون في اجتهاداتهم مواضيع العقل والروح واللاهوت بوجه عام. إضافة إلى الرياضيّات ونظريّات الأرقام وموضوع خلود العالم، كما اجتهدوا في مواضيع علم النفس، غير مفرّقين بين المفهومين الحديثين لكلّ من "النفس" و"الروح"[3].

وسط هذه الأجواء الفكريّة، كان المفكّرون من كبار معتنقي المسيحيّة يحاولون تعميم الإيمان بالدين الجديد على مستوى العقل، بعد أن آمن العامّة من قبيل الرجاء والعاطفة. وإذا كان الفقراء والمنبوذون والمساكين والمرضى قد وجدوا في الدين الجديد ملاذًا ورجاء، فأقبلوا عليه هربًا من اليأس، فإنّ أولئك الأرستقراطيّين المتباهين من أهل الفكر، لم يجدوا في الدين الجديد ما يتناسب مع كبريائهم. من هنا فإنّ المهمّة الأصعب التي واجهتها الكنيسة يومذاك، كانت استقطاب أهل الفكر واستيعابهم. وكان عليها أن تتمكّن من الانتصار، في الوقت نفسه، على ديانات الأسرار التي كان الانتساب إليها بدوره أرستقراطيًّا، مقتصرًا على أولئك الذين أُتيح لهم الاطّلاع على أسرارها.

---

١ - إميليوس بابينيانُس (١٤٢ - ٢١٢): معلم الحقوق في مدرسة بيروت، جمع وشرح القوانين الرومانيّة، قتله الأمبراطور كاراكلاّ ظلمًا.

٢ - دوميتيوس أولبيانُس ULPIANUS (١٧٠ - ٢٢٨): فقيه في الحق الروماني، ولد في صور، علّم في مدرسة بيروت، جمع الشرائع الأمبراطوريّة فكانت أساسًا لـ "ديجست" يوستينيانوس.

٣ - راجع: ZELLER ED., *DIE PHILOSOPHIE DER GRIECHEN*, 3ED. ED. (LEIPZIG, 1881) III: PT. 2, PP. 636 - 677, 700.

أوّل من برع في مجال الفكر المسيحيّ في بداية عهد المسيحيّة، كان أولئك الذين عُرفوا بـ "الآباء الرسوليّين". وقد عُرفوا بالرسوليّين لمعاصرتهم بعض رسل المسيح. ومن أشهر هؤلاء، القدّيس اغناطيوس الأنطاكيّ الذي تتلمذ على يد يوحنّا الرسول، وخلف بطرس في أسقفيّة أنطاكية، ومات شهيدا في روما حوالى سنة ١١٠. وهو واضع "الرسائل السبع" المحفوظة في تاريخ الكنيسة، والتي تتضح فكرًا مسيحيًّا عميقًا، كان له تأثيره في الفكر الوثنيّ دون شك[1]. ومن آباء الكنيسة القدّيس يوستينوس JUSTINUS (نحو ١١٠ - ١٩٣) وهو الكاتب والفيلسوف المسيحيّ الذي وُلد في نابلس من أعمال فلسطين، ودرس المذاهب الفلسفيّة طلبًا للحقيقة فلم يقتنع، ثمّ اهتدى إلى المسيحيّة وأسّس مدرسة لاهوتيّة فلسفيّة في روما، ووضع دفاعَين شهيرَين عن الدين المسيحيّ، قبل أن يتمّ استشهاده في روما[2]. وتاتيانوس السوريّ TATIANUS (١١٠ - ١٨٠) من مواليد الجزيرة السفلى الذي بدأ حياته الفكريّة هو الآخر باحثًا عن الحقيقة كما يوستينوس، إلى أن اعتنق المسيحيّة في روما ولزم هذا الأخير، فأخذ عنه وانتصر للمسيحيّة ودافع عنها، وأنشأ في روما بعد استشهاد معلّمه مدرسة علّم فيها الدين وشرح الأسفار[3]. وتيوفيلوس الأنطاكيّ القديس الذي عُدّ من آباء الكنيسة والذي ترأس أسقفيّة أنطاكية بين (١٦٩ - ١٨٥) وقد وضع مؤلّفات هامّة في عقيدتَي التوحيد والتثليث مجاهدًا ضدّ الهراطقة. إلاّ أنّ هذا المجاهد المسيحيّ لم يكن مفكّرًا من الطراز

---

١ - راجع: EUSÈBIUS, BK. III:36.

٢ - راجع: JUSTIN APOLOGIA, I: 2; LEBRETON J., *APOLOGIA, CHRET. IIME SIÈCLE*, FLICHE ET MARTIN, HIST. DE L'EGLISE, I: 427 - 451; BARDI G., *LA CONVERSION DANS LES PREMIERS SIÈCLES*, ANNÉE THEOL.(1949) PP 89 - 100, 206- 323.

٣ - راجع: ORAT., 29; QUASTEN J., *INITIATION*, I. PP. 249 - 250; LEBRETON J., *TALIEN*, FLICHE ET MARTIN, HIST. DE L'EGLISE, I, PP. 451- 454.

الأوّل وإن كان أديبًا واسع الخيال رشيق اللفظ فخم الكلام، فهو، وإن كان قد سخر ممَّن بحث في شكل الأرض وقال إنّ العقل البشريّ لا يمكنه أن يدرك ما إذا كانت الأرض كرويّة الشكل أو مكعّبة، فقد أجاد الدفاع عن الكنيسة ومبادئها المستقيمة[1]. ومن أشهر مصنّفاته رسائله الثلاث إلى أوتوليكوس المجهول الهويّة تاريخيًّا، إنّما يتّضح من رسائل ثيوفيلوس أنّه كان وثنيًّا مجّد آلهته وسخر من ثيوفيلوس لاعتناقه المسيحيّة، وهزئ من إلهه غير المنظور، ومن قيامة الموتى، فجاءت رسائل ثيوفيلوس ليردّ من خلالها على ذلك الوثنيّ مجيبًا بأنّ "اللّه روح لا يراه إلاّ المؤمن، ولا يجده إلاّ نقيّ القلب، ولا يوصف لأنّه يفوق البصيرة، وإذا كنّا لا نبصره فإنّنا نلمس وجوده بمظاهر عنايته وتدبيره". أمّا بشأن قيامة الموتى فيقول: "أوليس من الضروريّ أن نثق بالطبيب الذي يعالجنا، والمعلّم الذي يعلّمنا، والربّان الذي يقود سفينتنا؟ فأحرى بنا أن نؤمن بما يقوله الله لنا: إله الحق لا آلهة الوثنيّين المزوّرة". ويتساءل ثيوفيلوس عن ماهيّة آلهة الوثنيّين وقيمتها وسبب توقّفها عن التناسل بعد خصبها الأوّل. ويهزأ من الفلاسفة الوثنيّين فيرى في اعترافهم بوجود هذه الآلهة وفي اختلافهم في الرأي حولها ضربًا من الجهل ودليلاً على عدم قيمة فلسفاتهم. كما شدّد ثيوفيلوس على قصّة الخليقة كما جاءت في سفر التكوين مواجهًا بها ضآلة الأساطير اليونانيّة حول كيفيّة نشوء العالم، مؤكّدًا على أنّ الأنبياء وحدهم يستحقّون الثقة في ما يقولون بموضوع الخليقة، لأنّهم إنّما بوحي اللّه يتكلّمون. ليخلص بعد هذا كلّه إلى أنّ موسى والأنبياء أقدم بكثير من مشترعي اليونان وشرائعهم[2]. وخلاصة قول ثيوفيلوس هو بإله واحد خالق

---

١ - EUSEBE, *HIST. ECCL.*, IV: 24; THÉOPHILE, *AD. AUTOL.*, II: 13, 24, 32, III: 18; JÉRÔME, *VIRIS IN LUSTRIBUS*, XXV; TIXERON J., *PRÉCIS DE PATROLOGIE*, PP. 58 - 59.

٢ - THÉOPHILE, *AD., AUTOL.*, I: 2 - 9, II: 2 - 38, III: 16 - 23.

السماوات والأرض لا بداية له ولا نهاية حيّ قيوم لا يتغيّر. وهو آب لأنّه سبق كلّ شيء وخلق كلّ شيء. وكان الكلمة عند الله وكان كائنًا فيه، ففاهَ الله بالكلمة قبل كلّ شيء وصنع بها كلّ شيء. وأنطق الأنبياء بالروح القدس فكانوا قدّيسين عادلين، وبحكمته تكلّموا على خلق العالم وعلى كلّ شيء[١].

وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ ثيوفيلوس كان القائل الأوّل بالثالوث الأقدس. إلاّ أنّ هذا أمر غير دقيق لأنّ القول بالثالوث قد جاء في الأناجيل نفسها. إنّما قد يكون ثيوفيلوس أوّل من استعمل لفظ الثالوث وليس أوّل مَن استعمل معناه. قد يكون أوّل من استعمل هذا اللفظ في الأدب المسيحيّ القديم. ومن خلال ما تبقّى من مدوّنات ثيوفيلوس وما أمكن حفظه، يتبيّن أنّ الأعمال الأدبيّة والفكريّة لهذا الأب الكنسيّ قد اقتصرت على ردّ بعض التهم الموجَّهة إلى المسيحيّة دون أن يتناول العقيدة بشكل كامل[٢].

ومن الذين اشتهروا في هذا المجال: سرابيون SERAPION وهو الأسقف التاسع على أنطاكية بعد بطرس. وقد صنّف رسائل عدّة في موضوع الدفاع عن الإيمان المسيحيّ، كما صنّف كتابًا في الإنجيل المزعوم لبطرس بيّن فيه التزوير المرقيونيّ.

ومن أشهر آباء الكنيسة الذين عاشوا قبل مجمع نيقية، أوريجين ORIGÉNÈS (١٨٥ - ٢٥٣) المولود في الإسكندريّة. وقد أصبح أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتيّة، كما أسّس مدرسة أخرى في قيصريّة. ووُصف بأنّه من نوابغ الفكر البشريّ. وقد ترك آثارًا واسعة في اللاهوت، وشرح الأسفار المقدّسة، وإن كان قد تطرّف في بعض تعاليمه[٣].

---

١ - THÉOPHILE, *AD., AUTOL.*, II: 9 - 10.

٢ - BARDY G., *THÉOPHILE D'ANTIOCHE*, PP. 40 - 46.

٣ - JUSTIN., *APOLOGIA*, I: 2.

في العهد البيزنطيّ، "استمرّت المجادلات بين الكتّاب اليونان واللاتين من المسيحيّين، وبينهم من غير المسيحيّين، لعدّة سنوات، بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحيّة. ولم تكن قد اندثرت بعد الأفلاطونيّة الحديثة التي بلغت أزهى عصورها في القرن الثالث والقسم الأوّل من القرن الرابع... وكان آباء الكنيسة يشقّون طريقهم إلى الأمام كقادة للفكر، بينما كان السفسطائيّون والبلغاء يتراجعون دون أن يزولوا تماما"[1].
في هذه الحقبة برز في أنطاكية بلغاء سوريّون بعد أن أسّس ليبانوس (٣١٤ ـ حوالى ٣٩٣) مدرسة للبلاغة فيها. وكان ليبانوس هذا، هو "من مواطني أنطاكية، ويُظهر اسمه بعض العلاقة مع لبنان"[2]، يحتقر المسيحيّة ويعدّها عدوّا للحضارة الصحيحة، ولا يرى خيرًا إلاّ في الهلّينيّة. كذلك فعل سواه من أساتذة هذه المدرسة أمثال أميانس مرسلينوس (٣٣٠ ـ ٤٠١) الذي، وإن كان في مواقفه الفكريّة أكثر تسامحا من ليبانوس، فقد كان على العموم مناهضًا للفكر المسيحيّ.

جعلت مدرسة أنطاكية، لكثرة ما أنتجه أولئك المؤلّفون، من أنطاكية، العاصمة الفكريّة لسورية الشماليّة، فمن تلامذة ليبانوس ومدرسته سوف ينبغ فلاسفة ومفكّرون مسيحيّون خيّبوا ظنّ أستاذهم عدوّ المسيحيّة. من هؤلاء من كان مستقيم الرأي أمثال يوحنّا فم الذهب وباسيليوس الكبير، أو أصحاب بدع أمثال آريوس ونسطوريوس. وما من شكّ في أنّ القدّيس يوحنّا فم الذهب (٣٤٧ ـ ٤٠٧) كان أبرز المؤلّفين المسيحيّين الذين أنجبتهم أنطاكية في تلك الحقبة من التاريخ.

كان يوحنّا يحصّل العلم أصلا ليتخصّص في القضاء، إلاّ أنّه بُهر بالمسيحيّة التي نزلت على روحه دعوة حقيقيّة لا مناص منها، فتخلّى فجأة عن مساره المقرّر ليتّبع

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٩٣.

٢ ـ المرجع السابق.

حياة الزهد في جبل قريب من أنطاكية، ومن ثمّ راح يعظ بفصاحة نادرة في مدينته أنطاكية داعيًا إلى نبذ الميوعة في الأخلاق والترف في الحياة. ذلك أنّ جامعي الثروات في ذلك الزمان والمكان ما كانوا يعفّون عن وسيلة من أجل بلوغ غايتهم، فكانوا يستعملون العنف والاحتكار والخداع والربا الفاحش ضاربين عُرض الحائط مسألة المعوزين والمحرومين والمساكين. عنّف يوحنّا وأنّب وهاجم ببلاغته جميع هؤلاء. حتّى أنّه طال بهجومه البلاط الأمبراطوريّ بالذات، ما أغضب الأمبرطورة أفدوكية. فلقد كان يوحنّا هذا، ليس ذهبيّ الفم فحسب، بل أوّل ثائر مسيحيّ قياديّ في التاريخ. أمّا رسالته فكانت اجتماعيّة فريدة في ذلك العصر الذي تركّز فيه الفكر المسيحيّ على موضوعَي الكهنوت واللاهوت. وقد أدّت شهرة هذا الثائر المسيحيّ البليغ إلى انتخابه سنة ٣٩٨ بطريركًا للقسطنطينيّة. وممّا من شأنه أن يلقي مزيدًا من الضوء على الشخصيّة الفذّة لذلك المناضل المسيحيّ الإنسان، أنّه فور انتخابه بطريركًا لعاصمة قسطنطين كان أوّل ما فعله أنّه باع الكنوز التي كانت في الأسقفيّة والتي كان قد جمعها أسلافه، وأنفق أثمانها على الفقراء والمعوزين. ولم يمنعه ارتقاؤه السدّة البطريركيّة من استئناف حملته البليغة الصاعقة على الجشعين والسلطويّين والمتسلّطين، ودعوته الصارخة لإنصاف الفقراء والمساكين. لقد كان هذا الأسقف الثائر أوّل مَن ترجم دعوة المسيح السماويّة إلى لغة أهل الزمان. ولم يعرف تاريخ الكنيسة رائدًا لإنصاف المرأة قبل يوحنّا فم الذهب، فهو أوّل مَن أكّد على أنّ خيانة الزوج في المسيحيّة، لا تقلّ شرًّا عن خيانة الزوجة. كان هذا بحدّ ذاته ثورة في المفاهيم الاجتماعيّة يومذاك. ولم تقتصر ثورة يوحنّا على المجتمع العلمانيّ وعلى البلاط وأهله، بل تعدّت كلّ ذلك إلى الكنيسة نفسها، إذ من سدّته البطريركيّة راح يطهّر الإدارة الكنسيّة بيد طاهرة كاوية بادئًا من الأعلى دون أيّ تردّد.

لقد كان يوحنّا جديرًا بلقب أكثر أهميّة من الفم الذهبيّ، وإن كان كلامه سامي المدلول، ولكنّ ثورته المسيحيّة الرائدة كانت أبلغ من الكلام بكثير. لقد كان جديرًا بأن يُسمّى يوحنّا المحرّر.

لم يُرهب هذا الفذَّ بإيمانه وريادته البلاطُ ورجال الدولة وكلّ من يتبعها من خوذ. وصف أفدوكية زوجة الأمبراطور أركاديوس بأقسى الألقاب فأدان تكبّرها، وشبّهها بهيرودية HÉRIODIADE زوجة هيرودُس أنتيباس غير الشرعيّة التي حملت زوجها على قطع رأس يوحنّا المعمدان، محتجًّا على إقامة تمثال لها قرب الكنيسة العظيمة. وبالفعل فإنّ يوحنّا لم يكن مخطئًا في تشبيهه لأفدوكية بهيرودية، وكأنّه كان مدركًا مصيره بما يشبه النبوّة. فمثلما اغتالت هيرودية يوحنّا المعمدان كذلك فعلت أفدوكية التي اضطهدت يوحنّا فم الذهب، ما أدّى إلى نفيه مرّتَين من العاصمة. فتحمّل متاعبه كلّها بثبات وصبر، "إلى أن توفّي وهو في طريقه إلى المنفى في أقصى حدود الأمبراطوريّة قرب القفقاس، وقد أُجبر على المسير مسافات طويلة متعرّضًا لأشعّة الشمس والأمطار، فانهارت قواه وتوفّي في الطريق"[1]. ونُقل جثمانه "في ما بعد إلى القسطنطينيّة ودُفن في احتفال مهيب. وقد أكسبته شهرته كأعظم واعظ في الكنيسة الأولى لقبًا عُرف به بعد وفاته وهو الذهبيّ الفم... ويدوم اعتبار يوحنّا على مدى العصور كمعلّم من أشهر معلّمي الأخلاق المسيحيّة الأولى الذين أنجبتهم الكنيسة". وقد وُجدت على جدار كنيسة آياصوفيّة في استانبول سنة ١٩٤٦ صورة له من الفسيفساء مخبّأة تحت الملاط الذي غطّاها به الأتراك مع غيرها من الصور منذ قرون عدّة.

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٩٦ – ٣٩٧ بالاستناد إلى: SOZOMENUS, VIII:28; PALLADIUD, VI; *PATROLOGIA GRAECA*, ED. J.P. MIGNI, VOLS: XLVII - XLIV (PARIS 1826 - 1863); *THE NICENE AND POST - NICENE FATHERS OF THE CHRISTIAN CHURCH*, ED., PHILIP SCHAFF, SER 1, VOL. 9 - 14 (NEWYORK, 1889 - 1890).

لم يكن يوحنّا فم الذهب الوحيد بين آباء الكنيسة الذين ظهروا في تلك الحقبة، وإن كان هو الأبرز. فلقد "أنجبت كنيسة أنطاكية عددًا من العلماء الأعلام الذين دافعوا عن العقيدة القويمة في عصر كثرت فيه البدع واشتدّ ضغط الهرطقة، وحافظوا على نصوص الأسفار المقدّسة في زمن كثر فيه اختلاف المعاني الرمزيّة"[1]. من هؤلاء أفلوغيوس أسقف الرها. وماركلّوس الشهيد أسقف آفامية. وكيرلّلوس، ويوحنّا أسقفا أورشليم، وأبيفانوس أسقف سلامينة قبرص[2].

ومن الذين اشتهروا من أهل الكنيسة في الربع الأوّل من القرن الخامس بمقاومتهم الآريوسيّين والماركونيّين والمقدونيّين وعموم المونوفيزيّين، ثيودوريتُس (٣٩٣ ـ ٤٦٦) الكاتب السريانيّ الذي وُلد ونشأ في أنطاكية وأخذ عن أساتذتها العلوم الدنيويّة، ثمّ نقل عن آبائها تفسير الأسفار المقدّسة واللاهوت قبل أن يقبل النذر ويدخل أحد الأديار بالقرب من آفامية معتنقًا الطهر والعفّة والتقوى، ما رفعه إلى درجة الأسقفيّة على قورش (٤٢٣ ـ ٤٣٠). ويُعتبر مصنّفه الـ (CURATIO) في الدفاع عن المسيحيّة من أهمّ المصنّفات في هذا المجال، وتمكّن هذا الأسقف من خلال أعماله الفكريّة واللاهوتيّة والرعويّة من إعادة أكثر من عشرة آلاف ضالّ إلى النهج المستقيم ولعب أيضًا بعضًا من الدور الاجتماعيّ الذي أسّسه يوحنّا فم الذهب، فكان يدافع عن حقوق أبناء المجتمع تجاه السلطة ورجالها. ومن أشهر مؤلّفاته كتاب "الردّ على اللعنات". وهو كتاب ضائع لم يبقَ منه سوى ما جاء في رسائل كيريلّلوس الإسكندريّ في معرض الردّ على بعض محتوياته. ويُعزى إليه هذا النجاح في توحيد صفوف الكنيسة

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ١: ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

٢ ـ راجع: BARDENHEWER O., *GESCHE. DER ALTKIRCHLICHEN LIT.*, III: 304 - 324; SOZOMÈNE, *HIST. ECCL.*, VII: 15.

الجامعة إثر العاصفة التي حلّت بها في تلك الحقبة من التاريخ[١]. غير أنّ الخلقيدونيّين، رغم كلّ هذا، عادوا وحرّموا مؤلّفات ثيودوريتُس سنة ٥٥٣ بعد مرور ٨٧ عامًا على وفاته إذ اتّهم بالانحياز إلى الفكر النسطوري.

إنّ ما يدعو إلى الأسف أنّ قادة الفكر المسيحيّ في تلك الحقبة من التاريخ قد انشغلوا في الخصام العقائديّ حول طبيعة المسيح، فتحوّل ذلك المجهود الفكريّ الذي شغل الفكر المسيحيّ لتعميم الرسالة على أنقاض الوثنيّة، إلى الخصومات الداخليّة، ما أوقف زخم انتشار الرسالة وأحلّ بالمسيحيّة مسلسلاً من الانتكاسات، عبثًا حاول بعض الأباطرة اتّقاءها. وعوضًا عن اجتهاد الإكليروس لتنمية المسيحيّة في البلاط، كما كان شأنهم في السابق، أصبح همّ البلاط درء تصدّع الكنيسة والعمل على إعادة اللحمة إليها، ولكن دون جدوى، بسبب تعاظم الخلافات والانشقاقات.

إلى جانب نبغاء الفكر والفلسفة واللاهوت برز من آباء الكنيسة في عصورها الأولى مؤرّخون عظماء، أدّوا لها قسطًا رائعًا من تثبيت ركائز بنيانها عبر الزمن. من هؤلاء يوسيبيوس (٢٦٤ - حوالى ٣٤٩) أسقف قيصريّة فلسطين الذي يُعتبر المؤرّخ الكنسيّ الأوّل.

وُلد يوسيبيوس في البلدة التي أصبح أسقفها ودرس في أنطاكية. وكان في بداية أمره مدافعًا عن قضيّة آريوس، إلاّ أنّه في مجمع نيقية الذي عهد إليه قسطنطين بافتتاح جلساته، أدان زعيم الهراطقة.

---

١ - AZEMA, Y., *CORRESPONDANCE "THÉODORET DE CYR."*, PP. 14 - 16, 44 - 56;
CANIVET P., *PRÉCISIONS SUR LA DATE DE LA CURATIO*
(RECHERCHES SCIENTIFIQUES RELIGIEUSES, 1949)
PP. 585 - 593; BARDY G., *L'ACTE DE L'UNION*, FLICHE ET MARTIN, V, PP. 209 - 210.

كان يوسيبيوس من أعظم الرجال المثقّفين في عصره "وقد وضع عدّة مؤلّفات تاريخيّة، منها التاريخ الكنسيّ: ECCLESIASTICAL HISTORY الذي يصف فيه بالتفصيل ظهور المسيحيّة وعلاقتها بالأمبراطوريّة". وقد كان يوسيبيوس طيلة حياته "صديقًا حميمًا لقسطنطين ومعجبا به ومتحمّسا له"[1].

بعد يوسيبيوس بحوالى مئتي عام وُلد مؤرّخ آخر في قيصريّة هو: بروكوبيوس PROCOPIUS الذي توفّي حوالى سنة ٥٦٣، بعد أن أرّخ الكنيسة في عصر يوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) الغنيّ بالأحداث. وقد صحب هذا المؤرّخ الكنسيّ الشهير، في شبابه القائد الرومانيّ بالبساريوس BELISARIUS في جميع حملاته في الشرق والغرب بوصفه أمينا خاصّا ومستشارا قانونيّا له. وقد أصبح في ما بعد عضوًا في مجلس الشيوخ. إلاّ أنّ هذا الذي أرّخ الكنيسة في تلك الحقبة الحرجة من التاريخ، لم يكن ملتزمًا في مسيحيّته. ذلك أنّه أرّخ في كثير من الأحيان وهو متحمّس لآلهة اليونان[2].

أمّا المؤرّخ الكنسيّ اليونانيّ سوزومينوس الذي جاءت أعماله في القرن الخامس، فأصله من جوار غزّة ومسقط رأسه: بيت إيل BETH ELIA، والداه مسيحيّان. وقد ازدهرت في غزّة آنذاك مدرسة للبلاغة كانت متأثّرة بالجوّ العلميّ للإسكندريّة، وكان بعض أساتذتها من الأفلاطونيّين الحديثين "ولكنّ الأكثريّة منهم دعوا أنفسهم بالسفسطائيّين المسيحيّين. وكانت مؤلّفاتهم تشتمل على شروح للتوراة ورسائل ضدّ الهلّينيّين أو غير المسيحيّين".

ولم تكن بيروت أقلّ شأنا من أنطاكية أو غزّة أو قسطنطينيّة أو الإسكندريّة في مجال الفكر في ذلك العصر. ولم تكن المادّة الحقوقيّة المادّة الوحيدة التي شهرت

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٩٧.

٢ - H.B. DEWING, *PROCOPIUS*, 7 VOLS. (LONDON AND CAMBRIDGE MASS 1914 - 1940)

بيروت في عالم الفكر والفلسفة، فكثيرون هم الأساقفة والقدّيسون والشهداء المسيحيّون الذين بدأوا تحصيلهم في بيروت. من هؤلاء غريغوريُس توماترجس THAUMATURGUS أي صانع العجائب. وبامفيلوس PAMPHILUS. وغريغوريوس نازينزي NAZIANZUS الذي أصبح في ما بعد قدّيسًا، إضافة إلى سفيروس ويوسيبيوس.

أمّا الإسكندريّة فقد غدت مركزًا مسيحيًّا خطيرًا، وقاعدة مدرسة لاهوتيّة من ملافنتها: إكليموندس الإسكندريّ (نحو ١٥٠ ـ ٢١٤) الكاتب المسيحيّ الذي علّم فيها، لا بل كان من مؤسّسيها. وأوريجينوس ORIGENES (١٨٥ ـ ٢٥٣) أحد نوابغ الفكر البشريّ الذي وُلد أيضًا في الإسكندريّة وأصبح من أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتيّة. وأثناسيوس الإسكندريّ ATHANASIUS (٢٧٣ ـ ٢٩٥) بطريرك الإسكندريّة وأحد آباء الكنيسة وقد حارب الآريوسيّة بعد المجمع النيقاويّ، ونُفي خمس مرّات بسبب صلابة رأيه، وهو مَن كتب حياة القدّيس أنطونيوس وعدّة مؤلّفات لاهوتيّة.

إنّ ما يميّز الفكر المسيحيّ في العهد البيزنطيّ عمّا كان عليه في العهد الرومانيّ، وكذلك ما يميّز نشاط الكنيسة في الحقبة نفسها عن سابقاتها، أنّ الاهتمام كان منصبًّا بخلالها على التناحرات الفكريّة المسيحيّة، وعلى الخلافات العقائديّة داخل الكنيسة نفسها، بينما كان الاهتمام في العصر الرومانيّ منصبًّا من قبل آباء الكنيسة الذين خلفوا الرسل على تعميم المسيحيّة وانتشارها على حساب الوثنيّة.

إلاّ أنّ هذا لم يمنع من سيطرة المسيحيّة تمامًا، أو بشكل شبه تام في المنطقة الواقعة على الشاطئ الشرقيّ للبحر الأبيض المتوسّط، وإن كانت تلك المسيحيّة منقسمة إلى كنيستَين أو أكثر أحيانًا. ولكنّ الشيوع الذي عرفته المسيحيّة في هذه البقعة من العالم وفي ذلك العصر من التاريخ، لم تكن قد عرفته من قبل، كما أنّها لن تعرفه من بعد.

إسْتِقامَة وَسْطَ الصِّراعَات

إستمرّت الكنيسة النيقيّة الخلقيدونيّة الأرثذوكسيّة متمسّكة بثوابت معتقدها باستِقامة عنيدة، رغم تعدّد الفلسفات والاجتهادات حول طبيعة المسيح ومشيئته، وسوى ذلك من الفلسفات اللاهوتيّة التي طلع بها أساقفة ومفكّرون، خرجوا عن المعتقد الذي أكّدت عليه المجامع المسكونيّة السبع الأولى، وقد درجت الكنيستان الأرثذوكسيّة والكاثوليكيّة على تسمية تلك الاجتهادت بالبدع[1].

كان آخر انشقاق عظيم تعرّضت له الكنيسة بعد النسطوريّة، قد حصل نتيجَة قولِ بعضِ قادة الكنيسة السّريانيّة بالطبيعة الواحدة في المسيح، أي بـ"المونوفيزيّة"[2].

كان أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قد رفضوا القبول بمبدأ الطبيعتَين: الإلهيّة والبشريّة، في الشخص الواحد للمسيح، الذي أكّد عليه مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١. واعتقد أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بأنّ المظهر البشريّ والإلهيّ في المسيح لا يشكّل سوى طبيعة مركّبة واحدة، واتّخذوا شعارًا لهم: "الطبيعة الواحدة لكلمة اللّه المتجسّدة". ومن هنا أتى اسمهم: المونوفيزيّون[3].

---

١ ـ البِدْعة: جمعها البِدَع، ما أُحدث على غير سابق.

٢ ـ المُونُوفيزيّة: أصل الكلمة مركّب من كلمتين يونانيّتين MONOS و PHYSIS الأولى تعني "واحد" والثانية تعني "طبيعة"، ومعنى الكلمة المركّبة MONOPHYSIS التي جاءت منها MONOPHYSITISME أي المونوفيزيّة: طبيعة واحدة.

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٤١٢.

هذه العقيدة التي سوف يُعرف أتباعها، في ما بعد، باليعاقبة، نسبة إلى أحد أهمّ الآباء العاملين على تعميمها: يعقوب البرادعي. وسوف يكون لها كنيستها السريانيّة في نطاق أنطاكية وسواها، وهي التي ستُعرف بالكنيسة السريانيّة الأرثذوكسيّة، التي ستنشقّ عنها لاحقًا كنيسة سريانيّة كاثوليكيّة تخلّت عن القول بالطبيعة الواحدة، وقالت بالعقيدة النيقاويّة الخلقيدونيّة واتّبعت كنيسة روما[1]. كذلك انتشرت الدعوة المونوفيزيّة في مصر وجوارها حيث قالت بها الكنيسة القبطيّة التي ستُعرف بالكنيسة القبطيّة الأرثذوكسيّة، والتي ستنشقّ عنها لاحقا هي الأخرى كنيسة أرمنيّة كاثوليكيّة ستتبع روما[2]. وطالت العقيدة المونوفيزيّة قيليقية وأرمينيا حيث قالت بها الكنيسة الأرمنيّة الغريغوريّة الأرثذوكسيّة التي تمكّنت الكنيسة الكاثوليكيّة أيضا من استمالة جزءٍ منها[3].

كان الأمبراطور البيزنطيّ يوستينيانُس الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥) قد حاول توطيد الأمبراطوريّة في السياسة والقانون، وخاصّة في الدين، ومن أجل ذلك ضيّق على الذين لم يخضعوا لمقرّرات المجمع الخلقيدونيّ إلى درجة حرمانهم حقوقهم المدنيّة. إلاّ أنّ المونوفيزيّين قد استُثنوا من تلك التدابير لأنّ يوستينيانُس أمل بإمكانيّة التفاهم معهم حول الدستور النيقاويّ من خلال الاجتهاد في بعض تفسيراته، علما بأنّ المونوفيزيّين كانوا قد نموا بشكل واسع في الأرجاء الشرقيّة للأمبراطوريّة وخاصّة في مصر. إضافة إلى أنّ ثيودورة THÉODORA، زوجة يوستينيانُس التي كانت شديدة الذكاء والحزم والطموح، وقد ساعدت زوجها في شؤون الحكم وتدخّلت بالسياسة عامّة والدينيّة منها

---

١ ـ راجع: الكنيسة السريانيّة، الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ راجع: الكنيستان القبطيّة والحبشيّة، الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ راجع: الكنيسة الأرمنيّة، الجزء الخامس عشر من هذه الموسوعة.

بشكل خاصّ، كانت مقتنعة بالعقيدة المونوفيزيّة، فتمكّنت من إقناع زوجها الأمبراطور بالتساهل مع قادة المونوفيزيّة الذين راحوا ينظّمون أنفسهم في أديار ورهبانيّات.

وفي سعيه لإيجاد التفاهم بين شطري الكنيسة، دعا يوستينيانُس إلى مؤتمر عُقد في القسطنطينيّة سنة ٥٣٣ بحضور أساقفة من الفئتَين. فنتج من ذلك المؤتمر اتّفاق الطرفين على شجب أوطيخة[١]. إلاّ أنّهم اختلفوا حول "طبيعة" المسيح. فقال ممثّلو الكنيسة الأمّ بالطبيعتين للمسيح، بينما قال المونوفيزيّون، مصريّين، بالطبيعة الواحدة[٢]. وإذ حاول الأمبراطور، بعد فشل هذا المؤتمر، أن يجد اجتهادًا من أجل توحيد الكنيسة، أصدر إرادتين سنيّتين أمبراطوريّتَين أبان فيهما موقفه من النزاع القائم حول الطبيعة الواحدة والطبيعتين، فأهمل ذكر أيّ مجمع مسكونيّ سابق، وتحاشى الإشارة إلى الطبيعتين، وأكّد على وحدة شخص السيّد المسيح على طريقة الرهبان "السكيتيّين[٣]" الذين قالوا بـ"تألّم الإله". إلاّ أنّ الأمبراطور، ليس فقط لم يوفّق إلى غايته، بل أدّت اجتهاداته إلى رفض المونوفيزيّين لها، وإلى إغضاب الرهبان الذين "لا ينامون"[٤]، رغم أنّ البابا يوحنّا الثاني (بابا روما ٥٣٣ ـ ٥٣٥) قد نظر في هذا النصّ اليوستينياني بناء على طلب الأمبراطور نفسه وشاور الشمّاس الأفريقي "فيرّان FERRAND" ووافق على نصّ الإرادة الأمبراطوريّة ومضمونها وشجب موقف الذين "لا ينامون"[٥].

---

١ ـ أنظر الجزء الثامن من هذه الموسوعة، ص١٥٩.

٢ ـ HEFELÉ - LECLERCQ, *HISTOIRE DES CONCILES*, II: 1120 - 1125.

٣ ـ السكيتيّون: رهبان قالوا بتألّم المسيح كيفما كانت طبيعته، عرفوا باسم THEOPASCHITES، وعرف اجتهادهم بعبارة "أحد الثالوث تألّم في الجسد UNUS DE TRINITATE PASSUS"

٤ ـ رهبان عرفوا باسم AKOIMETOI، المقول إنهم كانوا من نابذي معتقد الطبيعة الواحدة. أنظر: DELEHAYE H., *BYZANTINE MONASTICISM*, BYZANTIUM, BAYNES AND MOSS, PP. 144 - 145.

٥ ـ STEIN E., *BAS EMPIRE*, PP. 397 - 380.

في هذا الوقت، راحت ثيودورة تعمل بكلّ ما أوتيت من سلطة ومقدرة على مساعدة المونوفيزيّين من أجل السيطرة على المراكز الحسّاسة في الكنيسة، فتمكّنت بذلك من إيصال بطريرك على القسطنطينيّة يقول سرًّا بالطبيعة الواحدة بعد وفاة البطريرك إبيفانوس سنة ٥٣٥[1]. أمّا البطريرك الجديد، فكان أنثيموس أسقف طرابزون[2]، الذي كان يتظاهر بالأرثذوكسيّة ويُبطن القول بالطبيعة الواحدة إلى أن تبوّأ كرسي البطريركيّة. أمام هذا الواقع، انتقل البابا أغابيتوس[3] إلى القسطنطينيّة فوصلها في الثاني من شباط ٥٣٦ حيث جرى له استقبال حافل حارّ من قبل السلطات وأساقفة القسطنطينيّة وإكليروسها والمؤمنين، وسرعان ما دعا الأساقفة ومقدّمي الكهنة فيها إلى مجمع محليّ برئاسته تمّ فيه قطع أنثيموس ومن شاركه رأيه، ثمّ انتخب الإكليروس والأمبراطور والشعب الأسقف ميناس بطريركًا على القسطنطينيّة[4]. وفي الثاني من أيّار ٥٣٦ التأم مجمع في القسطنطيّنيّة برئاسة البطريرك ميناس بطريرك القسطنطينيّة المستقيم الرأي وعضويّة أساقفة الكرسي القسطنطيني وأساقفة الوفد الروماني ووكيلَي بطريرك أنطاكية وبطريرك أورشليم، وقد جرّد ذلك المجمع أنثيموس الفار من صلاحيّاته الروحيّة بما في ذلك صلاحيّات الكهنوت وخُلع وقُطع نهائيًا، كما قطع ذلك المجمع أساقفة ورجال دين آخرين كانوا يقولون بالطبيعة الواحدة، ومنهم سويرُس الأنطاكي المونوفيزي الذي قطعه المجمع وأمر بحرق مصنّفاته.

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله، ١: ٣٧٦ - ٣٧٧ بالاستناد إلى: BREHIER L., *POL., RELIG. DE JUSTINIEN*, IV: 456.

٢ - **طرابزون** TRABZON, TRÉBIZONTE: مدينة في أرمينية التركيّة على البحر الأسود، أنشأها اليونان في القرن الثامن ق.م. وضمّها الرومان إلى أمبراطوريّتهم، نقل إليها ألكسيس الأوّل قاعدة الدولة البيزنطيّة بعد تأسيس الأمبراطوريّة اللاتينيّة في القسطنطينيّة واستمرّت فيها ١٢٠٤ - ١٤٦١، خضعت مرارًا للسلاجقة، أنشأت علاقات تجاريّة واسعة مع جنوى، أصبحت مركزًا للأداب والفنون، قضى عليها العثمانيّون.

٣ - **البابا أغابيوس**: بابا روما ٥٣٥ - ٥٣٦، له تقدير خاص عند الكنيستين الشرقيّة والغربيّة.

٤ - فرّ إثر ذلك أنثيموس إلى القصر الأمبراطوري واختبأ فيه بحماية سيّدته اثنتي عشرة سنة.

أمّا أنطاكية، فكان زلزال قد دمّرها سنة ٥٢٦ وقضى على عدد كبير من أهلها وبنيانها، وكان من جملة الضحايا بطريركها المستقيم الرأي أفراسيوس، فخلفه في ربيع ٥٢٧ أفراميوس الذي كان أرثذوكسيًا صادق العهد وفيًّا ملمًّا بالعلوم الإلهيّة مؤلّفًا كاتبًا، تعلّق الناس به وجلّوه. ولمّا عاود الزلزال ضرب أنطاكية مرّة ثانية سنة ٥٢٨، اقترح القدّيس سمعان العمودي الأصغر على الأمبراطور أن يطلق عليها اسم "مدينة الله" تعوّذا، ففعل. وما أن استقرّت الأرض حتّى نهض أفراميوس سنة ٥٣١ بمساندة الأمبراطور يوستينيانُس يطالب بنفي كلّ من قال بالطبيعة الواحدة في أنطاكية، فكانت ردّة فعل العوام عنيفة، ما أوجب تدخّل السلطات وحصول أحداث دامية مؤلمة. وما أن صدر قرار المجمع القسطنطيني بقطع سويرُس وحرق مصنّفاته حتّى هبّ أفراميوس ينفّذ ذلك القرار بالشدّة التي عرف بها[1].

وفيما كانت الأرثذوكسيّة تقاوم القائلين بالطبيعة الواحدة، قام في الرها أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس راهب سريانيّ إسمه إسطفانُس إبن صوديلي، يدعو إلى أوريجينيّة جديدة تستند إلى تعاليم أوريجينس الإسكندري[2] وتقول بشيء من وحدة الوجود. وسرعان ما انتشرت هذه الأوريجينيّة الجديدة في أنحاء مصر وأنطاكية ومحيطهما واعتلى من أتباعها اثنان رتبة الأسقفيّة هما: الأسقفان ثيودوروس أسكيذاس مطران قيصريّة قبدوقية، ودوميتاوس أسقف أنقيرة. وقد تمكّن هذان من التقرّب من الأمبراطور يوستينيانُس وصار لهما عنده الرأي المسموع. في المقابل، عُقد مجمع في أنطاكية شجب الأوريجينيّة. فضغط الأوريجينيّون في فلسطين عام ٥٤١ على بطرس

---

١ ـ راجع: رستم، مدينة الله، ١: ٣٧٤.

٢ ـ أوريجينس ORIGENES (١٨٥ ـ ٢٥٣): ولد في الإسكندريّة وأصبح من أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتيّة، ومن نوابغ الفكر البشريّ، ترك آثارًا واسعة في اللاهوت وشرح الأسفار المقدسة، تطرّف في بعض تعاليمه.

بطريرك أورشليم موجبين حذف اسم افراميوس الأنطاكي من الدعاء الكنسي (الذبتيخة). وهكذا نشأ صراع جانبيّ أوجب عقد مجمع في القسطنطينيّة بموافقة الأمبراطور حكم فيه ضدّ تعاليم أوريجينس[1].

وما أن حسمت مسألة الأوريجينيّة الجديدة حتّى ظهرت مسألة جديدة ـ قديمة أحدثت بلبلة في الوسط الكنسي. تلك المسألة عُرفت باسم "الفصول الثلاثة". ذلك أنّ الأمبراطور يوستينيانُس قد أصدر في العام ٥٤٤ إرادة أمبراطوريّة في ثلاثة فصول[2]، حرّم من خلالها تعاليم ثيودورُس الموبسوستي[3] وثيودوريطس القورشي[4] وإيبا الرهاوي[5]. وطلب إلى جميع الأساقفة في الشرق والغرب معًا أن يوافقوه على شجب هذه المصنّفات والأقوال. وسرعان ما تبيّن أنّه كان وراء تلك "الفصول الثلاثة" وصدورها المفاجئ، ثيودورة، بواسطة بعض رجال الدين المقرّبين، وكان هدفها من ذلك إشاعة البلبلة في الكنيسة الأرثذوكسيّة بشقّيها الشرقي والغربي من جهة، والانتقام من هؤلاء الثلاثة الذين حاربوا المونوفيزيّة من موقع كلّ منهم. وبالفعل، فقد وقعت بلبلة في الكنيسة ونشأ نقاش خطير بين مختلف الكنائس حول موضوع "الفصول

---

١ - راجع: رستم، مدينة الله، ١: ٣٧٤.

٢ - من هنا القول بالفصول الثلاثة.

٣ - جعل ثيودورُس الموبسوستي من اتحاد الكلمة بالناسوت في المسيح مجرّد سكنى وتلطّف ومسرّة EUDOXIA لا اتّحادًا في الجوهر OUSIA، فأصبحت السيّدة العذراء في نظره أمّ إنسان ANTHROPOLOXOS وأمّ إله THEOLOXOS.

٤ - **ثيودوريطس القورشي** (نحو ٣٩٣ - ٤٦٦): أسقف قورش، كاتب سرياني، قاوم المونوفيزيّة في المجمع الخلقيدوني، له مقالات وتاريخ للكنيسة، اتّهم بالنسطوريّة، أهمّ ما أخذ عليه اعتراضه على البند الثاني عشر من بنود كيرلّس الإسكندري الذي نصّ على أنّ "الله الكلمة تألّم وصُلب ومات في الجسد".

٥ - **إيبا الرهاوي**: أخذ عليه أنّه نقل تعاليم ثيودورُس إلى السريانيّة وفنّد اعمال مجمع أفسس في رسالة وجّهها إلى ماري أسقف أردشير.

الثلاثة"، ما استوجب من الأمبراطور يوستينيانُس محاولة وضع حدّ للنزاع، فشاور بطريرك القسطنطينيّة ميناس في الدعوة إلى مجمع مسكونيّ خامس ينظر في هذا النزاع ويبتّ فيه. إلاّ أنّ هذا البطريرك قد توفّي في خلال ذلك، وخلفه أفتيشيوس الراهب البونطي الذي سرعان ما أعلن إلى البابا فيجيليُس (٥٣٧ ـ ٥٥٥) المقيم يومذاك في القسطنطينيّة[١] في ٦ كانون الأوّل (ديسمبر) ٥٥٣ عن تسلّمه عكّاز الرعيّة، وأرفق رسالته السلاميّة هذه ببيان بالإيمان موقّع منه ومن أبوليناريُس بطريرك الإسكندريّة، ودومنينُس بطريرك أنطاكية، وإيليّا رئيس أساقفة تسالونيكا[٢].

أحبّ بابا روما أن ينعقد المجمع المسكونيّ الخامس[٣] في صقلّية أو إيطالية ليضمن أكثريّة غربيّة وأفريقيّة، ولكنّ الأمبراطور يوستينيانُس أوجب المساواة بين البطريركيّات الخمس روما والقسطنطينيّة والإسكندريّة وأنطاكية وأورشليم، وذلك بإرسال عدد مماثل من الأساقفة من كلّ من هذه البطريركيّات[٤]، وأصرّ الأمبراطور على قراره رغم احتجاج البابا.

---

١ ـ عندما طلب يوستينيانُس إلى جميع الأحبار في الشرق والغرب معا الموافقة على شجب "الفصول الثلاثة" سنة ٥٤٤، كان البابا فيجيليُس من جملة الذين لم يوافقوا، فاستدعى يوستينيانُس البابا إلى القسطنطينيّة فحضر إليها وانتهى بالنزول عند رغبة الأمبراطور فأنشأ سنة ٥٤٨ رسالته المعروفة بالجوديكاتوم JUDICATUM وفيها شجب الفصول الثلاثة، ولكنّه عاد وتراجع عن موافقته إثر إجماع أساقفته على رفض قراره وتعيينهم له وقتًا للندامة، ما حدا بيوتينيانُس إلى إصدار أمر ثان بشجب الفصول الثلاثة سنة ٥٥١ وطلب الموافقة عليه، فأبى فيجيليُس ودخل كنيسة القديس بطرس في قصر الهورميزدا واحتمى بها متمسكًا بعمود المائدة، ولمّا سحبه الجند بالقوّة انسحب العمود معه وسقطت المائدة. وبقي البابا في شبه إقامة جبريّة في القسطنطينيّة حتى انعقاد المجمع القسطنطيني الثاني سنة ٥٥٣.

٢ - EUSTRALIOS, *VIE D'EUTYCHIOS*, PAT. GR. 86, 2296 - 2304; MANSI, IX. COL. 63, XI, COL. 186.

٣ ـ يعرف هذا المجمع بمجمع القسطنطينيّة الثاني تمييزًا له عن الأول الذي عقد ٣٨١ وحرّم مقدونيوس.

٤ - HEFELÉ - LECLERCQ, *HISTOIRE DES CONCILES*, III, 1:65 FF.

إنعقد المجمع في القصر البطريركي بالقسطنطينيّة في الخامس من آيار (مايو) ٥٥٣ برئاسة أفتيشيوس البطريرك القسطنطيني وعضويّة كلّ من أبوليناريُس بطريرك الإسكندريّة، ودومنيُس بطريرك أنطاكية، ومئة وخمسة وأربعين أسقفا. ثمّ تقرّر أن ينتقل وفد من الأساقفة إلى مقرّ البابا فيجيليُس في القسطنطينيّة[1] حيث كان مقيما جبريّا، إلاّ أنّ البابا رفض الحضور من دون أن يشترك معه أساقفة إيطاليّون آخرون، فترأس المجمع بطريرك القسطنطينيّة وأقرّ جميع أعمال المجامع المسكونيّة السابقة، وفي الثاني عشر من أيّار (مايو) دقّق المجمع في قضيّة الفصول الثلاثة.

في هذه الأثناء، قدّم البابا إلى الأمبراطور مذكّرة استعرض فيها موقفه من الفصول الثلاثة منذ أن أثيرت قضيّتها، وأبان فيها لومه لثيودورُس الموبسوستي ولكنّه امتنع عن شجب ثيودورُس بعد وفاته سيّما وأنّه توفي في حضن الكنيسة الجامعة، وامتنع أيضًا عن نبذ ثيودوريطُس وإيبا الرهاوي لأنّ المجمع المسكوني الرابع كان قد استمع إليهما وبرّأهما من القول بالنسطوريّة. إلاّ أنّ الأمبراطور رفض استلام المذكّرة مدّعيًا أنّها عديمة الجدوى مؤكّدًا على أنّ البابا سبق له أن نبذ الفصول الثلاثة وأنّه إذا دافع بوثيقته الجديدة عمّا نبذ من قبل فيكون قد ناقض نفسه وأضعف حجّته. وضغط الأمبراطور على المجمع حتّى أجمع أعضاؤه على نبذ الفصول الثلاثة، واعتبر يوستينيانُس قرارات هذا المجمع ملزمة، وأكره الأساقفة على قبولها. ونفى حاشية البابا فيجيليُس إلى صعيد مصر، إلاّ أنّه "ترأف" بالبابا نفسه لأنّه كان يعاني من داء الحصى، فأبقاه في القسطنطينيّة ولم يبعده عنها. وبعد ستّة أشهر وافق البابا مرغما على قرار المجمع وحرّر بذلك إلى زميله القسطنطيني مصدرًا مذكّرة جديدة في شباط (فبراير) ٥٥٤ تنقض ما جاء في الأولى. وقد بقي فيجيليُس سنة أخرى في القسطنطينيّة ولم

---

١ - راجع الحاشية الأولى على الصفحة السابقة.

يبارحها قبل أن نال من الأمبراطور موافقته على نظام جديد لإيطالية. وأقلع إلى روما ولكنّه توفّي سنة ٥٥٥ في سرقوسة[١] قبل أن يصل[٢]. فخلفه على كرسي روما بيلاجيُس الأوّل (بابا روما ٥٥٥ ـ ٥٦١)، وهو أحد الأساقفة الذين اشتركوا في المجمع القسطنطيني الثاني ومانعوا في حرم الكتبة الثلاثة، والذي سيحاول في ما بعد إخماد المعارضة التي لقيتها مقرّرات المجمع في أفريقيا وإيطاليا، حرصًا منه على وحدة الكنيسة.

يتّضح جليًّا أنّ الكنيسة كانت بغنًى عن تلك المشكلات الخطيرة التي أحدثتها مسألة الفصول الثلاثة، التي لا تشكّل بحدّ ذاتها أهميّة بالنسبة لمسار العقيدة والإيمان، وأنّ نبش مضمون تلك القضيّة كان بهدف إحداث البلبلة، ويتبيّن للمدقّق أنّ بعض رجال الدين غير الأرثذوكسيّين الذين كانوا مقرّبين من الأمبراطور قد ورّطوا الأمبراطور والكنيسة في هذه المسألة الشائكة بدعم من ثيودورة زوجة الأمبراطور لأهداف تخدم القائلين بالطبيعة الواحدة.

وسط هذه البلبلة والتورّط الأمبراطوري، نرى يوستينيانُس يصدر سنة ٥٦٢ إرادة أمبراطوريّة جديدة توجب القول بالطبيعتَين وتنذر المخالفين بأشدّ العقوبات، والواضح أنّ الهدف من تلك الإرادة كان إرضاء قادة الكنيسة المستقيمة الرأي في الشرق والغرب. وبالفعل، فقد اطمأنّ هؤلاء إلى تلك الإرادة. ولكن بعد سنتَين، أقدم الأمبراطور على تعميم براءة يؤكّد فيها مع المونوفيزيّين على أنّ جسد المسيح لا يتعب

---

١ ـ سيرَقوسة SIRACUSA: مرفأ على شاطئ صقلّية الشرقي، أسّسه الإغريق حوالى ٧٣٤ ق.م. وكان قديمًا عاصمة للجزيرة، مسقط رأس أرخميدس المهندس ٢٠٢ ق.م.، حاصرها زيادة الله الأغلبي برًّا وبحرًا وأحرق مراكبها وقتل جماعة من أهلها ٨٢٧، فيها آثار يونانيّة ورومانيّة.

٢ ـ راجع: رستم، مدينة الله، ١: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

ولا يتألّم ولا يفسد. فقد اعتقد الأمبراطور، على ما يظهر، أنّه بهذه المقولة، إنّما يفسّر الخريستولوجية الخلقيدونيّة على طريقة كيرلّس الإسكندري. فاضطرب أساقفة الكنيسة الجامعة من جديد. ومن المحفوظات رسالة كتبها للأمبراطور أسقف ترير TRIER في وادي الرين يؤنّب فيها الأمبراطور لسقوطه في شيخوخته مع نسطوريُس وأوطيخة اللذَين أنكرا على السيّد ألوهيّته. كذلك فإنّ بطريرك القسطنطينيّة أفتيشيُوس قد امتنع عن الموافقة على مضمون تلك البراءة الأمبراطوريّة، فأمر الأمبراطور بحبسه وإبعاده وأوعز بانتقاء وكيل البطريرك الأنطاكي المحامي يوحنّا السرميني[1] خلفا له. وقبل يوحنّا الدعوة ولكنّه اشترط في الموافقة على البراءة موضوع الخلاف موافقة البطاركة الآخرين ولا سيّما بطريرك أنطاكية موكّله الكبير[2]. وكان يومها بطريركا على كرسي أنطاكية أنسطاسيُس[3]، وإذ اتجهت الأنظار إلى ما سيكون موقفه من المسألة المطروحة، دعا أنسطاسيُس سنة ٥٦٥ إلى مجمع محلّي في أنطاكية فلبّى الدعوة ١٩٥ أسقفًا أجمعوا على رفض البراءة الأمبراطوريّة وعلى الكتابة بذلك إلى الأمبراطور، واستعدّ أنسطاسيُس للنفي فأعدّ عظة الوداع، ولكنّ الأمبراطور قد توفّي سنة ٥٦٥ قبل أن ينسنّى له القيام بأيّة ردّة فعل، وبقي أنسطاسيُس على كرسي أنطاكية.

وهكذا نرى أنّ مستجدّات عديدة قد جرت في القسطنطينيّة وروما على الصعيدين الأمبراطوريّ والكنسيّ في آن، إثر المجمع القسطنطينيّ الثاني. فجاء بابا جديد على

---

١ ـ **يوحنّا السرميني**: جاء عنه في المراجع الأرثذوكسيّة أنّه كان فاضلا وقانونيًا قديرًا، ولد في سرمين في سورية الشمالية وتلقّى علومه في أنطاكية ثمّ عيّن وكيلا عن الكرسي الأنطاكي لدى البلاط الأمبراطوري.

٢ ـ EUSTRALIOS, *VIE D'EUTYCHIOS*, PP. 36, 56, 75.

٣ ـ **أنسطاسيُس** (بطريرك أنطاكية ٥٥٩ ـ ٥٧٠): راهب سيناوي أرثذوكسي اشتهر بالورع والتقوى والإيمان القويم. أتقن العلوم الدينيّة فكان عالم عصره، وكيل للبطريرك الإسكندري في أنطاكية، خلف البطريرك دومنيُس على كرسي أنطاكية بعد وفاته.

كرسي روما، وبطريرك جديد على كرسي أنطاكية، وكانت ثيودورة قد توفّيت بداء السرطان سنة ٥٤٨. وبوفاة الأمبراطور الذي لم يترك عقبًا، خلفه ابن أخته يوستينُس الذي أيّدته الكنيسة فباركه بطريرك القسطنطينيّة ووضع التاج على رأسه[١]. ويبدو أنّ حقبة حكم يوستينُس كانت استمرارًا لعهد سلفه، ولمّا أصيب هذا الأمبراطور بمرض عصبيّ أفقده صوابه بشكل ظاهر سنة ٥٧٣، قامت زوجته صوفيّة بأعباء الحكم، وهي لم تختلف عن نسيبتها ثيودورة في قولها بالطبيعة الواحدة. إلاّ أنّها استعانت في شؤون الحكم برئيس الحرس الأمبراطوري طيباريُس الأمين الذي تبنّاه يوستينُس لاحقًا، ثمّ ما لبث أن عيّنه قيصرًا فصرّف باسم سيّده شؤون الأمبراطوريّة أربع سنوات إلى أن قضى يوستينُس سنة ٥٧٨ فاعتلى عرش الأمبراطوريّة.

وكان يوستينُس قبل وفاته قد أمر بإرجاع الأساقفة المنفيّين إلى أوطانهم، واستقبل في بداية حكمه البطريرك الإسكندري ثيودوسيُس الذي كان لا يزال في المنفى بحفاوة فائقة، ولدى وفاة هذا البطريرك سنة ٥٦٦ أمر يوستينُس بإجراء مراسم دفن فخمة له. كما جدّ محاولاً توحيد صفوف قادة الكنيسة والتقريب بين وجهات نظر أصحابها دون جدوى. بيد أنّ خلفه طيباريُس قد اتّبع سياسة متوازنة تجاه الفرقاء، فهو من جهة أوقف ملاحقة المونوفيزيّن، ومن جهة ثانية أعاد أفتيشيُس بطريرك القسطنطينيّة الأرثذوكسي من منفاه وسلّمه عكّاز الرعيّة سنة ٥٧٧ إثر وفاة البطريرك يوحنّا. ولمّا عاد أفتيشيُس إلى سابق حماسه في الضغط على المونوفيزيّين والتضييق عليهم قال له طيباريُس عبارته الشهيرة: "على رسلك، فالبرابرة كثر، ومحاربتهم أولى". وكان المقصود بالبرابرة يومذاك القوى الخارجيّة، ذلك أنّ الخطر الفارسيّ كان على الأبواب، وكانت الأحداث تنذر بحرب وشيكة في مواجهة التتر.

---

١ - EVAGRIUS, *HIDT. ECC.* V: 1; THEOPHANES, A:6058.

إتّبع موريقيُس الذي خلف طيباريُس على سدّة الأمبراطوريّة طوال عشرين سنة (٥٨٢ ـ ٦٠٢) سياسة سلفه في موقفه التوفيقيّ من الكنيسة، والمقول إنّه حافظ على أرثذوكسيّته دون أن يتطرّف أو أن يضيّق على المونوفيزيّين وغيرهم، حتّى أنّ القائلين بالمشيئة الواحدة قد جعلوا من هذا الأمبراطور قدّيسًا[١]، وكانت تربطه علاقات صداقة مع بابا روما غريغوريُس الكبير[٢]، وعلاقات احترام متبادل وتعاون بغريغوريُس بطريرك أنطاكية[٣] ويوحنّا الصوّام[٤] بطريرك القسطنطينيّة.

في هذه الحقبة، كان على الكنيسة الأرثذوكسيّة أن تواجه بدعة أخرى طلع بها يوحنّا أسكوسناغ[٥]، تقول بأنّ المسيح له طبيعة واحدة، وأنّ كلّ واحد من الأقانيم الثلاثة له طبيعة واحدة خاصّة. فكان بنتيجة ذلك أن قُطع ونُفي، وبعد وفاته انقسم أتباعه، فعلّم أحدهم فيليبّونُس الإسكندري بتثليث الآلهة TRITHEISME وقال بفناء جسد الإنسان بحسب الهيئة والمادّة معًا؛ وعلّم آخر وهو كونون أسقف طرسوس بأنّ جسد الإنسان فان بحسب الهيئة فقط؛ وذهب ثالث، وهو دميانُس أحد بطاركة الطبيعة الواحدة في الإسكندريّة إلى القول بتربيع اللاهوت أي أنّه اعتبر وجودًا خاصًّا لكلّ واحد من الأقانيم الثلاثة ووجودا رابعا عامّا للثلاثة معا[٦].

---

١ - *LÉGENDE SYRIAQUE DE MAURICE*, PATR., ORIENT., V: 773.

٢ - **غريغوريُس الكبير**: بابا روما ٥٩٠ ـ ٦٠٤، نظم الخدمة الدينيّة والغناء الغريغوري واهتم بتنصير الأنكلوسكسون.

٣ - **البطريرك غريغوريُس** (بطريرك أنطاكية ٥٧٠ ـ ٥٩٣): كان رئيسًا لدير سيناء، خلف أنسطاسيُس الذي غادر أنطاكية إلى أورشليم إثر خلافات شكليّة مع الأمبراطور يوستينُس، ذكر المؤرّخون الأرثذوكس أنّه ساس الرعيّة بالتقى وخوف الله حتّى وفاته ٥٩٣، فأعيد أنسطاسيُس إلى كرسي أنطاكية وظلّ يرعاها بالعزم والغيرة حتّى وفاته ٥٩٨.

٤ - **يوحنّا الصوّام**: بطريرك القسطنطينيّة ٥٨٢ ـ ٥٩٥، لقّب نفسه بالـ"مسكوني" فأثار احتجاج البابا غريغوريُس الكبير.

٥ - **يوحنّا أسكوسناغ** ASKUSNAGÈS: ولد في أفاميا، علّم في القسطنطينيّة سنة ٥٥٧.

٦ - رستم، مدينة الله، ١: ٣٨٦ ـ ٣٨٧ بالاستناد إلى عدّة مراجع كنسيّة ولاهوتيّة.

الفَصْلُ الثَّانِي

المَسِيحِيَّةَ وهِرَقلُ وَفارِس والإسْلاَم

السَّدُّ الفَارِسيّ

المفترق الهِرَقْلي

وجَاءَ الإسْلاَم

إستِمرَارُ الانِقسام والتَّقَهقُر

السَّدُّ الفارسيّ

بينما كانت الكنيسة في الشرق منشغلة بطبيعة المسيح حينا وبمشيئته حينا آخر، منصرفة إلى التناحر والتخاصم والتصارع، وكان الأمبراطور يحاول رأب صدعها دون جدوى، كان العملاق الفارسيّ يتهيّأ لضرب الأمبراطوريّة والكنيسة معًا.

لاحت بداية الخطر الفارسيّ في نهاية الربع الأوّل من القرن السادس عندما حاول الفرس منازعة البيزنطيّين السيادة على الشرق، وإذ تمكّن القائد القدير يوستينيان بليساريوس من صدّ الهجوم الفارسيّ الأوّل (٥٢٧ ـ ٥٣٢) فإنّ الفرس قد تمكّنوا، بعد ثماني سنوات، بقيادة كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩) من دخول حلب عن طريق منبج بثلاثين ألف مقاتل وإحراقها. وبعد حلب لاقت أنطاكية المصير نفسه "فنُهبت وجُرّدت كاتدرائيّاتها من كنوزها الذهبيّة والفضيّة ومن رخامها الفاخر وهُدمت المدينة بكاملها وأُخذ سكّانها أسرى"[١].

وهكذا خربت أنطاكية، القاعدة المسيحيّة الشرقيّة، التي عُقد فيها بين منتصف القرن الثالث ونهاية القرن الرابع عشر عدّة مجامع كنسيّة. وتابع كسرى زحفه إلى آفامية، القاعدة المسيحيّة الشرقيّة الأخرى، فاستولى الفرس على كلّ ثروتها الكنسيّة، بما في ذلك قطعة الصليب الحقيقيّ التي كانت محفوظة بوقار في تابوت مرصّع

---

١ - Rocopius, II, Col. 9, Col. 14 - 18.

بالجواهر. وقد سلِمت آفامية من الخراب نتيجة مسارعة أهلها إلى تقديم كلّ كنوزها إلى المهاجمين. كذلك فعلت فاليكس جارة حلب وسائر مدن الجوار.

بعد سنتَين من أعمال الاجتياح وتحديدا في العام ٥٤٢، عُقدت الهدنة الأولى بين البيزنطيّين والفرس، وهي الهدنة التي ستتجدّد مرارًا إلى أن تتحوّل إلى معاهدة الخمسين سنة التي قبِل يوستينيان بموجبها دفع الجزية إلى الفرس، وبالتوقّف عن القيام بالدعاية المسيحيّة في المقاطعات الفارسيّة.

وهكذا نشأ السدّ الأوّل في العهد البيزنطيّ أمام امتداد المسيحيّة قبل أن يتكوّن المدّ الخطير الذي سوف يستوعب الفرس والبيزنطيّين معا في ظاهرة فريدة في التاريخ: الإسلام.

المُفتَرَقُ الهِرَقْلي

هرقل أو هرَكليوس HÉRACLIUS الأمبراطور البيزنطيّ (٦١٠ ـ ٦٤١) الثامن من اليونانيّي الأصل الذي خلف فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠) كان عهده المفترق الزمنيّ الخطير المثلّث الاتّجاهات والذي قرّر مسار الدين في الشرق، كما لم يكن من قبل. ذلك المفترق كان له ثلاثة اتّجاهات: المسيحيّة، الفرس، والإسلام. ومَن كان معاصرًا لتلك الحقبة، وإن كان بوسعه أن يلحظ خطورة الصراع الذي كان قائمًا بين العملاقَين العالميّين آنذاك: البيزنطيّين والفرس، فلقد كان يستحيل عليه أن يلحظ خطورة تلك القوّة الناشئة النابتة من الصحراء، والتي لم يكن لها من القدرات والمعطيات ما من شأنه أن يلفت حتّى الانتباه إلى ما سوف تُحدثه من تغيير لم يكن متوقّعًا في مسار تاريخ الشرق. إلاّ أنّ تلك القوّة راحت، تحت لواء "لا إله إلاّ اللّه ومحمّد رسول اللّه" تكبر بغرابة ككرة ثلج متدحرجة من الصحراء. وقد يكون في التشبيه ما من شأنه أن يضع الذهن في أجواء تلك الغرابة.

إذا لم تكن بيزنطية العملاقة تتوقّع أن يتجرّأ الفرس على مهاجمتها في عقر دارها، وهي الأمبرطوريّة السائدة على الشرق والغرب، وريثة أعظم قوّتَين عرفهما التاريخ، فإنّ احتمال اضطرارها لمقاتلة فرسان البادية الذين انشقّت الصحراء ودفقتهم حممًا مجتاحة كلّ حضارة سابقة عرفها الشرق... لم يكن واردًا حتّى في أذهان السحرة ولا المبرّجين ولا المنجّمين. ولم يكن العملاق الآخر: الفارسيّ، أقلّ استبعادًا لهذا الحدث

الصاعق من عدوّه البيزنطيّ. فلقد كان كلّ من الجبّارين واضعا ثقله في مواجهة الآخر دون أن يتلفّت حواليه لعلمه أنّ لا قوّة إلاّ للفرس والبيزنطيّين، فلم يُعر أحدهما انتباهه لـ "لا إله إلاّ اللّه ومحمّد رسول اللّه".

عرف عهد هرقل حروبا كثيرة وتطوّرات جذريّة في الشرق. لذلك صحّ وصف ذلك العهد بالمفترق الهرقليّ. ففيه احتلّ الفرس أنطاكية (٦١١) والقدس (٦١٤) ومصر (٦١٩). ونقلوا عود الصليب من مكانه الأصيل إلى غربة فارس. وفي العهد نفسه عاد هرقل فردّ الفرس إلى ما وراء الفرات واحتلّ تبريز واستردّ عود الصليب إلى مسقط قاعدته. كلّ ذلك حصل في سنوات عشرين من الزمن تلتها الزحفة الإسلاميّة التي كسرت جيوش هرقل وجمّدت جيوش فارس. وفي أقلّ من ثماني سنوات خسرت الأمبرطوريّة العريقة سورية وفلسطين وبلاد ما بين النهرين ومصر. تلك الأحداث التي قد يتطلّب تصوير مختصر سينمائيّ عنها عشرات السنوات حصلت في سنوات ثمان (٦٣٤ ـ ٦٤٢).

عندما جلس هرقل على كرسيّ الأمبرطوريّة البيزنطيّة في العام ٦١٠ كان وضعُ تلك الأمبرطوريّة في حالٍ من التفكّك والانهيار. فإنّ سلفه فوكاس الملقّب بالفقّاس قد اغتصب المُلك في العام ٦٠٢ إذ كان قائدًا في الجيش، فقتل الأمبرطور موريقيُس Maurikius (٥٨٢ ـ ٦٠٢) الذي كان في حال حرب مع الفرس والسلافيّين. وكان في الوقت ذاته يحاول إعادة تنظيم الإدارة والجيش بعد الانهيار الذي أصاب الأمبرطوريّة في عهد سلفه طيباريُس (٥٧٨ ـ ٥٨٢).

كان فوكاس قد بدأ عهده بذبح موريقيُس وعائلته ذبحًا، ودخل القسطنطينيّة ناثرًا الذهب على أهلها مستجديًا بذلك تأييد الشعب الذي كان مستاء من حكم موريقيُس بسبب تدابيره التنظيميّة للدولة. وبخلال السنوات الثماني التي تبوّأ فيها فوكاس كرسيّ

الأمبرطوريّة، تمكّن الفرس من تسجيل انتصارات عديدة على البيزنطيّين، منها في منطقة ما بين النهرين بين الرها ونصّيبين، كان ذلك بين العام ٦٠٣ والعام ٦٠٤. وفي السنة التالية هاجم الفرس سورية وأرمينية فاحتلّوا أرضروم ERZURUM في شرقيّ تركية وكانت تُعرف بـ THÉODOSIOPOLIS. وفي السنة التي تلتها احتلّوا أرمينية الصغرى واجتاحوا الأناضول ووصلت طلائع جيوشهم إلى خلقيدونية سنة ٦١٠. وعلى خطّ آخر اجتاحوا المنطقة الواقعة بين مردين والرقّة من بلاد ما بين النهرين، فأصبح الفرات بذلك خطّ التماس بين العملاقَين.

أمّا على صعيد الكنيسة فلم يكن الوضع أفضل ممّا كان عليه سياسيًّا وعسكريًّا. فبينما كانت الحرب مشتعلة بين بيزنطية وفارس، كان الأمبراطور، الذي اغتصب السلطة عسكريًّا، يحاول معالجة الشقاق في الكنيسة بالقوّة، فأيّد أصحاب المبدأ المستقيم وضيّق على اليعاقبة المونوفيزيّين الذين فرّ رؤساء كنيستهم إلى أماكن قصيّة. وعندما حاول القائلون بالطبيعة الواحدة الاجتماع في إحدى كنائس أنطاكية، فرّقهم العسكر بالقوّة، فسقط منهم ضحايا عديدون. ولمّا استقبل البطريرك الأنطاكيّ بطريرك الأقباط المونوفيزيّ في العام ٦٠٨، أرسل الأمبراطور قوّة عسكريّة أمر قائدها بفضّ الاجتماع. وإذ حاول المونوفيزيّون مواجهة تلك القوّة، حصدت سيوف الجنود مئات الرؤوس في مجزرة بشعة من مجازر الإرهاب السلطويّ في التاريخ[١].

لم يكن اليهود أوفر حظًّا مع فوكاس من المونوفيزيّين، ذلك أنّه أمر هؤلاء بأن يتعمّدوا بالقوّة. وعندما احتجّ اليهود على هذا الأمر الغريب، وجّه الأمبراطور قوّة حصدت رؤوسهم مثلما فعلت بالمونوفيزيّين[٢]. في الوقت نفسه كان اليهود في حال

---

١ - راجع: MICHEL LE SYRIEN, II: 375 - 376.

٢ - راجع: THÉOPHANÈS A., 6101

نزاع مع المونوفيزيّين قبل أن تجمع المصيبة بينهما، ويروي بعض المؤرّخين عن أحداث شنيعة وقعت بين الطرفين في ذلك العهد المظلم من التاريخ[١]. ومن الثابت أنّ يهود أنطاكية قد استغلّوا الصراعات الداخليّة التي كانت قائمة بين الفرق المسيحيّة، كما استغلّوا الوضع الخارجيّ للأمبراطوريّة الناشئ عن دخول الفرس إلى بعض المناطق السوريّة، فتمكّنوا من قتل العديد من المسيحيّين وأعدموا بعض كبار رجال الدين منهم[٢]. إلاّ أنّ مكائد اليهود قد سقطت في صور عندما حاولوا أن يقدموا فيها على مثل ما أقدموا عليه في أنطاكية[٣].

وكان الخلاف في الوقت نفسه محتدمًا داخل الكنيسة بين الشرق والغرب بسبب إقدام بعض البطاركة الشرقيّين على اتّخاذ لقب البطريرك المسكونيّ، ممّا أغضب روما التي حاول أحبارها جعل أولئك البطاركة يعودون عن اللقب المسكونيّ دون جدوى. وعندما انتزع هرقل الحكم كانت تلك الخلافات، كما كانت تلك الأوضاع، على ما جاء ذكره.

ما أن اعتلى هرقل العرش حتّى حاول إيجاد فرصة لإعادة السلم بين بيزنطية وفارس، إلاّ أنّ الفرس لم يفقدوا فرصة ضعف الأمبراطوريّة المفكّكة، فتجاهلوا يد هرقل الممدودة نحوهم، بل عبروا الفرات وتوغّلوا في سورية الشماليّة، فوصلوا إلى أنطاكية في السنة الأولى من حكم هرقل، وإلى حمص ودمشق في السنة الثالثة.

عندما يئس الأمبراطور البيزنطيّ من إمكانية التوصّل إلى السلم مع هؤلاء، لم يعد أمامه بدّ من المجابهة. بيد أنّ حالة الضعف التي كانت تسيطر على الأمبراطوريّة،

---

١ - Bréhier L., *Rome et Constantinople*, Fliche et Martin, V: 74 - 75.

٢ - Théophanès A., 6101

٣ - Eutychios, *Annalès*, Patr. Gr., Vol. III, Col. 1084.

قد حالت دون تمكّنه من الصمود بوجه الزحف الفارسيّ الذي حقّق مزيدًا من التوغّل داخل الشرق، فاحتلّ الفرس طرطوس وقيليقية سنة ٦١٣، واتّجهوا جنوبًا نحو أورشليم ودخلوها عنوة بعد حصار لم يدم أكثر من عشرين يومًا، وقتلوا حوالى ستّين ألفًا من المسيحيّين، وأسروا نصف هذا العدد، واعتقلوا البطريرك، واستولوا على عود الصليب. وبعد ثلاث سنوات واصل الفرس زحفهم جنوبًا فاحتلّوا مصر. ولم يعد في البلاد الشرقيّة إكليروس ولا كنيسة. وبقي كرسيّ إنطاكية شاغرًا طوال ثمانيةٍ وثلاثين سنة[1].

أدّى الاحتلال الفارسيّ إلى احتلال المسيحيّة في الشرق بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى. فلقد دخل المسيحيّون في طاعة فارس. وبنتيجة هذا الاحتلال أصبح الفرس يعقدون المجامع الكنسيّة بأمر من الشاه كما حصل في طيسفون[2] سنة ٦١٤، ويقرّون طبيعة المسيح التي تُناسب سياسة الشاه ودولته، وهكذا أصبح القول بالطبيعة الواحدة هو القول المشروع بالنسبة إلى فارس[3].

يبدو أنّ ما أصاب المسيحيّة في الشرق من تقهقر في عهد هرقل، قد جعل هذا الأخير في حال وجدانيّة خاصّة. فتحوّل الأمبراطور العملاق إلى ناسك، ولو لبعض الوقت، إذ اعتزل الحكم في رياضة روحيّة طويلة.

---

١ - THÉOPHANÈS A., 6101

٢ - طيسفُون أو قطيسفون أو سلمان باك: مدينة جنوبي بغداد ظهرت في القرن الثاني ق.م.، احتلّها الفرثيّون وجعلوها عاصمة ملكهم بدل سلوقية، هاجمها تريانُس ١١٦ وسبتيمُس ساويرُس ١٩٧، احتلّها الفرس ٢٢٤ وأقام فيها كسرى الثاني قصرًا ضخمًا تُعرف بقاياه إلى اليوم باسم طاق كسرى، ولمّا احتلّ كسرى أنوشروان أنطاكية وسلوقية نقل سكّانهما إلى طيسفون، احتلّها هرقل ٦٢٨ قبل أن تقع بيد العرب ٦٣٧ لتؤلّف مع سلوقية "المدائن" ولتبنى بحجارة معالمها قصور الخلفاء.

٣ - راجع: MARQUART, *OSTEUROPAEISCHE UND OSTASIATISCHE*, STREIFZUGE (LEIPZEG, 1903)

لقد رأى هرقل أنّه أمام واجب دينيّ مقدّس، ذلك أنّ الأمبراطور هو حامي الدين المسيحيّ وكنيسته. وبعد شتاء من الرياضة الروحيّة أطلّ مع ربيع ٦٢٢، على بلاطه، وأمر بدعوة كبار رجال الدين في العاصمة القسطنطينيّة.

بخلال ذلك الاجتماع، عهد بالمدينة وبولده إلى بطريرك العاصمة وإلى السيّدة العذراء، ثمّ انتقل إلى الصلاة، مع قادته، في كنيسة الحكمة الإلهيّة في القسطنطينيّة استعدادًا للحرب. وحمل قادته أيقونة السيّد المخلّص وانطلقوا بقيادة الأمبراطور يحقّقون التعبئة الشاملة. .

كانت المعركة الأولى في أرمينية[١] قبل انقضاء ذلك الربيع. وفيها سجّل هرقل انتصاره الأوّل. وفي السنة التالية تقدّم من أرمينية متوغّلا في آذربيجان[٢] وانقضّ على تبريز[٣] نفسها ليصعق القائد الفارسيّ في قصره بالذات. فتحوّل هذا الأخير من منتصر أكبر إلى فارٍّ من أمام منكسر الأمس، وانبثّ البيزنطيّون المنتقمون في المدينة وردّوا الصاع صاعَين حارقين المعبد الفارسيّ الكبير، ناهبين ما سلم وخفّ وغلا، ومدمّرين ما تبقّى.

في خضمّ هذا الواقع، راحت شعوب القوقاس[٤] المسيحيّة تلتحق بالزعيم المسيحيّ أفواجًا ناقمة. وفي السنتَين التاليتَين ألحق المسيحيّون مزيدا من الضربات بفارس. وفي

---

١ - راجع الجزء الخامس عشر من هذه الموسوعة.

٢ - آذَربيجان AZERBAÏDJAN: إقليم في بلاد إيران على الحدود الشماليّة الغربيّة، كانت عاصمته تبريز، وهي غير بلاد اذربيجان على سواحل بحر قزوين التي غدت جمهوريّة كانت من جمهوريّات الاتحاد السوفياتي.

٣ - تَبريز: مدينة في شمال غربي إيران، قاعدة إقليم آذَربَيجان، تشتهر اليوم بصناعة السجاد والطنافس والأقمشة الحريريّة وتشكّل مركزًا تجاريًا هامًا، سكّنها نحو ٦٠٠,٠٠٠ نسمة.

٤ - القُوقاس أو القَفقَاس CAUCASE: منطقة جبليّة في جنوب غربي الاتحاد السوفياتي السابق، بين بحر قزوين والبحر الأسود، تمتدّ على طول ١,٢٠٠ كلم، أمّا منطقة قَفقَاسيا CAUCASIE فتشمل القفقاس وأذربيجان وجيورجيا وأرمينيا التي كانت سوفياتيّة.

الوقت نفسه كان على هرقل أن يحارب على جبهة ثانية: الآفار[1]، الذين كانوا قد هدّدوا القسطنطينيّة نفسها، فردّهم عنها ليستأنف قتاله ضدّ الفرس في العام ٦٢٧ لمّا تمكّن من عبور الزاب[2]، ليدخل طيسفون عاصمة الفرس والمقرّ الملكيّ، حيث استعاد أسرى الجيش البيزنطيّ، وانسحب من العاصمة خوفًا من قساوة الشتاء.

أدّت انتصارات هرقل إلى نقمة على الملك الفارسيّ المهزوم: أبرويز، الذي تمرّد عليه ابنه شيرويه، فاغتصب العرش في شتاء ٦٢٨ وأرسل إلى هرقل عارضًا الصلح، فكانت المعاهدة الشهيرة في التاريخ، التي قضت بإعادة الحدود القديمة إلى ما كانت عليه بين الجبّارَين، وبإطلاق الأسرى، وبإرجاع الصليب المقدّس إلى مهده. وقد "أدخل هرقل الصليب إلى المدينة المقدّسة في موكب مجلّل بمظاهر الأبّهة والفخر والهيبة، خشعت أمامه الرؤوس والقلوب. وقد رُفع الصليب في مكانه وسط تلك الأجواء المعبّرة"[3].

عندما دخل هرقل إلى المدينة المقدّسة معيدًا عود الصليب، أمر اليهود بالابتعاد مسافة ثلاثة أميال عن المدينة احترامًا للرمز المقدّس[4]. وكان هؤلاء قد ناصروا الفرس ضدّ المسيحيّن بشكل سافر، ما جعل رهبان المدينة المقدّسة يسألون الأمبراطور

---

١ ـ الآفار AVARS: شعب منشؤه آسية الوسطى، غزا وخرّب في أوروبّا على مدى ثلاثة قرون، قضى عليه شارلمان ٧٩١ ـ ٨٠٤.

٢ ـ الزاب الكبير أو الزاب الأعلى: نهر في العراق ينبع في تركيا، من روافد دجلى، يصبّ عند المخلط قرب الموصل، عنده جرت المعارك الحربيّة بين العرب والبيزنط، وعنده أيضًا انتصر العباسيّون على مروان الثاني بعد معركة دامت ٩ أيّام فقضوا على الدولة الأمويّة ٧٥٠.

٣ ـ للإطّلاع على ما كُتب في موضوع إعادة الصليب، راجع: MICHEL LE SYRIEN, II: 427; SÉBEOS, PP. 90 - 91; THÉOPHANÈS A, 6020; VINCENT ET ABEL, PP. 191- 205; ANTIOCHUS LE STRATÈGE DANS: KOULAKOVSKY, P. 38.

٤ ـ THÉOPHANÈS A., 6120

الاقتصاص منهم، غير أنّ هرقل استجاب ليهود الجليل الذين أوفدوا إليه من رحّب به مقدّمين له الهدايا طالبين الأمان، فمنحهم تلك البراءة التي حملت خاتمه كما يقول بعض المراجع[1]. لكنّ هرقل لن يتمكّن من لجم غضبه عندما سيتطوّع اليهود لخدمة المسلمين والتجسّس لحسابهم والتواطؤ معهم في حربهم ضدّ البيزنطيّين، ما سيجعله يُصدر سنة ٦٣٤ أمرًا أمبراطوريًّا يقضي بوجوب عمادهم أينما كانوا وحيثما حلّوا، مؤكّدا على الضرر والخطر على المسيحيّة والأمبراطوريّة جرّاء بقائهم على دينهم[2].

كلّ هذا لم يؤدّ إلى الحدّ من الصراعات العقيدويّة داخل الكنيسة. فما أن عاد الصليب إلى قاعدته حتّى عاد القائلون بأنّهم من أتباع المصلوب إلى تمزيق ديانته.

كان قد أدّى احتلال الفرس هذه المنطقة المميّزة، وهي مسرح لم يتوقّف البتّة صراع الأديان على أرضه مدّة خمس عشرة سنة، إلى تنشيط المونوفيزيّين السريان وكلّ مَن قال بالطبيعة الواحدة على حساب الإيمان القويم. وعندما جلا الفرس بموجب معاهدة الصلح وعادت السلطة البيزنطيّة إلى مكانتها، عاد الصراع بين الكنيستين، وأُضيف إلى طرفيه طرف ثالث، هو القائل بالمشيئة الواحدة كما مرّ في الفصل السابق، فكانت تلك الصراعات تحتدم، بينما كانت القبائل الصحراويّة القائلة برسالة محمّد تتحفّز للانقضاض.

لم يكن قد مرّ ستّ سنوات على هجرة الرّسول العربيّ ﷺ وأنصاره من مكّة إلى يثرب عندما تلقّى هرقل في أيّار (مايو) ٦٢٨ كتابا ممهورا بخاتم: "محمّد رسول اللّه" ﷺ جاء فيه:

---

١ - EUTYCHIOS, *ANNALES*, PATR. GR., VOL. III, COL. 1089 - 1090.

٢ - راجع: BARDY G., *TROPHÉES DE DAMAS*, INTRODUCTION, PATR. OR., XV.

باسم اللّه الرحمَن الرحيم، من محمّد بن عبداللّه[1] إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلَم، وأسلِم يؤتك اللّه أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيّين[2].

تتضارب المعلومات بحسب المصادر حول هذه الرسالة. فبينما المراجع الغربيّة تشكّ في صحّتها[3]، تذهب المراجع الإسلاميّة إلى حدّ القول بأنّ هرقل قد آمن بنبوّة محمّد لأنّه "النبيّ الذي كنّا ننتظره". إلاّ أنّ "البطاركة الروم قد رفضوا الاعتراف بنبوّته"[4].

يبدو للمدقّق في رسائل محمّد ﷺ إلى الملوك والأمراء أنّ المغالاة واضحة في كلّ من المصادر: الغربيّة والإسلاميّة. فمن جهة لا يمكن نكران مراسلة محمّد ﷺ لهرقل، ومن جهة ثانية لا يمكن التسليم بأنّ هرقل قد آمن بنبوّة محمّد ﷺ، خاصّة لجهة ما ورد في المراجع الإسلاميّة من أنّ هرقل قد اعتبر محمّدًا "النبيّ الذي نجده في كتابنا"[5].

بالنسبة لصحّة الرسالة، بالإمكان الترجيح، إذا لم نقل التأكيد، على إرسال محمّد ﷺ لها من ضمن الرسائل التي وجّهها إلى الملوك والأمراء ومنهم: كسرى فارس، ونجاشي الحبشة، ومقوقس مصر، والحارث الغسّانيّ، والحارث الحميريّ، ولا نرى سببا من شأنه أن يكون منع محمّدًا ﷺ من مراسلة هرقل كما راسل كسرى وسواه من

---

١ ـ هكذا وردت في: إبن سعد، الطبقات. بينما وردت في مراجع أخرى "من محمّد رسول اللّه".

٢ ـ إبن سعد، الطبقات، ١: ١٥ ـ ١٦؛ قابل مع: إبن الأثير، الكامل، ٢: ٢١٢ ـ ٢١٣، حيث يقول: "وإن تولّيت فإنّ إثم الأكارين عليك"؛ وقابل أيضًا مع اليعقوبيّ ٢: ٧٧ حيث يختلف النصّ.

٣ ـ Lammens. H., *Etudes sur le Règne du Calife Moawia*, I: 422; Goldziher L., *Vorlesungen Über den Islam*, P. 25; Grimme H., *Mohammed*, I: 1236; Caetani L., *Annali*, I: 725 - 739.

٤ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، ٢: ٢١٠ ـ ٢١٣؛ اليعقوبيّ، ٢: ١٧٨؛ المسعوديّ، ٥: ١٥٨.

٥ ـ إبن الأثير، الكامل، ٢: ٢١١.

قادة المنطقة. أمّا بالنسبة للقول بأنّ هرقل قد آمن بمحمّد "الذي تحدّث عنه كتابه" فمن المعروف والثابت أنّ هرقل كان مسيحيًّا ملتزمًا بالكنيسة الأمّ، بل كان مؤتمنًا على تلك الكنيسة، وأنّ حروبه كانت الحروب الصليبيّة الأولى في التاريخ. فلا يمكن بالتالي أن يكون كتابه غير الأناجيل التي تعترف بها الكنيسة والتي لم تأت على ذكر نبيٍّ أو رسول منتظَر.

عمليًّا، لم يحصل أيّ احتكاك بين هرقل ومحمّد ﷺ نفسه، ولكنّ خطوط التماس سوف تنشأ بين الإسلام والبيزنطيّين بقيادة هرقل بعد انتقال محمّد ﷺ من هذه الفانية.

بدأ الخطر الإسلاميّ يدقّ أبواب بيزنطية في السنة الثانية عشرة للهجرة، بعد أن قُبض محمّد ﷺ بحوالى السنة، عندما فتح الشام خالد بن الوليد، فلحق "بشر" كثير من أهلها بهرقل وهو في أنطاكية"[1].

وقبل أن ينتهي عمر هرقل، وتنتهي معه السيطرة المسيحيّة على الشرق، كان المسلمون، بخلال ثماني سنوات فحسب، قد سلخوا عن الأمبراطوريّة العملاقة سورية وفلسطين ولبنان وبلاد ما بين النهرَين ومصر. وبذلك أدّى المفترق الهرقليّ إلى وضع الشرق على طريق الإسلام.

---

١ - راجع: البلاذري، فتوح البلدان، طبعة دي غويه (ليدن،١٨٦٦) ص ١١٦ ـ ١٢٦.

وجَاءَ الإسْلام

عشيّةَ ظهور الدين الجديد الذي بدأ بقول محمّدﷺ: "لا إله إلاّ اللّـه" وتطـوّر بعـد أن تقبّل سامعو هذه العبارة مضمونها إلى: "ومحمّد رسول اللّه" فأصبح في ما بعـد يُعـرف بالإسلام، كـان كثير مـن العـرب قـد اعتنـق إحـدى الديـانتَين السـماويّتَين: اليهوديّـة والمسيحيّة. بينما كان بعضهم الآخر لا يزال على وثنيّته. وقـد كـان مـن جميـع هـؤلاء حول مكّة مسقط رأس محمّـد ﷺ، ويـثرب، التـي ستُعرف فـي مـا بعـد بالمدينـة، ملجـأ محمّد ﷺ ونقطة انطلاق رسالته وعاصمة الخلافة في عصرها الأوّل.

أمّا الخريطة السياسيّة فكانت مقسّمة بين الدولتَيـن الوحيدتَيـن اللتَيـن كانتـا تتمتّعـان بقوّة عالميّة: بيزنطية وفارس. في حين كان العرب مقسّمين إلى قبـائل باسـتثناء بعض دويلات نشأت لهم، منها دولة الأنباط في الجنوب، ودولة تدمر في الشمال، وقد قضـت عليهما روما، ودولة الغساسنة في الوسط، وهي التي قضت عليها بيزنطية وفارس.

كانت نهاية الدولة النبطيّة على يد الأمبراطور تريـانس سنة ١٠٦. وأغلـب الظـنّ أنّ هؤلاء الأنباط الذين يعود أصلهم إلى قبائل بدويّة عربيّة انتقلت في القرن الرابع من طور البداوة إلى طـور التمدّن بتأسيسـها دولـة جنـوب فلسطين، كـانت البـتراء مدينـة الآدوميّين عاصمة لهـم لحصـانتهـا، قـد امـتزجوا بعـد الفتـح الرومـانيّ بسـائر السـكّان. وعشيّة الفتح الإسلاميّ لا بدّ من أن يكون هـؤلاء قد اعتنقـوا المسـيحيّة. أمّـا تدمـر أو عروس الصحـراء أو بلميرا PALMYRA التي كانت تقع علـى طريـق القوافـل بيـن آسـية

وموانئ المتوسّط ومنها إلى روما عاصمة الأمبراطوريّة، فقد استوطنتها قبائل عربيّة أنشأت دولة بلغت في بدء التاريخ الميلاديّ أوج عزّها. وازدهرت الدولة التدمريّة في عهد ملكتها زنّوبية التي أسرها الأمبراطور أورليانُس سنة ٢٧٢، ولا شكّ في أنّ المتحدّرين من تلك القبائل التي كانت تعبد الأوثان قبل انتشار المسيحيّة، قد حذوا حذو سائر السكّان في ما بعد، وأضحوا مسيحيّين قبل ظهور الإسلام.

أمّا الغساسنة، أو آل جفنة، فهم من السلالة العربيّة اليمنيّة الأصل التي هجرت بلادها عند انفجار سدّ مأرب في القرن الثالث واستوطنت بلاد حوران وشرق الأردنّ وفينيقية اللبنانيّة وفلسطين الثانية والثالثة قبل الإسلام. وفي حوران صادفوا سكّانًا من العرب أتوا قبلهم وهم: الضجاعم، من قبيلة سليم، فتغلّبوا عليهم وحلّوا مكانهم كحكّام على المنطقة في ظلّ السيادة الرومانيّة. وقد عمل الغساسنة في الجيش البيزنطيّ وعُهد إليهم حماية الحدود السوريّة. وقد اعتنقوا المسيحيّة المونوفيزيّة في نهاية القرن الثالث، وكانوا عند ظهور الإسلام من أهمّ القبائل العربيّة المتنصّرة.

تلك كانت أهمّ الدول العربيّة، إذا صحّ التعبير، في التاريخ، قبل عهد محمّد ﷺ: "مؤسّس الإسلام ومنشئ الأمّة العربيّة الإسلاميّة، موحّد شعوب الجزيرة العربيّة وقبائلها، دينيًّا وسياسيًّا وعسكريًّا، مؤسّس أوّل دولة عربيّة إسلاميّة، تحت لوائه، في الجزيرة العربيّة"[1].

كانت الغارة الأولى التي شنّها أتباع محمّد ﷺ على الأراضي الواقعة ضمن الأمبراطوريّة البيزنطيّة، تلك التي قادها زيد بن حارث، ربيب محمّد ﷺ، على رأس حوالى ثلاثة آلاف رجل سنة ٦٢٩ على بلدة مؤتة الواقعة شرقيّ الأردنّ. وقد وجّه

---

١ - بولس جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عوّاد للطباعة والنشر (بيروت، ١٩٧٣) ص ٦٨.

المسلمون هذه الغارة ضدّ الغساسنة بحجّة قتلهم أحد رسل محمّد ﷺ إليهم. وبالرغم من أنّ تلك الغارة كانت في الواقع السهم الأوّل الذي أطلقه أتباع محمّد ﷺ على الجسم البيزنطيّ، فإنّ القيادة البيزنطيّة لم تعر الحدث اهتمامًا يُذكر، بل اعتبرته واحدة من غزوات البدو التي اعتادها السكّان من قبل. أمّا نتيجة الغزوة فكانت مقتل عدد من المسلمين بينهم قائد الحملة، فقاد بقيّة الجيش القائد الفتيّ خالد بن الوليد[1] الذي سيغدو أحد أبطال الإسلام في حروبه.

بعد مؤتة، وفي حياة محمّد ﷺ، قاد مؤسّس الإسلام بنفسه حملة على واحة التبوك، الواقعة على طريق الحجّ، شمال الحجاز. ومن هناك "شرع في مفاوضات مع المَواطن المجاورة انتهت بخضوع سكّانها. فقد أمّن الأقوام على أرواحهم، ومنحهم حقّ الاحتفاظ بممتلكاتهم والبقاء على عقائدهم، شريطة أن يدفعوا جزية سنويّة. وكان أوّل هذه المواطن قاعدة أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة، وسكّانها من النصارى. تليها مقنا الواقعة إلى الجنوب من أيلة على ساحل الخليج، وسكّانها من اليهود. ثمّ إذرح الواقعة بين البتراء ومعان من الأردنّ. ثمّ الجرباء على مسيرة ساعة من إذرح شمالاً، وسكّانها نصارى أيضًا. فكانت هذه الأماكن المواطن الوحيدة في سورية التي اتّصل بها الإسلام في غضون حياة محمّد ﷺ"[2].

بعدما قُبض محمّد ﷺ (٦٣٢) بسنة واحدة[3]، وكان لا يزال أمام هرقل ثماني سنوات من الحياة على رأس الأمبراطوريّة، وكان الخليفة الأوّل للنبيّ على المسلمين: أبو بكر الصدّيق، أوّل الراشدين، وُجّهت إلى سورية ثلاث سرايا "قاد أولاها عمرو بن

---

١ ـ راجع الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٤ ـ ١٥ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٩ ـ ٦٠.

٣ ـ راجع الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

العاص[1]، وتولّى الثانية يزيد بن أبي سفيان[2]، والثالثة شرحبيل[3] ابن حسنة، وكان حامل اللواء في سريّة يزيد أخاه معاوية، المؤسّس العتيد للدولة الأمويّة في دمشق.

وقع الصدام الأول في وادي العربة، جنوب البحر الميت، وكان النصر فيه ليزيد على سرجيوس سنة ٦٣٤، فاجتاح يزيد وعمرو القسم الجنوبيّ من فلسطين برمّته. وعُزلت القدس تمامًا عن البحر"[4].

راحت الجيوش الإسلاميّة تجتاح بين سنتَي ٦٣٤ و٦٣٥ ما كان ظفر هرقل باسترجاعه من الفرس سنة ٦٢٨ دون أن يكون في ذهن هذا الأخير أيّ توقّع لأن يكون المجتاح هذه المرّة مقبلاً من الصحراء.

إجتاح خالد بن الوليد الجيوش البيزنطيّة في معركة قاسية وقعت في أجنادين، بين الرملة وبيت جبرين في فلسطين، فهدّد بذلك أبواب فلسطين بأسرها. كذلك انهزم الجيش البيزنطيّ في معركة لاحقة وقعت في مرج الصفر جنوب دمشق، ومنها انطلق خالد لحصار دمشق التي استسلمت بعد ستّة أشهر، وانسحب الجيش البيزنطيّ نحو الشمال.

كان سقوط دمشق بيد المسلمين حدثًا خارق الأهميّة بالنسبة لمصير المسيحيّة في الشرق. فلقد وضع هذا الفتح نهاية لعهد دام ما يقارب ألف سنة من السيطرة الغربيّة

---

١ ـ **عمرو بن العاص** (ت ٤٣ هـ/ ٦٦٤ م.): انتصر على البيزنط في أجنادين (فلسطين)، فتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وبابليون، احتلّ الإسكندريّة ٦٤٢، حكم مصر، بنى مدينة الفسطاس، اشترك في التحكيم الذي عقب صفين بين علي ومعاوية فرجّح بدهائه كفّة معاوية، توفّي بالقاهرة.

٢ ـ يزيد بن أبي سفيان (ت ١٩ هـ/٦٤٠ م.): أخو معاوية لأبيه، عُرف بلقب أبو خالد، أسلم يوم الفتح، سُمّي يزيد الخير لصلاحه، وجّهه أبو عبيدة للقيادة بفتح فلسطين، ولاّه عمر فلسطين، توفّي في طاعون عمواس بعد أن فتح قيصريّة.

٣ ـ **شرحبيل بن حسنة** (ت١٨ هـ/ ٦٣٩ م.): صحابيّ، أحد قوّاد الجيوش الإسلاميّة في عهد الفتوحات الأولى.

٤ ـ بولس، التحوّلات الكبيرة، ص ٨٦ بالاستناد إلى: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٦.

من جهة، وما يقارب الثلاثماية سنة من سيطرة الدين المسيحيّ، وإن كان العرب المسلمون قد تعهّدوا، إثر هذا الفتح، لمسيحيّي دمشق، بإبقاء أرضهم وبيوتهم وكنائسهم وحريّة عقائدهم الدينيّة مقابل الالتزام بدفع الجزية، سائرين بذلك على المبادئ نفسها التي فرضها محمّد ﷺ على ما جاوره من مواطن، إلاّ أنّ الحال لن يدوم على هذا المنوال، إذ سوف يحلّ اسم محمّد في معابد دمشق وفلسطين وسواهما محلّ اسم المسيح[1].

يظهر جليّا من خلال التدقيق في فصول الفتح العربيّ الإسلاميّ للمدن السوريّة، أنّ الأهالي الأصليّين لتلك المدن، وهم من الشعوب الساميّة، قد وجدوا في القادمين المسلمين ما أمكن اعتباره نوعًا من القربى، قياسا إلى أجنبيّة البيزنطيّين. وقد كانت المونوفيزيّة يومها الأكثر شيوعًا بين السكّان الأصليّين، من عرب وسريان، ولا بدّ من أنّه كان للّغة والثقافة دورهما في اعتناق هؤلاء السكّان للمونوفيزيّة. ذلك أنّ دعاتها كانوا من السريان والعرب، بينما الكنيسة الجامعة الأرثذوكسيّة، يتكلّم أساقفتها وإكليروسها اليونانيّة واللاتينيّة. ما جعل أولئك السكّان يعتنقون المونوفيزيّة، ليس من منطلقات فلسفيّة لاهوتيّة وإيمانيّة، ولكن من منطلق العداء للأجنبيّ. حتّى أنّ بعض الباحثين خلص إلى أنّ الدمشقيّين لم يروا في الإسلام غير شيعة مسيحيّة منشقّة، أملوا في أن ينالوا معها مزيدًا من الحريّة[2].

بعد استسلام دمشق سنة ٦٣٥ قام الخليفة الثاني، من الراشدين، عمر بن الخطّاب (خليفة ١٣ ـ ٢٣ هـ. / ٦٣٤ ـ ٦٤٤م.) بتعيين القائد يزيد بن أبي سفيان حاكمًا عسكريًّا عليها. وقضت شروط الصلح التي نفّذها يزيد بأن تبقى أراضي المسيحيّين

١ - راجع: ELISSÉEF, ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM, *DIMASHK*, II: 288.

٢ - OP. CIT.

وبيوتهم وكنائسهم وحريّة عقائدهم الدينيّة مُصانة مقابل التزامهم بدفع ضريبة والتعهّد بدفع الجزية، ويبدو أنّ قيمة تلك الضريبة والجزية كانت أقلّ ممّا كان يدفعه الأهالي للبيزنطيّين.

وفي خلال سنتَي ٦٣٧ ـ ٦٣٨ استسلم للفاتحين المسلمين، دون معارك، كلّ من بعلبكّ وحمص وحماه وحلب وأنطاكية والمدن الفينيقيّة على الساحل اللبنانيّ. وأُلحقت جميع هذه المدن بالحاكم العسكريّ في دمشق: يزيد بن أبي سفيان.

وإذ قاومت القدس وقيساريّة في الجنوب، اللتان اصطبغتا بالصبغة الهلّينيّة، صمدت القدس حتّى سنة ٦٣٨ عندما اشترط سكّانها أن يكون تسليم المدينة للخليفة عمر بن الخطّاب بالذات. وقد منح الخليفة السكّان المسيحيّين الأمان لأشخاصهم وأملاكهم وكنائسهم وحريّتهم الدينيّة، لقاء التعهّد بدفع ضريبة عاديّة. أمّا قيساريّة فقد كانت على اتّصال بالإمدادات البحريّة، ما جعلها تقاوم حتّى سنة ٦٤٠ إذ رضخت إثر حصار حادّ ضربه عليها معاوية. وبخلال سنوات سبع: (٦٣٣ ـ ٦٤٠)، تمّ للمسلمين إخضاع سورية بكاملها من الجنوب إلى الشمال. ولم يوقف الزحف الإسلاميّ سوى سلسلة الجبال الشاهقة التي تشكّل حدًّا طبيعيًا للمنطقة السوريّة: جبال طوروس[١].

بوفاة يزيد بن أبي سفيان سنة ٦٣٣ وتعيين أخيه معاوية خلفًا له في حاكميّة دمشق، اتّخذت هذه المدينة مركزًا سياسيًّا رئيسيًا في سورية ولبنان وفلسطين، فإنّ حاكمها الجديد هو الذي سيصبح أمير المؤمنين (٦٦١ ـ ٦٨٠) والذي سيجعل من دمشق عاصمة للخلافة الأمويّة التي ستستمرّ من سنة ٦٦١ إلى سنة ٧٥٠.

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٢ ـ ١٣؛ بولس، التحوّلات، ص ٨٨ ـ ٨٩.

قسّم المسلمون سورية ولبنان وفلسطين إلى عدّة حكومات عسكريّة سُمّيت "جندًا"، وجعلوا مراكز هذه الحكومات بعيدة عن البحر لاتّقاء هجمات الأساطيل البيزنطيّة. فكانت تلك المراكز: دمشق وحمص وعكّة والأردنّ وقنسرين. أمّا مدن فينيقية الساحليّة فأُلحقت مباشرة بالحكومة العسكريّة المركزيّة في دمشق.

قضت سياسة الخليفة عمر بن الخطّاب بأن يكون المسلمون العرب، في البلاد المحتلّة، بمثابة طبقة أرستقراطيّة دينيّة عسكريّة، فيحافظون على نقاوة دمهم ويمتنعون عن مخالطة المواطنين، فلا يقتنون المزارع ولا يعملون في الأرض. أمّا أبناء الشعوب المغلوبة من أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى والصابئة[1]، فقد جُعلوا في وضع خاصّ، عُرفوا فيه بأهل الذمّة، ترتّب عليهم بموجبه أن يؤدّوا الخراج، وهو ضريبة الأرض، والجزية، وهي ضريبة الدخل. إلاّ أنّهم كانوا معفيّين من التجنيد. بمعنى آخر، لم يكن يحقّ لهم أن يمتشقوا الحسام في ذلك الوضع الخاصّ الذي كانوا عليه.

---

١ ـ الصابئة: أتباع طائفة كانت تؤلّه الكواكب، كان مقرّهم في حرّان ما بين النهرين، خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجّمون، وزعموا أنّهم المعنيّون باسم الصابئة الوارد في القرآن.

إستمرار الانقسام والتقهقر

بينما كان الفتح الإسلاميّ في أوّل غيثه يُنذر بالخطر المهدّد لمصير المسيحيّة في الشرق، كانت الخلافات والانقسامات على أشدّها داخل الكنيسة ورعاياها في هذه المنطقة الخصبة لبذار البدع والاجتهادات. وكانت الانقسامات موزّعة بشكل رئيسيّ بين الكنيسة الأمّ من جهة، والقائلين بالطبيعة الواحدة أي المونوفيزيّين من جهة ثانية، والقائلين بالمشيئة الواحدة من جهة ثالثة[1]. أمّا المذهب الأخير فكان وراءه هرقل بالذات الذي حاول من خلاله التوفيق بين الكنيسة الأمّ والقائلين بالطبيعة الواحدة، حتّى أنّه أصدر سنة ٦٣٨ منشورًا أوجب من خلاله القول بالمشيئة الواحدة، ممّا أعطى نتيجة مناقضة لغاية هرقل إذ زاد في تشعّبات الانشقاقات ونتائجها.

يعزو مؤرّخو الكنيسة الشرقيّة هذه البدعة إلى البطريرك القسطنطينيّ سرجيُس، وهو من أهل البلاد، وكان يرغب، هو الآخر، في أن يجمع صفوف أنصار مجمع خلقيدونية، ومعارضيه المونوفيزيّين، فابتكر حلاً وسطًا ظنّه يرضي الطرفين فقال: إنّ في المسيح طبيعتَين، ولكن فيه قوّة واحدة. وعرض على الطرفين قوله هذا. فرضي به عازار جاثليق[2] الأرمن آنذاك، وقبله أثناسيُس الجمّال بطريرك

---

١ ـ المشيئة الواحدة أو الإرادة الواحدة في المسيح، هو المذهب الذي عرف بـ"المونوتيليّة".

٢ ـ **جاثليق وجثليق**: رتبة كنسيّة عالية في الكنيسة الأرمنيّة والكنيسة السريانيّة القديمة لعلّها بمثابة رتبة البطريرك عند سائر الكنائس الشرقيّة، ترجمتها "رئيس عام"؛ راجع الجزء الخامس عشر من هذه الموسوعة.

اليعاقبة[1]، فاعترف به هرقل بطريركًا وحيدًا على أنطاكية، ولم يسمح بانتخاب بطريرك ملكيّ[2]. ثمّ عيّن الملك هرقل في الإسكندريّة البطريرك فوروش، الذي كان أسقفا ملكيًا في القفقاز، ومنحه صلاحيّات واسعة. فما أن قدم فوروش إلى الإسكندريّة حتّى هرب منها بنيمين بطريرك الأقباط[3]. وفي سنة ٦٣٣ عقد في الإسكندريّة مجمع أقرّ الاتّحاد بين الأقباط والملكيّين على أساس الطبيعتَين والقوّة الواحدة. إلاّ أنّ هذا الاتّحاد، بحسب بعض مؤرّخي الكنيسة الشرقيّة، كان ظاهرة مزيّفة فارغة لم يرضَ عنها معظم اليعاقبة والملكيّين. وأوّل من احتجّ عليها كان الراهب الملكيّ الدمشقيّ صفرونيُس الذي أصبح سنة ٦٣٤ بطريرك القدس، فنبّه البابا إلى ما في هذا التعليم الجديد من التباس وغموض وخطر على معتقد الناس. واطّلع هرقل على هذه المقاومة فأمر بعدم التحدّث في الموضوع العقائدي[4]. وإذ كان القدّيس صفرونيُس[5] بطريرك القدس قد توفّي، فلم يُسمع في الشرق العربيّ احتجاجٌ ما، وبلغ البابا يوحنّا الرابع هذا

---

١ - اليعاقبة: تسمية أطلقت على السريان وسواهم من القائلين بالمشيئة الواحدة من أتباع يعقوب البرادعي أحد أهمّ الآباء العاملين على نشر هذه العقيدة، لا توافق الكنيسة السريانيّة الشرقيّة على استعمال صفة يعاقبة في تسمية أتباعها، ولكنّنا نجد أنفسنا مضطرين أحيانًا إلى استعمال هذه الصفة في حالتين: عند نقل الصفة عن المراجع، وفي حالة وجوب الدلالة على أتباع البرادعي من المونوفيزيّين دون سواهم، أو التمييز بينهم وبين سواهم من القائلين بالمشيئة الواحدة؛ راجع والجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٢ - في هذه الحقبة من التاريخ أُطلق لقب "الملكيّين" على أولئك الذين ناصروا هرقل ضدّ المسلمين، وهم من السكّان الأصليّين ذوي العرق السريانيّ - الآراميّ، وقد جاءهم هذا اللقب: الملكانيّ أو الملكيّ، من خصومهم في العقيدة وزملائهم في الأصول العرقيّة تعبيرًا، إذ اعتبروهم مناصرين للأجنبيّ ضدّ أترابهم الساميّين، غير آخذين بعين الاعتبار صوابيّة العقيدة والإيمان، علمًا بأنّ المسيحيّة منذ بولس الرسول قد أصبحت عالميّة غير مفرّقة بين عرق وآخر.

٣ - راجع الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة.

٤ - يتيم المطران ميشال، ديك الأرشمندريت اغناطيوس، تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة، معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت - حريصا، منشورات المكتبة البولسيّة (بيروت،١٩٩٩) ص١٦١.

٥ - صفرونيُس (ت حوالى ٦٣٨): ولد في دمشق وتنسّك في فلسطين، بطريرك القدس، حارب مذهب المشيئة الواحدة، في عهده فتح العرب القدس ٦٣٨.

القول فعدّه ضلالاً وبدعة جديدة. فأهمله هرقل ولم يعد يكترث له[1]. كما أنّ قسطنطين الثالث هرقل، الذي سيتولّى لأقلّ من سنة (٦٤١)، سيلغي منشور هرقل، وفي عهد البابا ثيودورُس الأول (٦٤٢ ـ ٦٤٩) سوف تحارب روما بدعة المشيئة الواحدة بشدّة[2].

إلاّ أنّ خليفة هرقل كونستانس الثاني (٦٤٢ ـ ٦٦٨) سوف يتمسّك بهذه البدعة تمسّكًا أعمى، وسوف يقاومه البابا مرتينُس الذي أصرّ على أن ينبذها بطريرك القسطنطينيّة ويحكم عليها بالضلال، ما سيدفع الملك كونستانس إلى إصدار مرسوم سنة ٦٤٨ يأمر فيه بالسكوت وعدم القول لا بمشيئة واحدة ولا بمشيئتين. إلاّ أنّ البابا مرتينُس الأول (٦٤٩ ـ ٦٥٣) لن يرضى بالسكوت، بل سيعقد مجمع اللاتران[3] في روما سنة ٦٤٦ الذي سيضمّ مئة وخمسة أساقفة من إيطاليا وأفريقيا وأسقف دورة في فلسطين: إسطفانوس، وبعض الرهبان والقسّيسين من الغرب والشرق. وسيُجمع أعضاء هذا المجمع، الذي ضمّ نحو ٥٠٠ رجل دين، على شجب تعاليم بدعة المشيئة الواحدة وعلى اعتبارها خروجًا وهرطقة، وقطع الأساقفة والبطاركة القائلين بها في الشرق وتكرار الاعتراف بالإيمان النيقاويّ[4].

وبما أنّ بطريركَي أنطاكية وأورشليم كانا قد قالا بالمشيئة الواحدة، فقد أقام البابا مرتينُس إثر هذا المجمع أسقف فيلادلفية (عمّان) وكيلاً بطريركيًّا على أبرشيّات

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٦٢.

٢ - ١ - راجع: HEFELE - LECLERCQ, *HISTOIRE DES CONCILS*, III: 430 - 434.

٣ - لاتران LATRAN: قصر في روما كان مقامًا للبابوات مدّة نحو عشرة قرون، عقدت فيه خمسة مجامع مسكونيّة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، بالقرب منه كنيسة مار يوحنّا اللاتراني التي شيّدها الأمبراطور قسطنطين ٣٢٤ ثمّ أجريت فيه تعديلات عديدة، إحدى كنائس روما الخمس الكبرى.

٤ - OP. CIT. 434 - 451.

كنيستي أنطاكية وأورشليم، وأمره بخلع كلّ أسقف يصرّ على القول بالمشيئة الواحدة[1]. وعزّز البابا إجراءه برسائل رعائيّة وجّهها إلى المؤمنين في أبرشيّات أنطاكية وأورشليم.

وسوف تكون ردّة فعل كنستانس على قرار البابا عنيفة، فيأمر بإلقاء القبض عليه وبمحاكمته أمام المجلس الإكليريكيّ الأعلى في القسطنطينيّة، متّهمًا إيّاه بالتآمر على سلامة الدولة. وسيُحضر هذا البابا القدّيس إلى القسطنطينيّة ليتلقّى تعذيبًا شديدًا ينفى بعده إلى القفقاس ربيع سنة ٦٥٥ حيث ستكون وفاته. ثمّ ليُنقل جثمان البابا القدّيس إلى روما. ويُعتبر مرتينُس قدّيسًا شهيدًا بارًّا لدى الكنيسة الجامعة الأرثذوكسيّة والكاثوليكيّة حتّى اليوم[2]. كلّ ذلك لن يمنع الراهب مكسيمُس من مقاومة البدعة، ما سيدفع الملك إلى القبض عليه وقطع لسانه ويده اليمنى ونفيه إلى قلعة نائية[3].

وسوف يكون من الطبيعيّ أن تثير هذه البربريّة القاسية سخط الشعب وغضبه. وستستمرّ مشكلة المشيئة الواحدة مستشرية طوال عهد كنستانس لتُحرَم في عهد قسطنطين الرابع بوغوناطُس (٦٦٨ ـ ٦٨٥) عبر المجمع المسكونيّ السادس الذي سينعقد في قاعة القصر الملكيّ في القسطنطينيّة سنة ٦٨١ بدعوة من الملك، بمشاركة البابا وبطريرك القسطنطينيّة وبطريرك أنطاكية و١٧٤ أسقفًا. وسوف تضمحلّ تلك البدعة وتضمحلّ تدريجًا إلاّ في سورية حيث سيبقى لها بعض الأنصار الذين لن يتأثّروا بقرارات المجمع السادس لبُعدهم عن الدولة البيزنطيّة[4].

---

١ ـ Mansi, X, Col. 806 - 822.

٢ ـ Hefelé - Leclercq, *Les Martyrs*, IV: 234 - 246.

٣ ـ **مكسيمُس المعترف** (ت٦٦٢): قدّيس تجلّه الكنيستان الشرقيّة والغربيّة، مات في منفاه، خلّف كتابات لاهوتيّة ونسكيّة عميقة.

٤ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٦٢.

إستمرّ الصراع بين أباطرة القسطنطينيّة من جهة، وباباوات روما من جهة ثانية، في حين كانت الجيوش الإسلاميّة تحتلّ مدن الشرق المسيحيّة، وتحكمها الواحدة تلو الأخرى. وعندما انتُخب البابا فيتاليانُس سنة ٦٥٧ لسدّة الباباويّة راسل قسطنطين الثالث معلِمًا إيّاه شكليًّا بالحدث، كذلك بعث برسالة سلاميّة إلى بطريرك القسطنطينيّة، فاعترف الأمبراطور بقانونيّة الانتخاب الباباويّ وقدّم الهدايا الأمبراطوريّة إلى الحبر الأعظم. فكانت مهادنة عادت بموجبها العلاقات إلى طبيعتها بين روما والقسطنطينيّة[١]. إلاّ أنّ هذه العودة إلى الاتّحاد جاءت بعدما خسر الشرق معظم حكمه المسيحيّ.

في هذا الوقت، تطوّرت معاملة المسلمين للمسيحيّين إلى ما هو أكثر تشدّدًا في عهد ثاني الخلفاء الراشدين: عمر بن الخطّاب، الذي نظر نظرة فاتح مؤسّس لدولة إسلاميّة تحمي الإسلام والمسلمين أوّلاً، كما كانت دولة الروم مسيحيّة تحمي المسيحيّة والمسيحيّين أوّلاً. ففي ما عُرف بـ "عهدة عمر" إلى أهل الذمّة، كان على المسيحيّين ألاّ يحدثوا في "مدائنهم ولا في ما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلّية ولا صومعة راهب، وألاّ يجدّدوا ما خرب منها، ولا ما كان متختطًا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار. وأن يوسّعوا أبوابها للمارّة وابن السبيل. وأن يُنزلوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه، وألاّ يؤوا في كنائسهم ولا في منازلهم جاسوسًا، وألاّ يكتموا غشًّا للمسلمين. وألاّ يعلّموا أولادهم القرآن. وألاّ يُظهروا شرعهم، وألاّ يدعوا إليه أحدا، وألاّ يمنعوا أحدًا من ذوي قرابتهم الدخول في الإسلام إن أراد. وأن يوقّروا المسلمين ويقوموا لهم من المجالس إذا أرادوا الجلوس. وألاّ يتشبّهوا بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، وألاّ يتكلّموا بكلامهم ولا يتكنّوا بكناهم. وألاّ يركبوا بالسروج. وألاّ يتقلّدوا السيوف، ولا يتّخذوا شيئًا من السلاح. ولا

---

١ - DUCHESNE, *LIBER PONTIFICALIS*, I: 334; MANSI, IX, COL. 199.

يحملوه معهم. وألاّ ينقشوا على خواتمهم بالعربيّة. وألاّ يبيعوا الخمور. وأن يجزّوا مقادم رؤوسهم. وأن يلزموا زيّهم حيثما كانوا. وأن يشدّوا الزنانير على أوساطهم. ولاّ يُظهروا صلبانهم ولا كتبهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم. وألاّ يضربوا نواقيسهم في كنائسهم إلاّ ضربًا خفيفًا. وألاّ يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين. وألاّ يخرجوا شعانينهم ولا باعوثهم. وألاّ يرفعوا أصواتهم مع موتاهم. وألاّ يظهروا النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم. وألاّ يجاوروهم بموتاهم. وألاّ يتّخذوا من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين. وألاّ يتطلّعوا إلى منازلهم. وألاّ يضربوا أحدًا من المسلمين"[1].

هكذا دخل المسيحيّون في هذه المنطقة من الشرق بعد الفتح الإسلاميّ في ذمّة المسلمين لقاء دفع الجزية، بينما كان أهل الكنيسة وقادتها في ما تبقّى لهم: في القسطنطينيّة وجوارها، يتجادلون ويختلفون في المشيئة والطبيعة للمسيح. على أيّ حال، فإنّ السكّان الأصليّين من ساميّي هذه المنطقة لم يكونوا في العهد البيزنطيّ أفضل حالاً ممّا أصبحوا عليه في العهد الإسلاميّ. فلقد كانوا في الحالتَين بعيدين عن الأحكام. ففي الحالة الأولى كانت الأرستقراطيّة طبقة هلّنستيّة قلّما تمكّن ساميّ من ارتقاء درجاتها. وفي الحالة الثانية أصبحت الأرستقراطيّة عربيّة إسلاميّة تتعاطى الأحكام وصناعة الحرب. وإنّ أصدق ما يعبّر عن الحالة الأولى التحاق السكّان الغربيّين من أهالي أنطاكية وسائر المدن التي تغلّب فيها المسلمون على البيزنطيّين بهرقل المنهزم إلى حيث حلّ، بينما لم يبقَ في تلك المدن سوى سكّانها الأصليّين من العرق الساميّ[2].

---

١ ـ الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٢٨٣.

٢ ـ راجع: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٣ ـ ١٦٤.

على الصعيد المسيحي، لم يقتصر خلاف الشيع في ذلك الظرف الحرج من تاريخ المسيحيّة في الشرق على المشاحنات الكلاميّة، بل تعدّاه إلى مناصرة بعضهم للمسلمين ضدّ بعضهم الآخر، لا بل قيام بعضهم، مستقويا بالمسلمين، بمحاولة إبادة بعضهم الآخر.

وتُجمع المراجع التاريخيّة على أنّه عندما انهزم هرقل بجيوشه إلى القسطنطينيّة، أي إلى بلاد الروم[1]، تبعه أكثر الملكيّين الذين هم من أصول رومانيّة وإغريقيّة، بينما لم يكن بوسع أهل البلاد الأصليّين النزوح بهذه السهولة، فوجد الملكيّون منهم أنفسهم في وضع صعب للغاية. بينما تمتّع غير الملكيّين، وهم القائلون بالمونوفيزيّة، تمتّعوا بامتيازات نسبيّة على سائر المسيحيّين. وبذلك يبدأ فصل جديد من التحوّل الدينيّ في الشرق، إن بالنسبة للمعتقد المسيحيّ، أم بالنسبة لمصير المسيحيّة ككلّ.

***

قبل نهاية ولاية ثاني الخلفاء الراشدين: عمر بن الخطّاب في العام ٦٤٤، كانت الجيوش الإسلاميّة قد أطبقت على الأمبراطوريّتين الفارسيّة والبيزنطيّة في الشرق. وفي سنة ٦٤٠ تمّ الاستيلاء على مصر التي كانت القبطيّة القائلة بالمونوفيزيّة منتشرة في ربوعها انتشارًا سائدًا، فدخل الأقباط، منذ ذلك التاريخ، في الذمّيّة، وغادر مصر معظم الأروام[1]، ولقد كان لهذا الفتح فعل تحوّل أساسيّ في المسار الدينيّ لمصر وأفريقية عامّة، إذ سوف يتحوّل العديد من أهلها من المسيحيّة المونوفيزيّة إلى الإسلام.

---

١ - الرّوم والأروام: تسمية أطلقت على البيزنطيّين سواء كانوا غربيّي العرق أم من أهل البلاد الذين حملوا الجنسيّة الرومانيّة أو أصبحوا ملكيّين.

الفَصْلُ الثَّالِث

المَسِيحِيَّةُ المَشْرِقِيَّة والخِلافَةُ الأُمَوِيَّة

الأُمَوِيُّون والبِيزَنْطِيُّون

مَسِيحِيُّو الشَّرقِ فِي العَهدِ الأُمَوِيّ

الدِّينُ والفِكرُ واللاَّهُوت

حَربُ الأيقونات

الأَمَوِيُّونَ والبيزَنطِيُّونَ

كانت الحقبة الممتدّة بين بداية الخلافة الراشديّة التي بدأت بولاية أبي بكر الصدّيق سنة ٦٣٢ وانتهت بنهاية ثالث الخلفاء الراشدين: عثمان بن عفّان سنة ٦٥٦، حقبة السيطرة الإسلاميّة على كامل المنطقة الواقعة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط امتدادًا إلى المنطقة الأفريقيّة المتّصلة بها وإلى فارس. في هذه الحقبة تأكّد أنّ الشرق قد دخل باب تحوّل تاريخيّ لن يكون من السهل إنهاؤه، أو وضع حدٍّ له، أو ردّ الوضع إلى ما كان عليه قبل حصوله بأيّة وسيلة من الوسائل. لقد اكتسح الحكم الإسلاميّ الحكم المسيحيّ من جهة، والحكم الوثنيّ من جهة أخرى اكتساحًا بالضربة الأولى. ومنذ ذلك التاريخ سوف يتحوّل مفهوم الحروب في هذا الشرق من المفهوم العرقيّ إلى المفهوم الدينيّ، وأحيانًا كثيرة إلى المفاهيم المذهبيّة.

وإذا كان العهد الراشديّ (٦٣٢ ـ ٦٥٦) قد مدّ السيطرة الإسلاميّة إلى هذه البقاع من العالم، فإنّ العهد الأمويّ (٦٦١ ـ ٧٤٤) سوف يثبّت الدين الجديد فيها بعد أن يستوعب حضارات تلك المنطقة، وأن يكيّف واقعها من جهة مع واقعه، وأن يكيّف من جهة ثانية واقعه مع واقعها. بمعنى آخر، "كان من الطبيعيّ أن ينقل بعض المسيحيّين لدى اعتناقهم للإسلام، شيئًا من أفكارهم وشعائرهم، وأن يقتبس بعض الفرق والبدع شيئًا من ذلك ويحتفظ به"[1].

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٤٥.

ثمّ إنّ إحلال العربيّة في دواوين الدولة محلّ اللغات التي كانت سائدة قبل الفتح الإسلاميّ، كان بحكم الضرورة بطيئا. بخلال ذلك كان من الطبيعيّ أن يقتبس المسلمون العرب الكثير من العلوم والعادات والتقاليد عن المجتمعات والأنظمة التي سبقتهم في استيطان المنطقة وحكمها. حتّى أنّ معاوية، الخليفة الأمويّ الأوّل، قد لُقّب بالملِك، على غرار ملوك البيزنطيّين، ذلك لأنّه طوّر طريقة الحكم في الإسلام من نهج المشيخة الذي اتّبعه الخلفاء الراشدون، وهو نهج قبليّ في شكله وجوهره، إلى نهج الملَكيّة الذي كان متّبعًا من قبَل ملوك البيزنطيّين وأباطرتهم. لذلك لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال اعتبار أنّ الإسلام قد محق الحضارات التي كانت سائدة قبل قدوم عرب الصحراء إلى هذه البقاع محقًا تامًّا شاملا ونهائيًّا، كما لا يمكن القول بأنّ هذه الحضارات قد تعدّدت بشكل مستقيم تمامًا بين الواحدة والأخرى، ولكنّ شيئا من التمازج قد حصل بينها جميعًا، فيما بقي ملحوظًا في الوقت نفسه شكل من أشكال التمايز بينها.

وإذا كان العهد الراشديّ قد فتح هذه المنطقة فتحًا دينيًّا محدّد الأبعاد، فإنّ العهد الأمويّ قد حكمها حكمًا استيلائيًّا ثابت الأقدام.

ففي العهد الراشديّ كان مركز الخلافة في الحجاز: المدينة. وكان الخليفة يبايع هناك، بينما نودي بمعاوية خليفة في إحدى عواصم شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط: إيلياء. وإيلياء هي نفسها أورشليم، وهي نفسها القدس. كان ذلك سنة ٦٦١ بعد أن حسم معاوية أمر الخلافة لنفسه، إثر الحرب الأهليّة الإسلاميّة على موضوع هذه الخلافة بينه وبين علي بن أبي طالب. ولقد جعل معاوية من دمشق عاصمة للدولة الإسلاميّة الشاسعة الأطراف، وبذلك انتقل مركز الثقل للأمبراطوريّة الإسلاميّة من الحجاز إلى شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط.

وعندما فتح العرب المسلمون بلاد الشام، استعانوا في إدارتها بالموظّفين المحلّيين من السريان، خاصّة بأولئك الذين تابعوا القيام بنفس الوظائف التي كانوا يقومون بها في خلال العهد البيزنطيّ. وفي عهد خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م)، جرى تعريب الدواوين وإحلال موظّفين مسلمين مكان هؤلاء[١].

وهكذا، بالرغم من اتّخاذ الخلفاء الأمويّين لدمشق عاصمة لحكمهم ولدولتهم، فقد بقيت سورية وجوارها حتّى زوال الدولة الأمويّة مسيحيّة بأكثريّة سكّانها. فبالإضافة إلى أنّ الأمويّين كانوا مضطرين إلى اتّباع سياسة التساهل من أجل الاستيعاب، كانوا لا يرغبون في أن يعتنق الإسلام غير العرب الأصليّين، أي عرب الجزيرة والمتحدّرين منهم. وقد قُدّر عدد السكّان في سورية سنة ٧٢٢ بأربعة ملايين نسمة، لم يكن عدد المسلمين منهم يزيد على المائتي ألف فحسب، وكانت اللغة المستعملة في الأوساط الشعبيّة عامّة هي السريانيّة[٢].

وفي هذه الحقبة الانتقاليّة من التحوّل التاريخيّ الاجتماعيّ الدينيّ، شهدت المسيحيّة في شرقي البحر الأبيض المتوسّط والجوار شكلاً من التراجع البطيء، قبل أن تتدهور في حضورها ذلك التدهور السريع في العهد العبّاسيّ الذي سوف يعقب العهد الأمويّ.

أمّا العرش البيزنطيّ، فكان قد انتقل إلى القسطنطينيّة مع انتقال هرقل إليها منهزمًا أمام العرب المسلمين. وبعد هرقل ساد الصراع على المُلك، فلم يملك هرقل الثاني، ابن الأوّل، من زوجته الثانية ابنة أخته، سوى شهر واحد، عقبه أخوه هرقل هرقليناس

---

١ ـ راجع: بولس، التحوّلات، ص ١٠٧.

٢ ـ CALLOT J. P., *SYRIE*, ENCYCLOPEDIA UNIVERSALIS, 15: 672.

الذي لم يكن حظّه أفضل من سابقه، إلى أن تبوّأ الملك كنستانس الثاني هرقليوس الملقّب ببوغوناتس (٦٤١ ـ ٦٦٨) بعد أن تغلّب على إخوته جميعًا، وهو الذي خلف هرقل الأوّل في محاولته عبثًا حلّ المشاكل الدينيّة في الشرق، وقد حارب في الشرق والغرب لتوطيد دعائم الأمبراطوريّة المتزعزعة. إلاّ أنّ معاوية قد غلبه في معركة بحريّة جرت على شواطئ آسية الصغرى.

بموت كنستانس الثاني عاد الصراع على المُلك، ما أدّى إلى تسليمه إلى قسطنطين الرابع سنة ٦٦٨ إذ كان لا يزال يافعًا، فتمرّد الجند في صقليّة وأرمينية، إلى أن بلغ التنازع حدّ استنجاد بعض القادة البيزنطيّين بالعرب ضدّ بعضهم الآخر، ممّا حدا بمعاوية إلى استغلال الفرصة السانحة، فبدأ محاولته للاستيلاء على قسطنطينيّة بالذات بين سنة ٦٧٣ وسنة ٦٧٨. ولكنّ محاولات معاوية العسكريّة البحريّة قد باءت بالفشل، وانتهت تلك المرحلة من الصراع إلى إقرار صلح بين الطرفين يدفع بموجبه معاوية ثلاثة آلاف قطعة ذهبيّة وخمسين جوادًا عربيًّا وخمسين عبدًا للقسطنطينيّة في كلّ سنة، وكانت مدّة هذا الصلح ثلاثين سنة[١].

خلف قسطنطين الرابع المتوفّي في أيلول سنة ٦٨٥ ولده يوستينيانُس الثاني المعروف بالأشرم أو الأخرم[٢]، وكان عمره حوالى ستّة عشر عامًا، وكان مصابًا بمرض العظَمة شرِسًا سفّاكًا للدماء، وكان في الوقت نفسه مستقيم الرأي في معتقده مخلصًا لقرارات المجامع المسكونيّة[٣].

---

١ - راجع: NICEPHORE, PP. 32 - 33, 42; THÉOPHANES, CHRON, ART. 6169.

٢ - يوستينيانُس الثاني (٦٨٥ ـ ٦٩٥) لُقّب بالأشرم أو الأخرم RHINOMETOS، أي المجدوع الأنف، لأنّ قائده لاونديُس ثار عليه وقطع أنفه بالسيف قبل أن ينفيه إلى الخرسون.

٣ - BRÉHIER L., *LA PAIX RELIGIEUSE*, V: 191; وراجع: DIEHL C., *CHOSES ET GENS DE BYZANCE*, PP. 174; *L'EMPERREUR AU NEZ COUPÉ*, 177.

أدّت أخلاقيّة يوستينيانُس الثاني وطغيانه وتجبّره إلى حروب داخليّة استنزفت أموال الخزينة، ما اضطرّ وزراءه إلى جباية الأموال اغتصابًا، فثارت ثائرة الشعب التي زادها اضطرابًا إقدام الأمبراطور على إعطاء أوامره بهدم إحدى كنائس القسطنطينيّة، ليقيم في مكانها بناءً له، إلى أن جدع أنفه قائده لاونديُس ونفاه، ونادى الجند بطيباريُس أمبراطورًا. ولم يمنع كون طيباريُس ابنا ليوستينيانُس هذا الأخير من فراره من منفاه ونزوله في بلغارية والاتّفاق مع ملكها على الزحف على القسطنطينيّة واستعادة العرش عنوة من ولده سنة ٧٠٥. ولم ينته حكم يوستينيانُس الثاني إلاّ بثورة قادها فيليبيكُس باردنس سنة ٧١١ نتج عنها مقتل الأمبراطور وابنه طيباريُس وهما آخر الهرقليّين، وتبوّأ العرش فيليبيكُس الذي حكم حتّى سنة ٧١٣، وخلفه أنستازيُس الثاني سنة ٧١٣ الذي خلعه الجيش وسجنه في أحد الأديار قبل أن يُقتل سنة ٧٢٠. وحكم بعده ثيودوثيُس الثالث لسنة واحدة (٧١٥ ـ ٧١٦) خلعه بعدها لاون الأيزوري ليدخل الرهبنة في أفسس.

مَسِيحِيُّو الشَّرقِ فِي العَهدِ الأمَوِيّ

حكم لاون الثالث الأيزوري لأطول مدّة بين سائر الأباطرة الذين خلفوا هرقل، وقد امتدّ حكمه ثلاثًا وعشرين سنة، تمكّن بخلالها من ردّ المسلمين عن القسطنطينيّة. وكانت تلك محاولتهم الأخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الأمويّين. ومن مآثره أنّه عدّل في قوانين يوستينيانُس وجعلها، بعد التعديلات، أكثر تطابقا مع المفاهيم المسيحيّة. وقد بدأت في عهده "حرب الأيقونات" الأولى سنة ٧٢٦ لتستمرّ حتّى سنة ٧٨٠، وهي الحرب التي اختلف المؤرّخون حول أسبابها، بيد أنّ جميع التفسيرات لا تبرّئ لاون من التسبّب بها. وسيكون لنا عودة إليها. كما نُسب إليه محاربة البولسيّين والتضييق عليهم، والتشدّد في حراسة الحدود الجنوبيّة التي كانت معرّضة للخطر الإسلاميّ.

خلف لاون الثالث الذي توفّي سنة ٧٤٠ قسطنطين الخامس الملقّب بالزبليّ[١]، الذي سرعان ما انتزع المُلك منه صهره زوج أخته حنّة: أرنفزدُس. ولكنّ قسطنطين

---

١ ـ تعدّدت الاراء حول سبب تلقيب هذا الأمبراطور بالزبليّ KOPRONYMOS: فمنهم من اعتبر السبب أنّه أفرز في جرن العماد حين المعموديّة (THÉOPHANES, CHRON, ART. 6211) ومنهم من روى أنّه لُقّب بالزبلي لأنّه كان يحبّ الخيل (LOMBARD A., ETUDES, CONSTANTIN, V: 10 - 21)

حاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عيني صهره وأعين ابنَيه ونفى الثلاثة معًا[1]، ليستقرّ له الحكم خمسًا وثلاثين سنة تنتهي في العام ٧٧٥، أي بعد نهاية حكم آخر أمويّ في المقابل: مروان الثاني، الخليفة الأمويّ الرابع عشر الذي انتهت ولايته مع الثورة العبّاسيّة سنة ٧٥٠.

لم تكن أحوال الكنيسة في هذه الحقبة من التاريخ مستقرّة في الشرق ولا بشكل من الأشكال. فبينما أصبح أكثر الكنائس الواقعة ضمن المنطقة التي سيطر عليها المسلمون يقول بالمونوفيزيّة، كانت الكنائس المرتبطة بالقسطنطينيّة وبروما تشهد حالة مدّ وجزر في العلاقات، إلى أن دعا يوستينيانُس الثاني سنة ٦٩٢ إلى مجمع محليّ ليعالج مشاكل الكنيسة، كان ذلك إثر المجمعَين المسكونيّين الخامس والسادس اللّذين حصرا أبحاثهما في أمور العقيدة، وقد أراد يوستينيانُس من المجمع المحلّيّ أن يُكمل أعمال المجمعَين السابقَين من خلال تنظيم الإدارة الكنسيّة، لذلك عُرف هذا المجمع في الآداب اليونانيّة بالمجمع البانثكتي PENTHEKTOS، وفي الآداب اللاتينيّة KUINESEXTUM، والكلمتان تعنيان: الخامس والسادس. وقد حضر هذا المجمع حوالى مائتين وأربعين أسقفًا، بينهم بطاركة القسطنطينيّة والإسكندريّة وأنطاكية وأورشليم، إضافة إلى أسقفَي غورتيني ورابينا اللذَين مثّلا بابا روما.

وكادت نتائج هذا المجمع تُحدث شرخًا بين الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة لولا تدخّل الأقدار لعدم حصول ذلك.

فإنّ مقرّرات ذلك المجمع التي أيّدت جميع القوانين الصادرة عن المجامع السابقة قد شملت، في ما شملته، تحريم الصوم أيّام السبت، والإذن للكهنة بالزواج، إضافة إلى

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ٨٩.

تعيين السنّ التي يجب أن يبلغها الإكليريكيّ قبل سيامته، وتحريم الدّين بالربا على رجال الدين، وتحريم الرشوة للوصول إلى المناصب الكنسيّة، وغيرها من المقرّرات المختصّة بأمور الرهبانيّات والأديار والجمعيّات السريّة، وعتق الرقيق والتصاوير البذيئة والسحر والكهانة وأمر اليهود. وإذ أرسل الأمبراطور مقرّرات المجمع إلى روما ليوقّعها البابا سرجيوس الأنطاكيّ (٦٨٧ - ٧٠١) أبى البابا التوقيع بسبب ما جاء فيها من تحريم الصوم أيّام السبت والإذن للكهنة بالزواج. ولمّا أراد يوستينيانُس أن يُكره الحبر الروماني على التوقيع، تمرّد جيشه في إيطالية ووقف إلى جانب البابا. في هذه الأثناء تمّ جدع أنف يوستينيانُس ونفيه. وقبل أن يستعيد يوستينيانُس العرش كان قد أصبح على السدّة الباباويّة، البابا قسطنطين الأوّل (٧٠٨ - ٧١٥).

ما أن وطّد يوستينيانُس أقدامه في الحكم حتّى سارع إلى دعوة البابا قسطنطين لزيارة القسطنطينيّة في مبادرة منه لتثبيت دعائم حكمه، و قد لبّى البابا هذه الدعوة سنة ٧١١ واستُقبل فيها بحفاوة وإكرام، وأقام فيها قدّاسا حافلا ناول بخلاله القربان المقدّس إلى الأمبراطور، وبذلك عادت المياه إلى مجاريها بين روما والقسطنطينيّة[١].

في هذه الأثناء كان بطاركة كنيسة أنطاكية قد انتقلوا إلى القسطنطينيّة، بسبب السيطرة الإسلاميّة على أنطاكية. ونظرا لغياب البطاركة الأصليّين وفراغ السدّة البطريركيّة كليًّا لمّا لم تعيّن القسطنطينيّة خلفا لثالث البطاركة الأنطاكيّين الذين استقرّوا فيها بعد وفاته سنة ٦٨٥، قرّر قسم من الرهبان الملكيّين الأنطاكيّين انتخاب بطريرك من بينهم ليقود الرعيّة في ذلك الظرف العصيب. أمّا هذا البطريرك فكان: يوحنّا مارون، البطريرك الأوّل على كرسيّ إنطاكية وسائر المشرق[٢].

---

١ - راجع: BRÉHIER L., *LA PAIX RELIGIEUSE*, V: 199 - 200.

٢ - راجع الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

إعتمدت الخلافة الأمويّة في تقسيمها الإداريّ النظام البيزنطيّ في المناطق التي انتزعتها من البيزنطيّين، والنظام الفارسيّ في المناطق الشرقيّة. وكان أهمّ هذه المناطق تسع: ١ ـ سورية ، فلسطين. ٢ ـ الكوفة وسائر العراق. ٣ ـ البصرة، مضمومة إليها: فارس وسجستان[١] وخوزستان[٢] والبحرين وعُمان، وربّما نُجُد واليمامة أيضًا. ٤ ـ أرمينية. ٥ ـ الحجاز. ٦ ـ كرمان[٣]، ملحقة بمنطقة الحدود الهنديّة. ٧ ـ مصر. ٨ ـ أفريقية. ٩ ـ اليمن وسائر القسم الجنوبيّ من الجزيرة.

وقد وُزّعت هذه المناطق التسع إلى خمس ولايات هي: ولاية العراق، وقد اشتملت على الجانب الأعظم من فارس وشرقيّ الجزيرة العربيّة، وقاعدتها مدينة الكوفة؛ وولاية الحجاز، وقد ضمّت اليمن والإقليم الأوسط من الجزيرة العربيّة؛ وولاية الجزيرة، وهي القسم الشماليّ من أرض ما بين النهرين، وقد أُلحقت بهما أرمينية وأذربيجان وأقسام شرقيّ آسية الصغرى؛ وولاية مصر، مع منطقتَي الصعيد والدلتا؛ وأخيرًا أفريقية (الشماليّة) وغربيّ مصر ثمّ الأندلس وجزر المتوسّط وقاعدتها مدينة القيروان[٤].

---

١ ـ سِجِستان: منطقة في وسط آسية تتقاسمها اليوم إيران وأفغانستان، قاعدتها نصرأباد، فيها نشأ رستم بطل إيران الأسطوري.

٢ ـ خوزستان KHOZISTAN: إقليم في غرب إيران يتّصل بالخليج، دعي قديمًا سوزيان وأطلق عليه حديثًا اسم عربستان لتغلّب العنصر العربي على سكّانه، كان فيه أسقف وكنائس للمسيحيّين، قاعدته الأهواز، من مدنه: عبادان وتستر وخرّم شهر.

٣ ـ كرمان: إقليم قديم في إيران يقع جنوب غرب صحراء لوط بين مكران وفارس، وهو اليوم إسم لمدينة في إيران تشكّل قاعدة الإقليم الثامن.

٤ ـ القيروان: مدينة تونسيّة أنشأها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠، ستصبح عاصمة الأغالبة في القرن التاسع، والفاطميّين إلى جانب المهديّة حتّى احتلال القاهرة ٩٧٣، إشتهرت بمسجدها، كانت دارًا للصناعة ومحطًّا للقوافل وسوقًا للتجارة، عدد سكّانها اليوم حوالى ٥٠ ألف نسمة، وهي مركز زراعيّ وسياحيّ.

كان لكلّ من تلك الولايات حكومة إقليميّة تتولّى ثلاث مهمّات هي: الإدارة السياسيّة، وجباية الضرائب، والإرشاد الدينيّ. فالوالي أو الأمير كان يتولّى تعيين "العمّال" على المناطق، ويتحمّل مسؤوليّة أعمالهم. أمّا المشرف على جباية الموارد فكان يُدعى صاحب الخراج، وكانت صلته بالخليفة رأسا، وكان مورد الدولة الرئيسيّ الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة. وكانت النفقات الإقليميّة تسدّد من الموارد المحليّة، ولا يرسل إلى خزانة الخليفة إلاّ الوفر الباقي على صورة رصيد. أمّا القضاة فكانوا يعيَّنون في الأقاليم من قِبَل الولاة، وأكثر هؤلاء القضاة في العهد الأمويّ كانوا يُختارون مبدئيّا من بين العلماء المتفقّهين بالقرآن والحديث. وكانوا يتولّون القضاء في أمور الرعايا المسلمين ليس إلاّ، أمّا غير المسلمين فقد أُتيح لهم استقلال داخليّ، كانوا يخضعون بموجبه لرؤسائهم لا سيّما الروحيّين في ما يتّصل بالأحوال الشخصيّة، نظير مسائل الزواج والطلاق والإرث. وكان هؤلاء الموظّفون القضائيّون يديرون أوقاف الأيتام والمعتوهين، إلى جانب النظر في قضايا الناس[1].

على الصعيد الاجتماعيّ كان سكّان الأمبراطوريّة عموما موزّعين على أربع طبقات: ١ ـ طبقة الحاكمين؛ ٢ ـ طبقة الموالي؛ ٣ ـ أهل الذمّة؛ ٤ ـ طبقة الرقيق.

أمّا طبقة الحاكمين وجماعة الأشراف فكانت من الفاتحين العرب الذين بقوا طوال العهد الأمويّ يؤلّفون طبقة اجتماعيّة في الوراثة. وكان هؤلاء يتجمّعون على الغالب في المدن. ومنهم كان الحكّام والولاة وأصحاب المراكز القياديّة في الجيش. ومع نهاية العهد الأمويّ، أي في أقلّ من مئة سنة بقليل، اتّسمت المدن الرئيسيّة بطابع المدن الإسلاميّة. بينما حافظت الأماكن الأخرى، وخاصّة الجبليّة منها كجبال لبنان، على مظاهرها الإقليميّة، وبقيت أكثريّة السكّان الساحقة على دينها المسيحيّ.

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٧٨ ـ ٨٨.

ويقدّر الباحثون أنّ عدد المسلمين في منطقة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط عصرذاك "لا يحتمل أن يكون قد زاد على مئتي ألف نسمة من أصل مجموع السكّان الذين كانوا يقدَّرون بثلاثة ملايين ونصف[1]. بينما كان عدد السكّان في المنطقة نفسها قد بلغ حوالى الستّة ملايين نسمة في العهد اليونانيّ[2] أي في القرن الميلاديّ الأوّل، وسبعة ملايين في القرن الميلاديّ الثاني[3].

أمّا طبقة الموالي، فكانت من المسلمين الأعاجم الذين أُجبروا، بشكل أو بآخر، على اعتناق الإسلام، وبذلك أصبحوا يتمتّعون بكامل حقوق الرعويّة الإسلاميّة. وإذ كان على هؤلاء أن ينضمّوا إلى بعض القبائل العربيّة عن طريق موالاتهم لها، لُقّبوا بالموالي: أي بالموالين لتلك القبائل، فاعتُبروا طبقة اجتماعيّة دُنيا في المجتمع الإسلاميّ. وهذا ما جعلهم يحقدون على ذلك الواقع وينضمّون إلى أولى الحركات الثوريّة في الإسلام، ملتحقين بالشيعة في العراق وبالخوارج في بلاد فارس.

أمّا الطبقة الثالثة، طبقة أهل الذمّة، فكان قوامها النصارى واليهود والصابئة[4]. ذلك أنّ الإسلام اعتبر هذه الأديان منزّلة، فأعطى الأمان لمعتنقيها وصانهم بالعهود والمواثيق. ولكن كان عليهم أداء ضريبة الخراج والجزية، وأن يبتعدوا في سكناهم عن

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٩٦.

٢ - راجع: BELOCH JULIUS, *DIE BEVOLKERUNG DER GRIECHISROMISHENWELT* (LEIPZIG,1886) P. 42.

٣ - LAMMENS HENRY, *LA SYRIE, PRÉCIS HISTORIQUE*, VOL. I (BEIRUT,1921) P. 11; BELOCH. OP. CIT., P. 245.

٤ - هناك إشكال حول جماعة الصابئة: فهم أصلاً أتباع نحلة تؤلّه الكواكب. كان مقرّهم في حرّان ما بين النهرين وقد ورد شرح عنهم في حاشية سابقة. ولكنّ الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن ومُنحوا امتياز أهل الذمّة على اعتبار أنّهم موحّدون (راجع: سورة البقرة ٥٩، المائدة: ٧٣، الحج: ١٧) فهم المنديون المعروفون بنصارى القدّيس يوحنّا، ولا يزال قسم منهم يسكنون إلى الآن الأغوار المحاذية لمصبّ الفرات.

الجزيرة العربيّة، حيث، باستثناء جماعة قليلة من يهود اليمن، لم يُسمح بوجود غير المسلمين عملاً بحديث منسوب إلى النبيّ. ولم يكن مسموحا لأهل الذمّة بأن يقتنوا أو يحملوا سلاحًا. وهكذا لم يكن المسيحيّون سوى في منزلة اجتماعيّة وسياسيّة ثانويّة. وقد بقي مرجعهم في الأمور المدنيّة والقضائيّة رؤساؤهم الروحيون، إلاّ في القضايا التي تمسّ المسلمين. غير أنّ الإسلام الذي عامل غير العرب من أهل الذمّة بهذه المصطلحات، كان متشدّدًا ضدّ المسيحيّين العرب[1] الذين غالبا ما طُبّق عليهم: الإسلام أو السيف، بينما كان للآخرين ثلاثة خيارات: الإسلام أو السيف أو الجزية.

وبالرغم من أنّ الإسلام يحرّم الخمرة والميسر، فقد استمرّ المسيحيّون، كما اليهود، في مزاولة الأعمال التي اعتادوا كسب عيشهم من خلالها، وبقيت في العهد الأمويّ حانات الخمرة وبيوت المقامرة مزدهرة، وكانت الخمور تصدّر من لبنان إلى أقاصي الجنوب.

كانت طبقة الرقيق الطبقة الأدنى في العهد الأمويّ. واستمرّت تجارة الرقيق نشيطة في العالم الإسلاميّ. وكانت أسواق الرقيق تستورد الزنوج من أفريقية الشماليّة والوسطى، والرقيق الأصفر من فرغانة[2] وتركستان الصينيّة[3]، والرقيق الأبيض من الشرق الأدنى وأوروبّا. وإضافة إلى الشراء كان اقتناء العبيد يحصل عن طريق الاختطاف أو الغزو أو الأسر في الحروب. والشرع الإسلاميّ يعتبر أولاد الأمة من العبد، أو من أيّ رجل غير سيّدها، أو من سيّدها إنْ هو لم يُرد إلحاقها بنسبه، عبيدا. وبذلك كان للرقيق في المجتمع الإسلاميّ طبقة لها نظام خاصّ بها.

---

١ ـ راجع: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

٢ ـ فرغانة: واد على نهر سردريا في أزبكستان وتدجيكستان وقرغيز. فيها مدينة تحمل اسمها، فتحها العرب بقيادة قتيبة بن مسلم ٧١٢ وأرسى السمانيّون دعائم الإسلام فيها ٨٤١، خدم الفرغانيّون في حرس البلاط العبّاسي في عهد المعتصم.

٣ ـ يؤلّف القسم الصيني من تركستان مقاطعة سين كيانغ SIN KIANG في غرب الصين، عاصمته اليوم أور ومتشي.

الدِّينُ والفِكرُ واللاَّهُوت

لم يتمكّن الفتح العربيّ الإسلاميّ لشرقيّ البحر الأبيض المتوسّط من إطفاء جذوة الفكر الدينيّ المسيحيّ في هذه المنطقة، التي استمرّت طوال العهد الأمويّ (٦٦١ ـ ٧٥٠) تنجب عظماء المسيحيّة. من بين هؤلاء البابا يوحنّا الخامس (٦٨٥ ـ ٦٨٦)، والبابا سرجيوس الأوّل (٦٨٧ ـ ٧٠١)، والبابا سيسينيوس (٧٠٨)، والبابا قسطنطينوس الأوّل (٧٠٨ ـ ٧١٥)، والبابا غريغوريوس الثالث (٧٣١ ـ ٧٤١)[١]. وقد ارتفع اثنان من هؤلاء إلى مصافّ القدّيسين هما: سرجيوس وغريغوريوس. إضافة إلى البطريرك يوحنّا مارون، الذي أصبح هو الآخر قدّيسًا.

أمّا أشهر أعلام الفكر المسيحيّ الذين أنجبهم الشرق بخلال العهد الأمويّ، فكان يوحنّا الدمشقيّ الملقّب بدفّاق الذهب (حوالى ٦٧٥ ـ ٧٤٩). وهو من آباء الكنيسة ومعلّميها الذين ارتفعوا إلى مصافّ القدّيسين. وقد اشتهر بمقاومته لبدعة محطّمي الصور أو الإيقونوكلاست، وألّف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والألحان الدينيّة، ومهّد بمؤلّفاته نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبّا. تُرجم بعض مؤلّفاته إلى العربيّة من كتابه "منهل المعرفة". ذلك أنّ "دفّاق الذهب" كان يؤلّف باللغة اليونانيّة، مع أنّه من أهل البلاد. "وقد تكلّم في حياته اليوميّة الآراميّة دون شك، وكان

---

١ ـ راجع: MANN K. HORACE, VOL. I (ST LOUIS,1914) PT., 2, PP. 64 - 67, 77 -104, 124 - 140, 203 - 324.

إلى ذلك يُحسن العربيّة. وقد كانت المناقشات التي نشبت بينه وبين علماء المسلمين، حول حريّة الإرادة وعقيدة القضاء والقدر، البادرة التي استهلّت عهد الحركة العقلانيّة في الإسلام. وكان يعلّم أنّ اللّه خلق العالم وتركه يجري بقوّة استمراره. وكان يوحنّا في صباه يحضر مجالس الشراب مع الأخطل ويزيد بن معاوية. وقد شغل، في ما بعد، منصبًا رفيعًا في الدولة الأمويّة كان لوالده من قبله[١]، على أنّه لم يلبث أن اعتزل هذا العمل في أوائل خلافة هشام حوالى ٧٢٤، ولجأ إلى دير القدّيس سابا في الجنوب الشرقيّ من مدينة القدس، يعيش فيه حياة الزاهدين المنقطعين إلى العبادة[٢].

إهتمّ الدمشقيّ بآراء مشاهير المؤلّفين الكنسيّين الذين سبقوه، فلخّصها في كتاب جعل له عنوانا: ينبوع الحكمة. وقد اعتبر الباحثون أنّ هذا الكتاب الذي نُسّقت فيه آراء آباء الكنيسة، هو أوّل خلاصة لاهوتيّة وصلت إليهم، "وقد اعتمده بطرس اللومبارديّ وتوما الأكويني، وغدا المرجع المعتمد لمشاهير علماء الدين ممّن جاء بعدهما... ومن أطرف ما كتب محاورتان ساقهما بين مسيحيّ ومسلم، شدّد فيهما على ألوهيّة المسيح وحريّة الإرادة الإنسانيّة... ولعلّ مادّته مستوحاة من المناظرات التي كانت تجري أمام الخليفة، ويشترك فيها هو بالذات، ممّا يشهد على أنّه كان يعرف القرآن والحديث معرفة المسلمين لهما"[٣].

يُعتبر يوحنّا الدمشقيّ، دفّاق الذهب، من أبرز مفاخر الكنيسة الشرقيّة في ظلّ الخلافة، وهو آخر آباء تلك الكنيسة. ومن أبرز ما اشتهر به، إضافة إلى مؤلّفاته

---

١ - والد يوحنّا، هو سرجيوس ابن المنصور، الذي شغل منصبا هامًا في عهد معاوية وابنه يزيد - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ٦٦ - ٦٨.

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١١٥ - ١١٦.

٣ - المرجع السابق، ص ١١٦.

اللاهوتيّة وخطبه الدينيّة ومدافعاته ومجادلاته العقائديّة وتنظيمه للفنّ البيزنطيّ وللموسيقى البيزنطيّة، موقفه في الدفاع عن استخدام الصور والأيقونات كوسيلة للعبادة، مع التشديد على "أنّ المعبود ليس هو مادّة الصورة، بل ما تمثّله"[1]. وقبل وفاته بوقت قصير، وبينما كانت "حرب الأيقونات" على أشدّها، قام بجولة واسعة في سورية داعيًا إلى مقاومة مُبطِلي الأيقونات، الذين كان يتزعّمهم الأمبراطور نفسه. وبلغت الجرأة بهذا القدّيس الشجاع أن قصد القسطنطينيّة مناهضًا لرأي الأمبراطور ليو الأيصوريّ الذي أحلّ غضبه عليه. وقد ترك لنا هذا القدّيس المآثر الخالدة في الحكمة والجرأة والقداسة والنضال[2].

حَـــربُ الأيقُونَات

مسألة الأيقونات التي كان للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ ذلك الموقف الشجاع فيها، شكّلت موضوعًا لخلاف آخر نشأ في الكنيسة منذ أمد بعيد، إلاّ أنّه تطوّر بشكل خطير في العام ٧٢٦ إذ أشعل نزاعًا حادًّا استمرّ في حالة مدّ وجزر حوالى مئة وعشرين عامًا. وجوهر هذه المسألة اعتراض بعض الفرق المسيحيّة على إقامة الصور وتكريمها في الدين المسيحيّ.

---

١ - NICENE, POST - NICENE FATHERS, SER. 2, VOL. IX. P. 88

٢ - للتوسّع في معرفة سيرة يوحنّا الدمشقيّ دفّاق الذهب: رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ٦٣ وما يليها؛ الأب يوسف نصر اللّه، سيرة يوحنّا الدمشقيّ المنشورة بمناسبة الذكرى المئويّة الثانية عشرة لوفاة القدّيس، ص ٣٨ - ١٣٩؛ الراهب ميخائيل، سيرة يوحنّا الدمشقي، طبعة الخوري قسطنطين الباشا، الأب خريسوستموس، الدمشقيّ اللاهوتيّ، ص ٩٤.

أصل كلمة "أيقونة": يونانيّ: EIKÔN ومعناها: صورة. وقد دخل اللفظ في العهد البيزنطيّ إلى سائر اللغات التي لها علاقة بالمسيحيّة مصطلحا للدلالة على صور القدّيسين. ويرى مؤرّخو الكنيسة أنّ بداية استعمال الصور في تكريم القدّيسين كانت على أيدي المسيحيّين الأوائل الذين هم من غير اليهود، وقد كرّم هؤلاء السيّد المسيح والقدّيسَين بطرس وبولس برسم الصور لهم وتعليقها في الكنائس. إلاّ أنّ المسيحيّين الذين هم من أصل يهوديّ، قد اعترضوا على هذا العمل، معتبرين أنّ منشأه وثنيّ[١]. وبعد طيّ هذه المسألة لمدّة طويلة، عادت لتتفاعل في إسبانيا حيث حرّم مجمع محلّي إقامة الصور في الكنائس[٢]. وفي قبرص، قام أحد كبار آباء الكنيسة الشرقيّة، وهو أسقف سلامينا أبيفانيُس (حوالى ٣١٥ ــ ٤٠٣) بمعارضة استعمال صور القدّيسين بشدّة[٣].

ولم تتوقّف هذه الظاهرة طوال القرن السادس، على ما يبدو، من خلال المدوّنات التي تفيدنا عن أحداث متفرّقة في هذا المجال، مفادها أنّ بعض الأساقفة، إنْ في الشرق أم في الغرب، كان يعارض "التعبّد لما هو من صنع البشر". بيد أنّ تلك الأحداث ظلّت محدودة حتّى مجيء الإسلام، وهو الدين الذي تنكّر للفنّ التصويريّ، وقد ذهب معظم الفقهاء إلى أنّ رسم الكائنات الحيّة من خصائص اللّه وحده. حتّى أنّ محمّدًا قال بأنّ "أشدّ الناس عذابا عند اللّه يوم القيامة المصوّرون"[٤]. ويبدو أنّ ظاهرة الاعتراض على استعمال الأيقونات كانت قد تفشّت في منتصف العهد الأمويّ، وقد كان للمعتقد الإسلاميّ أثر في تفشّيها دون شك. وقد يكون هذا التفشّي سببا رئيسيًّا في

---

١ - EUSÈBE, VII: 18

٢ - هو مجمع ELVIRA، راجع: MANSI, *CONSTITUM LIBERITANUM*, XXXVI.

٣ - BAYNES N. H., *IDOLATRY AND THE EARLY CHURCH*, BYZ. STUDIES, PP. 127 - 128

٤ - البخاري، الجامع الصحيح، نشر بولاق (١٢٩٦) ٧: ٦١.

جعل الأمبراطور البيزنطيّ لاون الأيصوريّ (أمبراطور ٧١٦ ـ ٧٤٠) الذي كان يُحسن العربيّة، يشجّع رافضي الأيقونات على تحطيمها[١]، مُشعلاً بذلك ما يشبه الحرب في الكنيسة.

في الوقت نفسه، كان الخليفة الأمويّ يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) يتابع سياسة سلفه الأسبق عبد الملك بن مروان (٦٤٦ ـ ٧٠٥) فيأمر بتحطيم الأيقونات والصور والصلبان في المعابد والبيوت وحيث وُجدت[٢].

إنطلقت شرارة حرب الأيقونات بين المسيحيّين من NOCOLIA و SYNNADA التابعتَين للقسطنطينيّة. فبينما قال أسقف الأولى بوجوب التخلّص من الأيقونات والصور، وهو الأمر الذي كان يجري في البلدان الواقعة تحت السيطرة الإسلاميّة بأمر من الخليفة، قام متروبوليت SYNNADA معترضًا. وتطوّر الأمر إلى أن وقف فريق مع الأسقف ومبدأ تحطيم الأيقونات، وكان من جملة هذا الفريق الأمبراطور نفسه، ووقف فريق آخر مع المتروبوليت[٣]. وانتقل الخلاف إلى العامّة عندما أمر الأمبراطور سنة ٧٢٧ بإنزال أيقونة السيّد المسيح من مكانها فوق أحد مداخل القصر، فاضطرب سكّان العاصمة، وهجم بعضهم محاولا منع إنزال الأيقونة. وإذ صدّهم الجند، تعارك الفريقان، ما أسفر عن سقوط عدد من الضحايا وإلقاء القبض على مَن طالتهم يد السلطة من المتظاهرين، وقد جُلد وشُوّه بعضهم، وتمّ نفي بعضهم الآخر[٤].

---

١ - DIEHL C., *LEO III AND THE ISAURIAN DYNASTY*, CAM. MED. HIST. IV: 1 - 26.

٢ ـ راجع: المقريزي، الخطط، ٢: ٤٩٢ ـ ٤٩٣؛ أبو الفرج الملطي، مجموعة المشرق (١٩٤٩) ص ١٤٨٤، THEOPHANES, *CHRON.* A. 6125; MANSI, XII, COL. 197

٣ - OSTROGORSKY G., *LES DÈBUTS DE LA QUERELLE DES IMAGES*, P. 238.

٤ - THEOPHANES, *CHRON.* A. 6218 - 6221.

كذلك تصدّى لقرار الأمبراطور أساتذة جامعة القسطنطينيّة التي دفعت ثمن غضبه غاليًا إذ أمر، بحسب بعضهم، بإقفالها، أو بإحراقها، كما يذكر بعض المؤرّخين[1].

وطال الانشقاق الجيش البيزنطيّ نفسه، الذي سقط منه عدد من القادة، إذ أمر الأمبراطور بذبحهم بسبب قيادتهم فرقا حاولت الانقضاض عليه لوقفه عن تدمير الأيقونات. وعبثا حاول لاون بالتهديد والوعيد الحصول على تأييد أيّ من بابا روما غريغوريُس الثاني، أو بطريرك القسطنطينيّة جرمانُس، اللذين أنذرا المؤمنين بعدم الانصياع للأمبراطور، حتّى غدا الصراع واضحا بين السلطتين الروحيّة والزمنيّة، إذ كان الأمبراطور يعتبر نفسه رئيسا للشعب، وللكنيسة، ولكنّ موقف الكنيسة الجامع، قد خيّبه، ما جعله يصعّد حربه، داعيًا المجلس الأعلى للدولة المؤلّف من مجلس الشيوخ وكبار رجال الدولة والكنيسة، إلى اجتماع رسميّ في قصر دفنة في بداية العام ٧٣٠، محاولاً انتزاع موافقة الأعضاء على بيان أعدّه، يرسم تحريم الأيقونات. وإذ رفض البطريرك جرمانُس توقيع البيان، سارع الأمبراطور إلى تعيين أنسطاسيُس السنكلُس ليحلّ محلّه، وكان من الطبيعيّ أن ينفّذ هذا الأخير رغبة الأمبراطور، من خلال دعوة المجمع القسطنطينيّ إلى الانعقاد وتحريم الأيقونات. وهذا ما جعل روما تحتجّ، ممّا تسبّب في ظهور شرخ بين الكنيستين[2].

سقط بنتيجة تشدّد الأمبراطور والبطريرك عدد كبير من ضحايا اضطهادهما لرافضي تحريم الأيقونات بين شهداء ومشوّهين ومعذّبين ومنفيّين. حتّى أنّ سكّان القسطنطينيّة نفسها قد لجأوا إلى الفرار منها جماعات تلو الجماعات، مفضّلين التهجير على التنكّر لمقدّسات في عرفهم.

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ - DUCHESNE, *LIBER PANTIFICALIS*, I: 408 - 409.

في النهاية، كان لموقف الأمبراطور من الأيقونات مردودًا عكسيًّا من الخلافة الأمويّة. ففي الوقت الذي كان الأمبراطور يقف موقف المسلمين من الصور، وكان من المفروض أن تدعمه الخلافة في إجراءاته، شاءت الأقدار أن يتسنّم الخلافة في هذه الحقبة هشام بن عبد الملك (٦٩٠ ـ ٧٤٣) الذي ارتاح لمعارضة كنائس أنطاكية وأورشليم والإسكندريّة للأمبراطور البيزنطيّ، فرخّص لها بإقامة البطاركة من جديد[١].

إلاّ أنّ وضع الكنيسة في نهاية العهد الأمويّ لم يكن على الشكل الذي أراده هشام. فإنّ الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) غضب على قادة الكنيسة الذين "تخاصموا وتغالبوا في المناظرة بينهم وبين علماء المسلمين" فأمر بالاقتصاص من البطريرك الأنطاكيّ إسطفانُس الذي انتُخب في عهد هشام، ومن متروبوليت دمشق بطرس، ولم ينجُ من الآباء الكبار سوى المونوفيزيّين، وأصحاب الرأي المستقيم البعيدين عن يد الخليفة.

وهكذا، فعندما جاءت الثورة العبّاسيّة على الأمويّين، لم يكن وضع الكنيسة في المنطقة مرتاحًا. وكان على أنطاكية بطريرك اسمه ثيوفيلكتُس بن قنبرة الصائغ الرهاويّ، وهو "كاهن أرثذوكسيّ أوعز مروان الثاني بانتخابه"[٢]. وانتهى العهد الأمويّ بثورة دمويّة، بينما كانت حرب الأيقونات لا تزال تتفاعل في الشطر الآخر من الشرق في عهد قسطنطين الزبليّ (٧٤٠ ـ ٧٧٥) الذي خلف لاون.

---

١ ـ راجع: THEOPHANES, *CHRON*, A. 6234.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ٩١.

الفَصْلُ الرَّابِع

المَسِيحِيَّةُ المَشْرِقِيَّةُ والعَهد العَبَّاسيّ

فِي بِدَايَةِ العَهدِ العَبَّاسيّ

فِي القُسطَنطِينِيَّة صِرَاعَاتٌ وَانشِقَاقَاتٌ

مَدٌّ وجَزْرٌ بَيْنَ المَسِيحِيَّة والإسْلاَم

فِي بِدَايَةِ العَهدِ العبَّاسيّ

قبل بداية الثورة العبّاسيّة من خراسان في بداية صيف ٧٤٧، كانت المسيحيّة في الشرق قد تقسّمت إلى طوائف. فإضافة إلى الكنيسة التي انطبعت بتأثير اللاهوت اليونانيّ المنبثق من أنطاكية والقسطنطينيّة، ووافقت على مقرّرات مجمع خلقيدونية الكنسيّ سنة ٤٥١، وهي الكنيسة البيزنطيّة التي عُرف أتباعها في ما بعد بالملكانيّين، كانت الكنيسة السريانيّة قد أصبحت تؤلّف بضع طوائف، تحدّرت من فرعَين أساسيَّين هما: الكنيسة الشرقيّة السريانيّة التي جمعت بين لاهوت المسيح وناسوته، واستنكرت تأليه السيّدة العذراء، والتي نُسبت في وقت متأخّر عن تاريخ نشوئها إلى الراهب الصقلّي نسطوريوس (حوالى ٣٨٠ ـ ٤٥١) فعُرفت بالنسطوريّة، أو كنيسة الشرق، والكنيسة السريانيّة الغربيّة التي قالت بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهي الطبيعة الإلهيّة دون الطبيعة البشريّة، ورفعت العذراء إلى مراتب القدّيسين. وهي التي لقّبها خصومها اليونان باليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها في أواسط القرن السادس[1]. وكان هذا المذهب قد انتشر من سورية إلى أرمينية شمالاً حيث نشأت الكنيسة الأرمنيّة[2]، ومصر جنوبًا حيث نشأت

---

١ ـ راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ راجع الجزء الخامس عشر من هذه الموسوعة

الكنيسة القبطيّة[1]، بينما راح أتباعه في سورية وبلاد ما بين النهرين بالتناقص منذ أن أصبح الإسلام القوّة المسيطرة في هذه البلاد.

إذا كان الفتح العربيّ الإسلاميّ الأوّل لهذه المنطقة من العالم، فتْح القوّة المسلّحة، فإنّ العهد العبّاسيّ، سوف يحقّق للإسلام، فتح الإسلام من حيث هو دين وعقيدة[2].

كان لانتصار العبّاسيّين على الأمويّين نتيجة مصيريّة، أدّت إلى تحوّلين أساسيّين: الأوّل: إنتقال عاصمة الخلافة من دمشق سورية إلى بغداد العراق، والثاني: تحوّل الخلافة الإسلاميّة العربيّة إلى أمبراطوريّة من المسلمين المستجدّين، لم يكن العرب فيها سوى عنصر من عناصر عدّة، أبرزها الفارسيّ. ومع هذه الأمبراطوريّة، راح مجد الأرستقراطيّة العربيّة يتراجع ليستمرّ الإسلام في سيره المظفّر بزيّ جديد.

بعد أن ثبّت العبّاسيّون أنفسهم على كرسيّ الخلافة، قام الخليفة العبّاسيّ الثاني: المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) الذي عقب الخليفة العبّاسيّ الأوّل، أخاه السفّاح (٧٥٠ ـ ٧٥٤)، قام باختيار موقع قرية مسيحيّة في العراق، ذات اسم فارسيّ: بغداد، أي عطيّة اللّه، ليبني عليها عاصمته الجديدة، على الضفّة الغربيّة السفلى من نهر دجلة، وليطلق عليها رسميًّا اسم دار السلام، بعد أن أقام حولها سورا خارجيّا من الطوب، ذا جدار مزدوج، وسورا آخر داخليّا بلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين مترا، وجعل بين السورين خندقا عميقا. وقد غدت هذه المدينة التي قامت مكان قرية مسيحيّة، رمزا منقطع النظير لمجد الإسلام. هذا التحوّل لم يقتصر على تلك القرية المسيحيّة في هذه المنطقة من العالم وفي تلك الحقبة من التاريخ، ولكنّه كاد يكون شاملا.

---

١ ـ راجع الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٧٠.

فرض العبّاسيّون، في بداية عهدهم، التدابير الصارمة علـى المسيحيّين. وإذا كـان هؤلاء قد تحمّلوا تلك التدابير، فلم يكن ذلك إلاّ بحكم أنّهم مغلوب علـى أمرهم. ولقد حاول بعضهم التمرّد حيث أمكن، مثلما حصل في لبنان سنة ٧٥٩، عندما شبّت أولـى الثورات المسيحيّة ضدّ الحكم الإسلاميّ فـي قريـة صغيرة من أعـالي لبنـان، إسمها المنيطرة، القريبة من أفقا، الواقعة بين جبيل ساحلاً وبعلبكّ شرقًا.

فقد ثـار مسيحيّو هذه القريـة ضدّ تعسّف عـامل العبّاسيّين وجوره في فـرض الضرائب عليهم، واستولوا على عدّة قرى في البقاع وتقدّموا نحو بعلبكّ التي كان مقرًّا لعامل العبّاسيّين. وكان زعيم هذه الثورة شابًّا جبليًّا عملاقًـا شديدًا يُلقّب بـالملك. وقد نصب له جنود العبّاسيّين كمينًا وهو فـي طريقـه إلـى بعلبك فـانقضّت عليهم الفرسـان ومزّقت شملهم. وكانت ردّة الفعل عند العبّاسيّين عنيفة، فإنّ العامل العبّاسيّ، صالح بن عليّ، وهو أخو عبدالله القائد العامّ للجيوش العبّاسيّة، هـاجم القـرى الثـائرة في منطقـة المنيطرة وشتّت سكّانها في طول البـلاد وعرضهـا، ولكنّـه لـم يتعـرّض لدينهم بسـوء. وكـان لهذا العمـل العنيـف أثـر سـيّء فـي نفس الإمـام الأوزاعـي[١]، الفقيـه المحـدّث المشهور[٢].

إنّ المدقّق فـي أخبـار الخلفـاء العبّاسـيّين والعهـد العبّاسـيّ عمومًـا، يسـتخلص من تناقض المدوّنات عن معاملة العبّاسيّين للمسيحيّين، أنّ العبّاسـيّين فـي بدايـة ملكهم، قـد حاولوا استمالة الفعاليّات المسيحيّة إليهم، في غمرة الغليان الـذي عـمّ المنطقـة بكاملهـا، من فلسطين إلى الفرات، حيث شـاع الاضطـراب بسـبب انتقـال السـلطة مـن الأمويّيـن

---

١ - عبد الرحمن الأوزاعي (٧٠٧ - ٧٧٤) من أئمّة الفقهاء في الإسلام، وُلد في بعلبك، ترك مذهبًا معروفًا به، توفّي فـي بيروت ودُفن في قبلة المسجد المعروف باسمه جنوبيّ المدينة، له كتابا "السنن" و "المسائل".

٢ - حتي د. فيليب، لبنان في التاريخ، طبعة فرنكلين (بيروت - نيويورك، ١٩٥٩) ص ٣٢٧.

ودمشق، إلى العبّاسيّين والعراق. على أنّ تقريب بعض الشخصيّات المسيحيّة من بلاط الخلفاء، لم يكن ليعوّض عن التشدّد الذي مارسه العبّاسيّون. ولا يمكن إغفال الفارق في هذا الشأن بين خليفة وآخر، كما يلاحظ من بعض الوقائع، خاصّة وأنّ بعض هؤلاء الخلفاء كان ليّنًا منفتحًا متسامحا، وبعضهم الآخر كان قاسيا متشدّدًا.

ففي أوائل العهد العبّاسيّ "قام المهديّ (٧٧٥ ـ ٧٨٥) باتّخاذ إجراءات متشدّدة بحقّ النصارى العرب، وبخاصّة بحقّ الخلقيدونيّين في حلب"[١]. وقد منع هذا الخليفة المسيحيّين من اقتناء العبيد. وتتحدّث المراجع التاريخيّة عن أنّ التنّوخيّين العرب الذين استقبلوا الخليفة عند زيارته لحلب سنة ٧٧٩، ممتطين خيولا مطهّمة مزيّنة بأبهى الحلل، لم يلبثوا أن اتّبعوا الدين الإسلاميّ. وقد أسلم منهم في خلال تلك الزيارة زهاء خمسة آلاف رجل"[٢].

ولم يكن هارون الرشيد أقلّ تشدّدًا من المهديّ في تطبيق الشريعة الإسلاميّة. هذا الخليفة العبّاسيّ الخامس (٧٨٦ ـ ٨٠٩) الذي جاء إلى العرش بعد اغتيال أخيه الهادي، وحارب البيزنطيّين وهو لا يزال حاكمًا على المقاطعات الغربيّة حتّى بلغ أبواب القسطنطينيّة، وعاد وحمل مرّات عليهم بعد خلافته، قد أعاد مفعول بعض الإجراءات التي كانت قد وضعت من قبل ضدّ النصارى واليهود. "وفي سنة ٨٠٧ استأنف تطبيق إجراءات المهديّ، وسنَّ كذلك قانونًا أوجب به على جميع الذمّيّين أن يلبسوا المعيّن"[٣].

---

١ ـ الملطي أبو الفرج (المشرق،١٩٤٩) ص ٤٩٢.

٢ ـ المرجع السابق، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ص ١٤١.

وكما فعل هارون الرشيد، قام الخليفة العبّاسيّ العاشر: المتوكّل (٨٢١ ـ ٨٦١) بإعادة تطبيق التدابير المتشدّدة، عن طريق إحياء الإجراءات السابقة التي أتبعها بتدابير جديدة، كانت أشدّ ما فُرض بحقّ الأقليّات على الإطلاق. وقد كان المتوكّل يهدف من خلال فرض تلك التدابير إلى دفع الناس إلى اعتناق الإسلام، وقد أفلح في ذلك إلى حدّ بعيد[١].

تلك التدابير التمييزيّة كانت تقسو وتلين، إلاّ أنّ تدبير دفع ضريبة الجزية الذي كان يشكّل أكبر حيف لحق بالذمّيين، كان ثابتًا.

هذه الضريبة "كانت مبدئيًّا، الثمن الذي يُدفع عن حقّ الإقامة وحريّة العبادة، وفي مقابل الأمان على الحياة وعلى المقتنيات. لذلك كان هذا العقد عرضة للإلغاء في حال الامتناع عن دفع الجزية، أو القيام بفتنة، أو اللجوء إلى التجسّس لحساب دولة غريبة، أو إيواء عدوّ من أعداء الدولة"[٢].

ومن الأمثلة الدالّة على ترجمة هذا الاعتبار، أنّ المهدي، كان قد "أنفذ جيوشًا إلى الروم، فأخرج إليه لاون، ملك الروم، بَطريقَين من الجنود، فكسروا عسكره وسلبوهم، فأغاظه ذلك، فهدم البيَع في سائر النواحي"[٣]. وهكذا انتقام يمكن أن يأتي بحجّة تجسُّس النصارى لحساب الروم. والأمثلة على هذا كثيرة.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٦٨ ـ ١٦٩، بالاستناد إلى: الطبري، ٣: ١٣٨٩ ـ ١٣٩٣؛ الجاحظ، البيان، ١: ٧٩، س ٢٨.

٢ ـ المرجع السابق، ص ١٦٩.

٣ ـ ماري بن سليمان، المجدل، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص ٧٤.

ومع مرور الزمن، أُضيفت إلى شروط الذمّة أسباب كثيرة لإلغاء العقد، منها: "الفجور بمسلمة حرّة، وصرف المسلم عن دينه. والتجديف على اللّه أو على رسوله أو كتابه. أمّا المسلم فلم يكن له أن يعتنق النصرانيّة أو اليهوديّة دون أن يعرّض نفسه للموت. وقد أجازوا إقصاء الذمّيّ غير المرغوب فيه إلى خارج البلاد الإسلاميّة. وكان أكثر المذاهب الفقهيّة يمتنع عن إنزال العقوبة القصوى بالمسلم إنْ هو قتل ذمّيّا. ولم يُمنع غير المسلم من أن يرفع أمره إلى محكمة إسلاميّة، إنْ هو أراد ذلك. أمّا إذا كان أحد المتقاضين مسلمًا فلا بدّ من رفع الشكاية إلى قاضٍ مسلم. ثمّ إنّ القضيّة إذا كانت بين ذمّيّين من مذهبَين مختلفَين: أحدهما نصرانيّ والآخر يهوديّ، فإنّ الشرع الإسلاميّ لا يتعرّض لها إلاّ في حال تعذّر الاتّفاق بين الفريقَين على اختيار المحكمة. ومن ذلك أنّ الزوج إذا اعتنق الإسلام، وكانت زوجته كتابيّة، فإنّ عقد الزواج يبقى قانونيًّا؛ أمّا إذا اعتنقت هي الإسلام، فينبغي عندها على الزوج أن يتبعها في ذلك، في غضون ثلاثة أشهر، تنقطع بينهما في أثنائها كلّ صلة زوجيّة، وإلاّ طلّقت منه. أمّا في ما يتعلّق بالإرث، فقد منعوا على الذمّيّ أن يرث من المسلم شيئًا"[1].

كان من الطبيعيّ أن يؤدّي هذا التشدّد إلى لجوء الكثيرين من وجهاء المسيحيّين إلى المهاجرة نحو آسية الصغرى وجزيرة قبرص وجبال لبنان، بينما أوى عدد كبير من الأسر المسيحيّة في سورية إلى حظيرة الإسلام تفاديًا للتدابير المذلّة والضرائب الفادحة، وحرصًا على الكرامة الاجتماعيّة والنفوذ السياسيّ. من هؤلاء، على سبيل المثال، التنوخيّون الذين عملوا بإشارة المهديّ العبّاسيّ واعتنقوا الإسلام، ودخلوا لبنان

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٦٩ ـ ١٧٠.

في مطلع القرن التاسع، وقد أقطعهم العبّاسيّون مناطق واسعة من الجبل، وأقاموهم حاجزًا دون الموارنة في شماليّ لبنان، وسدًّا في وجه الروم المقبلين من البحر. ومنذ ذلك التاريخ، بدأت السيطرة الإسلاميّة العدديّة تحقّق خطوات واسعة في سورية، التي كان سواد سكّانها قبلاً من المسيحيّين.

فِي القُسطَنطِينيَّة

صِرَاعَاتٌ وَانشِقَاقَاتٌ

في هذه الحقبة، بدأت اللغة العربيّة تحلّ محلّ اللغة السريانيّة في البلاد السوريّة، ومحلّ اللغة القبطيّة في مصر. ولم تُعرف أيّة مؤلّفات للمسيحيّين السوريّين باللغة العربيّة قبل نهاية القرن السابع. وأقدمُ مؤلَّف معروف من هذا النوع، مخطوط محفوظ في المتحف البريطانيّ ألّفه ثيودورُس أبو قرّة المتوفّي سنة ٨٢٠[١].

ولقد كان ثيودورُس هذا أسقفا ملكانيًّا في حرّان. وإذا كان الملكيّون قد بكّروا، نسبيًّا، في اعتماد العربيّة، فإنّ أكثر الكنائس السريانيّة الكبرى، ومنها المارونيّة واليعقوبيّة والنسطوريّة، قد حافظت على اللغة السريانيّة إلى ما بعد العبّاسيّين. وفي العراق بقي الكلدان على لغتهم[٢]. وكان للناطقين بالسريانيّة فضل عميم على اليقظة العربيّة ونهضة العرب الفكريّة، خاصّة في حقبة الخلافة العبّاسيّة، التي غدت مفخرة العصر الإسلاميّ القديم لناحية الفكر والحضارة. فقد كان السريان المسيحيّون،

١ - Abu Kurra Theodorus, *De Cultu Imaginum*, Ed., and Trans. Arendzen, (Bonn, 1897).

٢ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٧١؛ والجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

الوسطاء، بين الفكر اليونانيّ والعرب، وقد توسّلوا الترجمة للقيام بهذه الوساطة خير قيام. ذلك أنّهم كانوا قد عايشوا اليونان ألف سنة ونيّف، وامتزجت معارفهم بمعارف أولئك، وكذلك المدارس. فإنّ مدرسة أنطاكية كانت تستعمل اللغتَين اليونانيّة والسريانيّة، وكان السريان من أهل البلاد يُجيدون اليونانيّة إذا كانوا من أهل المدن، أي أنّهم كانوا مزدوجي اللغة. وكان علماؤهم قد نقلوا إلى السريانيّة أبرز مؤلّفات اليونان قبل الفتح العربيّ، وها هم في زمن العبّاسيّين يجهدون في ترجمة تلك المؤلّفات إلى العربيّة، بعدما كانوا قد نقلوها إلى الفارسيّة يوم كانت مدرسة الإسكندريّة ناشطة وكان الفرس يحتلّون مصر وجزءًا من الهلال الخصيب.

إشتهر في العهد العبّاسي العديد من العلماء السريان الشرقيّين والغربيّين في منطقة الشام ومحيطها، ذكرنا أبرزهم في مجال التعريف بالكنيسة السريانيّة. وممّن اشتهروا في مجال الترجمة من اليونانيّة إلى العربيّة يوحنّا بن البطريق المعروف بيوحنّا الترجمان، وهو عالم مسيحيّ ملكيّ وُلد نحو ٨١٥، انصرف إلى ترجمة المؤلّفات اليونانيّة إلى العربيّة، وأهمّ ما نقله إلى العربيّة: "كتاب السياسة في تدابير الرئاسة"، و"المقولات العشر" لأرسطو، وكتاب "الأربعة" لبطليمُس، وكتاب "طيماوُس" لأفلاطون[1]. كما اشتهر قسطا بن لوقا البعلبكّيّ (٨٢٠ ـ ٩١٢) الذي كان طبيبًا وفيلسوفًا مسيحيًّا ملكيًّا. نقل إلى العربيّة مؤلّفات اليونان واشتغل في صنع الآلات الفلكيّة. وقد خلّدته مؤلّفات عديدة منها: "المرايا المحرقة" و"الفلاحة اليونانيّة" و"رسالة في الفَرْق بين الروح والنفس". وقد تُرجمت مؤلّفاته إلى اللاتينيّة في القرون الوسطى. وكان قسطا "يرحل إلى بلاد الروم في طلب الكتب، ويعكف على الاشتغال بها في

١ ـ راجع: إبن خلّكان، وفيات الأعيان (القاهرة،١٢٩٩ هـ) ١: ١١٦؛ إبن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء (القاهرة،١٨٨٢) ١: ١٨٧ و٢٠٣؛ الفهرست، ص ٢٩٧.

بغداد. وقد أدركته الوفاة في أرمينية بعد أن خلّف ٦٩ مؤلّفا موضوعًا و١٧ كتابًا مترجمًا. وأُقيم له في مكان وفاته مدفن تذكاريّ"[1].

في هذا الوقت، كانت الانشقاقات في القسطنطينيّة تتسبّب في مزيد من التقهقر المسيحيّ في الشرق، إذ كان المونوفيزيّون في حالة صراع دائم مع الملكيّين. فالقسطنطينيّة كانت قد أضحت العاصمة المسيحيّة الشرقيّة التي انتقل إليها مركز الثقل المسيحيّ بتحوّلها إلى قاعدة للحكم البيزنطيّ، ولرئاسة الكنيسة في الشرق. فانتقلت إليها الصراعات وأصبحت مسرحًا لمزيد من التطاحن والشقاق داخل الكنيسة. وقد اختلط في هذا الصراع ما هو سياسيّ، بما هو كنسيّ، وأصبحت الكنيسة مسيّسة بشكل لم يسبق له مثيل، وأصبح الدين موضوع تحزُّب، دون سواه. وعندما لم يعد هنالك مجال للبدع بعد أن استنفد "المجتهدون" كلّ ما يمكن أن يُبتدع في المسيح، أوجدوا مسألة الأيقونات لتغذّي حربًا بدأت في العام ٧٢٦ لتستمرّ حتّى سنة ٨٤٣ وإن بتقطّع أحيانًا. وقد كان لهذه الحرب فعل إضرام نيران الأحقاد داخل المسيحيّة الشرقيّة التي كان أساس وجودها دعوة مناقضة تمامًا في جوهرها للتباغض، ألا وهي: المحبّة.

عندما كان الأمبراطور البيزنطيّ الأرمنيّ الأصل لاون الخامس (٨١٣ ـ ٨٢٠) يستجيب لطلب الخليفة العبّاسيّ المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) الذي تسنّم سدّة الخلافة في السنة نفسها التي تسنّم فيها لاون سدّة الأمبراطوريّة، والذي أرسل وفدا إلى لاون في طلب الكتب اليونانيّة لنقلها إلى العربيّة، كانت الأجواء داخل الأمبراطوريّة تنذر بالشؤم، رغم أنّ هذا الأمبراطور قد أقسم يمين الولاء للكنيسة وقطع وعدًا بأن يحافظ

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٧٧ بالاستناد إلى: الفهرست، ص ٢٩٥؛ القفطي، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ GABRIELI G., *RENDICONTI DELLA REALE ACCAEMIA DEI LINCEI*, SER. 5, VOL., XXI, (ROME, 1912) PP. 361 - 382.

على عقائدها ومصالحها، إلاّ أنّ اعتماده على جنود آسيويّين يكرهون الأيقونات، جعله يخرج عن وعوده وتعهّداته، ليحاول، من جديد، التدخّل بشكل سافر بشؤون الكنيسة، فارضًا نزع الأيقونات، مثيرًا بذلك النعرات الخطيرة التي سوف تتسبّب في جولة جديدة من النزاع. وعندما واجه الراهب ثيودورُس رئيس دير مار سابا في فلسطين الأمبراطور الذي دعا رجال الإكليروس إلى بلاطه للبحث في أمر الأيقونات، بقول صريح مفاده "أنّ البحث في الأمور الدينيّة منوط برجال الدين، وأنّ الواجب على الحاكم أن يطيع هؤلاء في أمور الدين لا أن يغتصب دورهم اغتصابًا، وأنّ للحاكم أن يُعنى بغير شؤون الدين"، كان جواب لاون أنّه "لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد"[1]. إلاّ أنّه لم يمضِ وقت طويل حتّى أمر بنفي الأساقفة والرهبان الذين رفضوا التوقّف عن تكريم الأيقونات وبحبسهم، وكان من بين هؤلاء المنفيّين ثيودورُس هذا الذي أصبح قدّيسًا، وزميله في الرهبانيّة والموقف والقداسة: ثيوفانس، إضافة إلى نيقيخورُس، بطريرك القسطنطينيّة القدّيس (٧٥٨ ـ ٨١٥) الذي خلعه لاون من البطريركيّة وعيّن مكانه علمانيًّا إسمه ثيودوتُس. هذا بعد أن عقد لاون الخامس مجمعًا محليًّا في ربيع سنة ٨١٥ في كنيسة الحكمة الإلهيّة في عاصمة حكمه، جعله يثبّت مقرّرات مجمع سنة ٧٥٤ المتعلّقة بتحريم الأيقونات[2].

أدّت سياسة لاون الخامس إلى تهيئة الأجواء لتجدّد حرب الأيقونات، وهكذا فعندما زال حكمه إثر الانقلاب الذي أنهى حياته مذبوحًا داخل كنيسته الخاصّة، على أيدي خصومه الذين توّجوا خلفًا له ميخائيل الثاني، سارع الأمبراطور الجديد إلى إيقاف

---

١ - *VITA THEODORE*, P.G., VOL. 99, COL. 181 - 183.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ١٢٩، بالاستناد إلى: SERRUYS D., LES ACTES DU CONCILE ICONOCLASTE DE L'AN 815, MEL. ARCH. HIST., ECOLE FR. DE ROME, (1903) PP. 345 - 351.

التناحر بموضوع الأيقونات، وأعاد المنفيّين، وأعلن أن ليس له أن يبتدع في الإيمان والعقيدة، ولا أن يجادل في التقاليد الموروثة ولا أن ينقضها[1].

إلاّ أنّ حكم ميخائيل الذي بدأ سنة ٨٢٠، لم يدم سوى تسع سنوات، خلفه بعدها ثيوفيلُس الأوّل (٨٢٩ ـ ٨٤٢) الذي اتّخذ له مستشارًا عدوًّا للأيقونات هو العالم الشهير يوحنّا الكاتب، وجعله بطريركًا على القسطنطينيّة. وقد هزئ هذا البطريرك بقرارات سائر البطاركة الشرقيّين، وهم باسيليُوس الأورشليمي، وخريستوفورُس الإسكندريّ، وأيّوب الأنطاكيّ، رغم توجيهها إليه، وهي التي أوجبت المحافظة على التقليد واحترام الأيقونات. وبلغت به القساوة مبلغًا بعيدًا على رجال الدين، إذ "كوى كفّي ألعازار بالحديد الحامي، وجلد تيوفانس وأخاه ثيودورُس الراهبين الفلسطينيّين ووسم جبينيهما بأبيات من الشعر نظمها بنفسه"[2].

كان من الطبيعيّ أن تؤدّي هذه الممارسات إلى ضعف في جسم الكنيسة الشرقيّة، وقد استمرّت تلك الأحوال الشاذّة حتّى وفاة ثيوفيلُس سنة ٨٤٢، واستلام زوجته ثيودورة مهامّ الحكم وصيّة على ابنها ميخائيل الذي كان لا يزال قاصرًا في السادسة من عمره، وكان أوّل ما أقدمت عليه ثيودورة في مجال حرب الأيقوات في الكنيسة، أنّها أعلنت عن موقفها المؤيّد لتكريم الأيقونات، ودعمت قادة الإكليروس القائلين بهذا التقليد، حتّى كان الأحد الأوّل من الصوم الكبير في الحادي عشر من آذار (مارس) ٨٤٣ "فخرجت ثيودورة في موكب عظيم إلى كنيسة الحكمة الإلهيّة يواكبها كبار الرجال للاستماع إلى القدّاس الإلهيّ، ولتقبيل الأيقونات، ولطلب المغفرة لزوجها

---

١ - AMMAN E., *EPOQUE CAROLINGIENNE*, FLICHE ET MARTIN, VI: 240.

٢ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ١٣٠؛ PAPADOPOULO TH., *HISTORY OF GREEK CHURCHE AND PEOPLE*,, 1: 329; VASILIEV A., *BYZ. EMP.*, 286.

الراحل، على خطيئته في اضطهاد من كرّم الأيقونات"[1]. ولا تزال الكنيسة الشرقيّة حتّى اليوم تعتبر الأحد الأوّل من الصوم الكبير يوم استقامة الرأي[2].

وإذا كان الانقسام المسيحيّ في الشرق حول الأيقونات قد بلغ حدّه النهائيّ على يد ثيودورة، فإنّ الوحدة بقيت بعيدة المنال، إذ توزّع الولاء على أحزاب سياسيّة ـ دينيّة، كان أكبرها حزبَين، الأوّل ضمّ المحافظين المتطرّفين في ميدان السياسة الدينيّة، وهم من الطبقتين الغنيّة والمتوسّطة ومن الرهبان الثوريّين، والثاني ضمّ جمهور الشعب والرعاة والكهنة وبعض الرهبان المعتدلين. وكان كلّ من الحزبَين يحارب البطريرك إذا لم يكن من أنصاره، وقد أعاد هذا الصراع مسألة الأيقونات إلى البروز بين وقت وآخر، وعاد الصراع على السلطة السياسيّة ليشرك الكنيسة في زمنيّاته، فساء وضع كنيسة القسطنطينيّة إلى حدّ جُعل معه رئيس الوزراء بطريركًا عليها سنة ٨٥٨، وهو يرجع في نسبه إلى أسرة يونانيّة عريقة تتّصل بالأسرة المقدونيّة، وكان اسمه فوطيوس، وقد لُقّب بالعظيم[3].

رغم أنّ فوطيوس كان من عباقرة عصره، وكان مشهودًا له بصحّة الإيمان وباستقامة الرأي، فإنّ روما امتنعت عن الاعتراف به بطريركًا، ذلك أنّ طريقة تنصيبه كانت مرفوضة من قبل البابا نيقلاوس الأوّل (٨٥٨ ـ ٨٦٧) إذ إنّ فوطيوس قد سيم في اليوم الأوّل متوحّدًا، وفي اليوم الثاني أناغنوسطسًا، وفي اليوم الثالث

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ١٣١.

GRUMEL V., *REGESTES DES ACTES DU PATRIARCAT DE* CONSTANTINOPLE, P. 425. ـ ٢

٣ ـ **فوطيوس** (ت حوالى ٨٩١): بطريرك القسطنطينيّة ٨٥٨ ـ ٨٨٦، له أبحاث لاهوتيّة ومجموعة قوانين الكنيسة اليونانيّة، مات منفيًا.

إيبوذياكونًا[١]، وفي الرابع شمّاسًا، وفي الخامس قسًّا، وفي السادس أسقفًا فبطريركًا[٢] ! كما لم يعترف بفوطيوس كلّ من بطاركة الإسكندريّة وأورشليم وأنطاكية.

أدّى هذا التعيين إلى مزيد من الخلافات داخل الكنيسة الشرقيّة، إذ تداعى خصوم فوطيوس ونادوا بإغناطيوس الذي كان بطريركًا قبل رئيس الوزراء، فخلعه الأمبراطور. إلاّ أنّ الحكومة لجأت إلى نفي هذا البطريرك ومؤيّديه[٣].

وسط هذا الخلاف، عادت الصراعات جميعًا إلى الازدهار في جسم الكنيسة الشرقيّة، من مسألة الطبيعة والطبيعتين، إلى مسألة الأيقونات واللاأيقونات، مرورًا بمسائل أخرى، برز فيها البولسيّون والمانويّون يعلنون الحرب على البطريرك. فكان لا بدّ من مجمع كنسيّ يحاول معالجة هذه القلاقل. فكان مجمع عُقد سنة ٨٦١ بدعوة من الأمبراطور في القسطنطينيّة لم يحضره بابا روما، بل حضر مندوبان عنه، وقد ثبّت هذا المجمع فوطيوس بطريركًا، ولم يعترف بحقّ اغناطيوس في البطريركيّة، كما أوجب تكريم الأيقونات، وقاوم "فرق الهرطقة"، ووضع بعض التنظيمات الكنسيّة منها "ألاّ يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرّس بدرجات الكهنوت درجة درجة ويتمّم المدّة القانونيّة فيها"[٤]. إلاّ أنّ هذا لم يكن كافيًا كي يعترف بابا روما بفوطيوس بطريركًا على القسطنطينيّة. بل إنّ البابا دعا إلى مجمع محليّ عُقد في روما سنة ٨٦٣، أعلن اغناطيوس بطريركًا شرعيًّا على القسطنطينيّة[٥].

---

١ - متوحّد، أناغنوسطس، إيبوذياكون: رتب كنسيّة متتالية يسبق اخرها رتبة الشمّاس مباشرة.

٢ - راجع: HERGENROTHER J., *PHOTIUS PATRIARCH VON KONSTANTINOPEL*, 3 VOLS, MONUMENTA GRACCA AD PHOTIUM PERTINENTIA

٣ - DVORNIK F., *PHOTIAN SCHISM*, PP. 55 - 56.

٤ - MANSI, XVI, COL. 536 - 548

٥ - EPIST. VI: 517 - 523

أدّى هذا التطوّر إلى سلبيّة خطيرة نشأت بين البابا في روما من جهة، والأمبراطور في القسطنطينيّة من جهة ثانية، إذ ردّ الأمبراطور ميخائيل الثالث على قرار مجمع روما بكتاب وجّهه إلى البابا نيقولاوس الأوّل، ضمّنه تعابير قاسية، وقد وصف البابا هذا الكتاب بأنّ "كاتبه قد غمس قلمه في حلق ثعبان". وقد ضمّن الأمبراطور كتابه أمرًا "بحضور ثيوغنوسطُس، الذي مثّل البابا في مجمع القسطنطينيّة، إليه مع أعوانه للتحقيق معهم، وإلاّ فسيُحضرهم بالقوّة". فكان ردّ البابا أنّ "السيّد، له المجد، هو الذي خصّ بطرس بهذه الصلاحيات الواسعة، وأنّ بطرس منحها خلفاءَه من بعده، وأنّ روما وحدها تفتخر بإقامة بطرس وبولس فيها ووفاتهما ضمن أسوارها، وأنّ بعد روما تأتي الإسكندريّة وأنطاكية، أمّا القسطنطينيّة فإنّها اضطرت إلى أن تستورِد رفات إندراوس ولوقا وثيموتاوس. لذلك فإنّ الامتيازات التي تتمتّع بها روما تمنحها حقّ الإشراف على كنيسة القسطنطينيّة. وحصر حقّ الدعوة إلى المجامع بالبابا"[1]. وهكذا، كانت بداية الانشقاق العظيم، أو على الأقلّ كانت البوادر التي آذنت بذلك الانشقاق.

في الوقت نفسه، كانت الصراعات على أشدّها في أوروبّا الشرقيّة بين اللاتين من جهة، وأمبراطور بيزنطية من جهة ثانية. فقام فوطيوس بالدعوة إلى مجمع شرقيّ عُقد في القسطنطينيّة سنة ٨٦٧، صدر عنه "قطع للبابا نيقولاوس الأوّل، ومناداة بلويس الثاني، أمبراطورًا". وتقول المصادر الغربيّة إنّه لم يحضر هذا المجمع أيّ من كنائس الشرق، باستثناء فوطيوس الذي "عيّن ثلاثة رهبان من أتباعه (...) الموافقين لرأيه الفاسد لينوبوا عن بطاركة أورشليم وأنطاكية والإسكندريّة"[2].

---

١ - راجع: EPIST. VI: 474 - 484; LAMMER H., *PAPST NICOLAUS I UND DIE BYZANTINISCHE STAOT - SKIÈCHE.*

٢ - HEFELÉ - LECLERQ, IV: 532.

مع بلوغ التوتّر بين روما والقسطنطينيّة أخطر درجاته، شاءت الأقدار أن يقع حدثان بالغا الأهميّة في وقت واحد تقريبًا، فقد توفّي البابا نيقولاوس الأوّل في الثالث عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٨٦٧، بعد أن كان قد حصل انقلاب في القسطنطينيّة أدّى إلى مقتل الأمبراطور ميخائيل الثالث في الرابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) سنة ٨٦٧. وقد خلف البابا نيقولاوس الأوّل البابا أدريانُس الثالث (٨٦٧ ـ ٨٧٢) وخلف الأمبراطور ميخائيل الثالث الأمبراطور باسيليُوس الأوّل (٨٦٧ ـ ٨٨٦). وحاول الرجلان إيجاد صيغة لإعادة العلاقات الطبيعة بين روما والقسطنطينيّة، فكان مجمع غربيّ في كنيسة القدّيس بطرس في روما في حزيران (يونيو) ٨٦٩، صدر عنه رفض لقرارات مجمعَي القسطنطينيّةِ اللذَين عُقدا في ٨٥٣ و٨٦١، وتحريم لفوطيُس، ووجوب إبعاد الآباء الذين اشتركوا في أعمال مجمع ٨٦٧ عن مراكزهم الإكليريكيّة.

وافق الأمبراطور الجديد على مقرّرات مجمع روما، وتمّ الاتّفاق، في المقابل، على عقد مجمع في القسطنطينيّة، بدأ أعماله في الخامس من تشرين الأوّل (أكتوبر) ٨٦٩ حضره، إضافة إلى وفد روما، ممثّلو بطاركة أورشليم وأنطاكية والإسكندريّة واثنا عشر أسقفًا قسطنطينيًّا. وقد صدر عن هذا المؤتمر قطع لفوطيُس، وما هو أبلغ من ذلك أهميّة: "إنّ جسَرَ أحد أن يتمثّل بفوطيُس، وديوسقورُس، ويكتب كتابة أو يقول قولاً يحطّ من كرامة كرسي بطرس هامة الرسل فليكن محروما مثلهم"، كما جاء في بعض المراجع الكنسيّة.

وإذا كان هذا الأمر قد قرّب بين روما والقسطنطينيّة، فهو لم يؤدّ إلى وقف الصراع داخل الكنيسة الشرقيّة التي أصبحت كنيستَين: كنيسة اغناطيوسيّة، وكنيسة فوطيوسيّة.

في هذه الأثناء، كان المسلمون قد سيطروا على البحر، وأصبحوا يهدّدون إيطاليا وروما بالذات، بعد أن استقرّوا في صقلّية وباري وترنتوم. وإذ مات اغناطيوس، بطريرك القسطنطينيّة المبارَك من روما، عاد فوطيُس إلى تسلّم عكّاز الرئاسة. كان ذلك سنة ٨٧٧، وكان على كرسيّ روما البابا يوحنّا الثامن.

هذه المرّة اعترفت روما بفوطيُس بطريركًا على القسطنطينيّة، وكذلك فعلت كنائس الشرق الثلاث. وقد عقب ذلك مجمع عُقد في القسطنطينيّة (٨٧٩ ـ ٨٨٠)، أدّى إلى توافق الكنائس على أساس الإيمان النيقاويّ. إلاّ أنّ نهاية عهد فوطيُس جاءت هذه المرّة على يد الأمبراطور لاون السادس الملقَّب بالحكيم (٨٨٦ ـ ٩١٢) ابن باسيليُوس، الذي عزل البطريرك، ونفاه إلى دير الأرمورييّن حيث قضى سني حياته الأخيرة معتزلاً. وتعتبره الكنيسة الشرقيّة قدّيسًا مطوّبًا.

مَدٌّ وجَزْرٌ

بَيْنَ المَسِيحِيَّةِ والإسْلام

منذ انكفاء البيزنطيّين إلى القسطنطينيّة في عهد هرقل (٦٣٤ ـ ٦٤٢) لم يتسنّ لهم يومًا أن يحاولوا استرداد ما خسروه أمام الزحف الإسلاميّ. ولم تكن الانشقاقات التي حصلت في الجسم الإسلاميّ كافية لإضعاف الخلافة إلى حدّ استضعافها من قبل الروم. إلاّ أنّ ما حلّ بتلك الخلافة في نهاية العهد العبّاسيّ، قد أوجد فيها، على ما يبدو، تلك الدرجة من الضعف. وهكذا كانت نهاية القرن السابع، بداية تحوّل، لن يدوم طويلاً، في مسار الأحداث في الشرق. ذلك أنّه بعد ستّ سنوات من قيام الدولة العبّاسيّة، وتحديدًا سنة ٧٥٦، "إستقلّت عنها إسبانيا ـ الأندلس ـ تحت حكم الأمير الأمويّ الناجي من المذبحة العبّاسيّة: عبد الرحمن الأوّل (٧٥٦ ـ ٧٨٨)... وقد أصبح في ما بعد أحد خلفائه، عبد الرحمن الثالث، في الأندلس، في السنة ٩٢٩، خليفة رسول اللّه وأمير المؤمنين والناصر لدين اللّه.

في السنة ٧٨٨، حذا المغرب حذو إسبانيا، ثمّ بلاد ما وراء النهر، في آسية الوسطى، السنة ٨٠١، وفي السنة ٨٢٢، فإنّ بلاد خرسان في إيران، التي صنعت الثورة العبّاسيّة وأطاحت بالخلافة الأمويّة في دمشق، ودعمت الخلفاء العبّاسيّين الأوائل،

بأشدّ أنصارهم، إنفصلت عن بغداد. وفي السنة ٨٧٢ حذت مصر حذو خرسان وانضمّ إليها، السنة ٨٧٧، فلسطين وسورية ولبنان[١].

حاول باسيليُوس الأوّل الملقَّب بالمقدونيّ، الأمبراطور البيزنطيّ (٨٦٧ ـ ٨٨٦) استغلال هذا الظرف لمصالحة الروم. فقام يحارب على طول الجبهة الإسلاميّة من شاطئ قيليقية حتّى أرمينية وطرابزون*. ونجح في دفع المسلمين إلى الوراء في حروب متتالية بين ٨٧١ و ٨٨٢. إلاّ أنّ هذه العمليّات هدأت في عهد ولد باسيليُوس الأمبراطور لاون السادس (٨٨٦ ـ ٩١٢) لتعود فتتجدّد في عهد قسطنطين السابع ورومانُس الأوّل (٩١٢ ـ ٩٥٩). وقد تمكّن الروم من جعل دجلة والفرات سنة ٩٢٧ الحدّ الفاصل بينهم وبين العرب بدلاً من الهيلُس[٢]. وبعد سنة، احتلّوا أرضروم[٣] وأخرجوا المسلمين من أرمينية. وفي ٩٣٤ استولوا على ملاطية[٤]، حيث اضطرّهم سيف الدولة[٥] إلى التوقّف. لكنّ هجماتهم تجدّدت في ٩٤١ و٩٤٢ إذ احتلّوا نصيبين[٦]

---

١ ـ بولس، التحوّلات الكبيرة، ص ١٧٩.

٢ ـ **الهيلُس** HÉLOS:لاقونية القديمة، هي اليوم بيلوبونيس PÉLOPNNÈSE شبه جزيرة في جنوب اليونان.

٣ ـ **أرضروم** ERZURUM: في شرقيّ تركية وكانت تُعرف بـ THÉODOSIOPOLIS.

٤ ـ **ملاطية أو ملَطية**: مدينة على الفرات في تركيا، فيها ولد المؤرخان البطريرك ميخائيل السرياني (١١٢٦ ـ ١١٩٩) وغريغوريُس ابن العبري (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦).

٥ ـ **سيف الدولة الحمداني** (٩١٥ ـ ٩٦٥): هو علي بن عبدالله، وُلد في ديار بكر (ميافارقين) وتوفّي في حلب. أكبر ملوك الحمدانيّين في سورية، إنتزع حلب من الإخشيديّين ومدّ نفوذه على شمال سورية ٩٤٥، حارب البيزنط مدافعًا عن سورية، ازدهرت الآداب والعلوم في عهده فنبغ في بلاطه المتنبّي، وأبو فراس الحمداني، وأبو نصر الفارابي الفيلسوف، وإليه قدّم أبو فرج الأصفهاني كتاب الأغاني.

٦ ـ **نصيبين**: مدينة في بلاد ما بين النهرين، في تركية حاليًا، كانت منذ القرن الثالث مهد الآداب السريانيّة حتّى سقوطها في أيدي الساسانيّين ٣٦٥، ازدهرت فيها مدرسة نسطوريّة أواخر القرن الخامس وحتّى منتصف القرن السادس.

وجوارها وميافارقين[1] وقاربوا حلب. غير أنّ سيف الدولة قد بدأ سنة ٩٣٨ بتسجيل انتصاراته على الروم، إذ دخل حصن زياد عنوة، ثمّ توغّل في بلاد الروم، واشتعلت حرب شهدت كرًّا وفرًّا، إلى أن جاء الأمبراطور نيقوفورُس المعروف بنقفور الفقّاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩) الذي قاد حملة ضدّ المسلمين وانتزع منهم كريت قبل أن ينادي به الجيش أمبراطورًا. وزاد الضرائب ليهتمّ بالجيش، واحتلّ بعض قيليقية وقبرص وقسمًا من سورية بين ٩٦٤ ـ ٩٦٥، وكانت نهاية هذا الذي حاول أن يعيد إلى بيزنطية مجدها اغتيالاً على يد القائد يوحنّا شمشقيق[2] بالاتّفاق مع زوجته تيوفانو. وكان قد تمكّن من اقتحام عين زربة وأدنه ومن الاستيلاء على أسوس عند مدخل سورية، ثمّ من استعادة كامل قليقية بعد أن كانت زهاء ثلاثة قرون قاعدة بريّة بحريّة تنقضّ منها جيوش الإسلام وأساطيله على الأمبراطوريّة. وفي خريف سنة ٩٦٨ دخل حمص وعرقة وطرطوس وجبلة. وسقطت أنطاكية بيد الروم في ٢٨ تشرين الأوّل (أكتوبر) من السنة نفسها بعد أن ملكها المسلمون أكثر من ثلاثة قرون. ثمّ سقطت حلب وبسط الروم سيادتهم عليها، ومنعوا حاكمها من فرض الجزية على المسيحيّين[3].

خلف نيقوفورُس قاتله يوحنّا الذي عرفه العرب بابن شمشقيق سنة ٩٦٩، يوم كان على رأس الخلافة الفاطميّة في مصر الخليفة الرابع المعزّ لدين اللّه (٩٥٣ ـ ٩٧٥). وكان قد تمّ انتخاب بطريرك على أنطاكية سنة ٩٧٠ هو الراهب ثيودورُس، فانتقل هذا

---

١ ـ **ميافارقين:** قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمينية ـ تركية ـ سُمّيت قديمًا مارتيروبولس أو مدينة الشهداء لما جُمع فيها من عظام الشهداء الفرس المسيحيّين.

٢ ـ **يوحنّا بن شمشقيق أو يوحنّا جيمسكي:** أمبراطور بيزنطي ٩٦٩ ـ ٩٧٦، طرد الروس من بلغاريا الشرقيّة ودخل دمشق والناصرة وبيروت ٩٧٤ ـ ٩٧٥، مات مسمومًا على يد خلفه باسيليُوس الثاني.

٣ ـ راجع: SCHLUMBERGER G., *NICÉPHORE*, P. 730.

البطريرك إلى المدينة المسيحيّة العظمى واستأنف ممارسة صلاحياته هناك. كما عيّن الأمبراطور دوقًا على المدينة بعد أن جعلها صالحة للدفاع.

حاول الخليفة الفاطميّ استعادة أنطاكية للمسلمين. ولكنّه لم يتمكّن من تحقيق مآربه رغم الحصار الذي فرضه عليها مدّة خمسة أشهر بين ٩٧٠ ـ ٩٧١.

بعد محاولة فاشلة للاستيلاء على بغداد، مقرّ الخلافة العبّاسيّة المتداعية الأركان في سنة ٩٧٤، قام يوحنّا في ربيع ٩٧٥ إلى أنطاكية، ومنها انطلق قاصدًا أورشليم. وبطريقه مرّت الحملة بدمشق حيث اعترف حاكمها سلمًا بسيادة الأمبراطور الذي ترك فيها حامية مسيحيّة، بعد أن انتزع من حاكمها قبولاً خطّيًا يقضي بدفع جزية قدرها ستّون ألف دينار كلّ سنة. ومن دمشق مرّ بجبيل وبيروت التي أسر أميرها نصر الخادم، واستولى على بانياس وجبلة دون أن يتمكّن من طرابلس[1]، وتوجّه نحو فلسطين فدخل طبريّة ونسلّق جبل الطور تبرّكًا عافيًا عن الناصرة احترامًا للسيّد.

وفي جبل الطور راح يتقبّل أداء الطاعة له من قبل حكّام أورشليم والرملة وعكّة التي أرسل إليها جميعًا حكّامًا عسكريّين مقيمين[2].

هذه الانتصارات التي حقّقها الروم في عهدَي نيقيفورُس (نقفور) ويوحنّا بن شمشقيق، على حساب تفكّك الخلافة العبّاسيّة، كانت محكومة بقصر العمر بسبب استشراء حالات شهوة الحكم في القسطنطينيّة. ومثلما قُتل نقفور وهو في عزّ عطائه، قُتل بن شمشقيق بعد عشر سنوات من الحكم مغتالاً هذه المرّة بالسمّ، فكان نزاع دام على المُلك في القسطنطينيّة بين برداس، أسكليرُس القائد الأعلى للجيش، وبين

---

١ - EUTICHIUS, *ANNALÈS*, II: 145 - 146.

٢ - LAURIER E, CHRONIQUE DE MATTHIEU D'EDESSE, PP. 16 - 24.

الخصيّ باسيليُوس، الذي حدّثته نفسه بالملك، وهو من كان يتولّى تربية باسيليُوس وأخيه قسطنطين، ولدَي نقفور، ووليَّي عهده، إذ كانا لدى موته قاصرين، وكانت أمّهما ثيوفانو التي طالتها شهوة الحكم قد تآمرت على زوجها نقفور فأغرت ابن شمشقيق بقتله. وقد شهدت عاصمة البيزنطيّين حربًا أهليّة هائلة دامت أربع سنوات، أنست قادتها وشعبها ما كان قد تحمّس له الروم قبل سنوات، في حلم استعادة السيادة على الشرق، وبلغ هذا التحوّل السلبيّ حدّ أن لجأ أحد الزعيمَين المتصارعين: برداس، إلى بغداد طالبًا معونة الطائع: الخليفة العبّاسيّ (٩٧٤ ـ ٩٩١).

في الوقت نفسه نشأ صراع في أنطاكية على البطريركيّة بعد وفاة أغابيوس سنة ٩٧٧. وقد أحدث هذا الصراع تفكّكًا بين أنطاكية والإسكندريّة التي رفض بطريركها الاعتراف بأغابيُس أسقف حلب، بطريركًا على أنطاكية، مبرّرا رفضه بقوله أنّ أغابيوس ترك أبرشيّته ليصير بطريركًا مثل مَن يتزوّج ابنة ثمّ يتركها ويأخذ والدتها، أو مثل مَن يطلّق زوجته ويتزوّج بسواها[1]. ولكنّ بطريرك الإسكندريّة عاد واعترف ببطريركيّة أغابيُس صونًا للوحدة ومنعًا للانشقاق. ذلك بعد مراسلات طويلة تبودلت بن البطريركَين.

أعاد الأمبراطور باسيليُوس الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) الذي خلف ابن شمشقيق شرعيًّا، مسار الأمور إلى مجراها، فتمكّن من بناء قوّة عظمى بعد أن جيّش عددًا من الرجال لم يسبق له مثيل في تاريخ القسطنطينيّة، وراح يحارب على كافّة حدود الأمبراطوريّة، منهمكًا، في الوقت نفسه، بالقضاء على الثورات الداخليّة للطامعين بالحكم. وقد أنفذ الحملات ضدّ الحماديّين الذين نشأ بينه وبينهم صراع على حكم حلب

١ ـ EUTICHIUS, *ANNALES*, II: 150 - 154.

وجوارها. ثمّ نازل الفاطميّين في سورية وردّهم عن حلب وقهقرهم حتّى أبواب دمشق، وعزل دوق أنطاكية وبطريركها لتقصيرهما عن الدفاع عن حلب، وولّى على أنطاكية دوقًا جديدًا وبطريركًا آخر اسمه يوحنّا[١].

تصاعدت الحرب بين الروم والفاطميّين بعد أن تسلّم الخلافة رجل قويّ هو الحاكم بأمره (٩٩٦ - ١٠٢١). وقد اضطرّ باسيليُوس إلى أن يهبّ شخصيًّا إلى سورية لينقذ أنطاكية من هجمات ذلك الحاكم، وقبل نهاية القرن الأوّل بسنة واحدة تمكّن باسيليُوس من السيطرة على حمص، ثمّ غزا بيروت وجبيل بعد أن حاصر طرابلس، ولم يلبث أن ضمّ فلسطين إلى أمبراطوريّته، ممّا اضطرّ الخليفة الفاطميّ القويّ إلى عقد صلح مع البيزنطيّين مدّته عشر سنوات[٢].

إلى جانب النجاح العسكري والأعمال الأدبيّة، شهد عهد باسيليوس الثاني انطلاقة رائعة في الحياة الرهبانيّة. ففي سنة ٩٦٣، أسّس الراهب أثناسيوس أوّل دير في جبل آثوس، في شمال اليونان، وأصبح الجبل في ما بعد "جمهوريّة" رهبان وفخر الروحانيّة الأرثذوكسيّة[٣].

على الصعيد العام، تأثّرت بيزنطية، في هذه الحقبة، تأثّرًا واضحًا بالعربيّة الإسلاميّة حيث كان الدين هو مصدر الحكم، وحيث كان القتال باسم الدين. وساد شعور في القسطنطينيّة مماثل لذلك الذي كان سائدًا في عواصم الخلافات، وإن كان مناقضًا له، لا بل معاديًا.

---

١ - رستم: كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ٢: ١٧٣ - ١٧٥.

٢ - SCHLUMBERGER G., EPOP. II: 201 - 208.

٣ - كمبي الأب جان، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، الطبعة العربيّة الثانية، دار المشرق (بيروت،٢٠٠٢) ص١٦٤.

ففي تلك العواصم كان الإسلام هو المصدر، وفي القسطنطينيّة كانت المسيحيّة. تحوّلت القسطنطينيّة في تلك الحقبة من الزمن إلى شكل من "الخلافة" المسيحيّة، فأصبح الأمبراطور هو "خليفة" السيّد المسيح زمنيًّا، كما أصبح سيف المسيحيّة كما الخليفة سيف الإسلام. وفي ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ، تحوّلت مدينة الأمبراطور إلى ما يشبه بلاط الحاكم باسم المسيح. وقد أبدع مؤرّخ أرثذوكسيّ لبنانيّ في وصف تلك الحالة:

أصبح السيد المخلص في نظر الحكومة والشعب هو الملك، وأصبح الإنجيل دستور الدولة. فكنت إذا قصدت القصر الملكيّ تقرأ على جدران بعض البنايات: "المسيح الأمبراطور". وقد تسمع وأنت في طريقك إلى القصر جماعات يرتلون. فإذا ما اقتربوا منك وجدتهم جنودًا حاملين الصليب عاليًا هاتفين: "المسيح المنتصر". وإذا ما وصلت إلى مداخل القصر، وجدت فوق بعض العتبات أيقونات مقدسة تمثل المسيح مرتديًا لباس الملك متوجًا. وإذا دخلت ظننت أنك في كنيسة لا في قصر ملكيّ. فمن أيقونة للعذراء والدة الإله حامية العاصمة، إلى ذخيرة تضم عود الصليب، إلى أيقونة عجائبية تمثل السيد مصلوبًا كان قد ظفر بها ابن شمشقيق في أثناء مروره في بيروت، إلى زاوية مكرمة تحفظ حذاء السيد الذي وجده ابن شمشقيق في جبيل، إلى المنديل الذي كان لا يزال يحمل رسم وجه السيد وقد احتفظت به الرها أكثر من تسعة قرون. وقد تقف قليلاً متأملاً مصليًا فيدخل القاعة رئيس أساقفة تتبعه حاشية وقد جاء خصيصًا لتكريم هذه الآثار وتجديد التكريس. وقد تكون أحد أعضاء الوفود الإسلامية المفاوضة، فيُتاح لك الدخول إلى قاعة العرش، فتجد العرش عرشين: أحدهما عليه الإنجيل الطاهر وهو عرش المسيح الملك، والثاني لنائبه على الأرض الأمبراطور. فإذا قابلت العرش الأول أو مررت من أمامه رسمت شارة الصليب بالأصابع الثلاثة وانحنيت إكرامًا وإجلالاً. وقد تكون أحد القضاة الزائرين، فيدفعك اهتمامك بالقضاء إلى الوقوف في دار العدل لاستماع المرافعة وصدور الأحكام، فتذكر هناك أيضًا بأن المُلك للسيد له المجد. فالقوانين والأحكام تُستهل "باسم سيدنا يسوع المسيح". وقد تكون تاجرًا تضطرك الظروف إلى زيارة أحد المصارف لتقبض تحويلاً ماليًا معينًا، فتتفقد الدراهم والدنانير فتجد رسم السيد المسيح على أحد الوجهين. وقد تكون عدوًا محاربًا في الجزيرة أو في سورية، فتعد جيش الروم بعدد معين من

الصلبان. وقد تمنع في قلعة شيزر كما فعل ابن كراديس في السنة ٩٩٩، ثم تلتمس الأمان من ملك الروم وتشترط شروطًا فيجيبك إلى ذلك وينفذ إليك صليبًا. وقد تُعقد الهدن بين الروم والمسلمين، فينفذ ملك الروم صليبًا من ذهب مرصعًا أمانًا لعدوه ووفاء بالشرط. ولما كان الملك الحقيقي روحًا غير منظور، أصبح الملك الملموس رمز الملك السيد ونائبه على الأرض: ثوبه ثوب الأيقونات، تاجه وصولجانه مشرفان بالصليب المقدس. ولما كانت ثيابه هذه هبة ربانية حملها الملائكة إلى قسطنطين الكبير، أصبح المحل الوحيد اللائق لحفظها هو الكنيسة. وأمسى قصر الأمبراطور من حيث التخطيط وهندسة البناء وتزيين الزوايا والقبب والجدران أشبه بالكنيسة من أي بناء آخر. وأمست أبواب قاعة العرش تفتح وتغلق في أوقات معينة كأبواب الأيقونسطاس في الكنيسة، وقام العرش في حينه كعرش الأسقف في الكنيسة.

وقضت هذه الصلة بين الأمبراطور وبين السيد الروح غير المنظور أن يظهر الأمبراطور ظهورًا على عرشه في الاستقبالات الرسمية دون أي كلام أو تبادل أفكار. وتغرد الطيور الذهبية. وتزأر الأسود المصطنعة. ويسجد الحاضرون ثلاث سجدات. وما هي إلا لحظة حتى يرتفع الأمبراطور بعرشه نحو السماء فيختفي. وإذا قضت الظروف أن يستقبل الأمبراطور في باسيليقه، جلس على عرشه الذهبي صامتًا مسبل الجفنين، فإذا ما رغب في شيء رفع جفنيه ونظر إلى رئيس الخصيان، فنصدر إشارة عن هذا فيتم تنفيذ الأمر الصادر دون كلام، وتنتهي المقابلة عندما يرسم الأمبراطور شارة الصليب فيخرج الزائرون منه خاشعين. وقضت نيابة المسيح على الأمبراطور بأن يشترك مع البطريرك في ممارسة بعض الطقوس الدينية. فيخرج الإثنان إلى الشوارع بسحابة من البخور وموكب كبير. ويركب البطريرك حمارًا أبيض، ويمتطي الأمبراطور جوادًا عربيًا، فيزوران في كل يوم جمعة كنيسة السيدة حامية العاصمة. وفي يوم الخميس الكبير يتفقدان العجزة في المآوي فيغسل الأمبراطور أرجل هؤلاء، ويقبلها مذكرًا بما فعل السيد له المجد[1].

---

١ - رستم: كنيسة مدينة الله، ٢: ١٧٨ - ١٨٠ بالاستناد إلى: GUERDAN R., *VIE GRANDEURS ET MISÈRES DE BYZANCE*, (PARIS, 1954) PP. 1 - 5; ENSSLIN W., *EMPEROR AND IMPERIAL ADMINISTRATION*, BYZANTIUM, (OXFORD,1953) P. 273; EUTICHIUS, *ANNALES*, II: 183; ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٦٦.

٢ - المرجع السابق، نقلاً عن: ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٢٣ - ١٢٦.

وقد جاء في المدوّنات أنّه: "إذا خرج الأمبراطور إلى كنيسة الحكمة الإلهيّة مشى أمامه إثنا عشر بطريركًا، وحمل هو بيده حقًّا من ذهب فيه تراب، فإذا مشى خطوتين وقف ونظر إلى التراب وقبّله وبكى. وما يزال يسير كذلك حتّى ينتهي إلى باب الكنيسة، فيقدّم رجل شيخ طشتا وإبريقا من ذهب. فيغسل الأمبراطور يده ويقول لوزيره: إنّي بريء من دماء الناس كلّهم، ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة بيلاطس ويجعلها في رقبة الوزير ويقول له: دن بالحقّ كما دان بيلاطس"[1].

وهكذا نلاحظ أنّ الدولة عند الروم كانت تُساس من قبل الأمبراطور والكنيسة في ما يشبه العقد السماويّ بين الإثنين، وإذ كان للأمبراطور كامل السلطة على الجسم، كانت سلطة البطريرك مقتصرة على الروح، فلا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة. فمنذ قسطنطين الكبير والأباطرة متمسّكون بهذا الاعتبار، فاتّخذوا مواقف تقرير في الكثير من الشؤون العقائديّة والإداريّة الكنسيّة. إذ دعوا إلى عقد المجامع، وعيّنوا البطاركة والأساقفة، لا بل فرضوا المعتقدات كما في حال المشيئة الواحدة على يد هرقل، والموقف من الأيقونات على أيدي سواه... وبذلك كان نوع من الشبه بين سلطة الخليفة عند المسلمين وسلطة الأمبراطور عند مسيحيّي الشرق.

وهكذا نرى أنّ الروم قد عرفوا بين نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر بداية استعادة المواقع التي كانت لهم في الشرق، خاصّة وأنّ الخلافة كانت قد تشرذمت إلى خلافات، في وقت انتعشت فيه النخوة المسيحيّة في معقلها الشرقيّ الأخير. إلاّ أنّ التشرذم الذي أصاب المسيحيّة في ذلك العهد من التاريخ لم يكن أقلّ خطرا ممّا كان عليه التشرذم الذي أصاب الخلافة الإسلاميّة على الإسلام. وبينما كانت الخلافة الفاطميّة على مشارف الانهيار، والخلافة العربيّة في حكم الاستقالة لعروق دخيلة ومتعدّدة الأصول، والمسيحيّة في الشرق مترنّحة بين صعود وهبوط، كان المقلب

الآخر للشمس: أرض الغرب، مسرحًا لأحداث دينيّة مسيحيّة سوف تؤدّي إلى حدوث ذلك الانفلاع العظيم الذي شقّ المسيحيّة إلى مسيحيّتَين، فبات الصراع الدينيّ في الشرق كما في الغرب متعدّد الجبهات ومختلط المنطلقات والأهداف. وسوف تكون الحقبة التي عقبت انهيار الدولة العبّاسيّة حقبة فوضى دوليّة، يمكن، إذا دقّ التعبير، تسميتها بالحرب العالميّة الأولى التي حصلت قبل تلك المسمّاة بهذا الإسم بأقلّ من ألف سنة بقليل: إنّها حرب الإسلام والمسيحيّة، إنّها بتعبير أصدق، حرب الشرق والغرب.

إنّ نهاية القرن الحادي عشر في هذه المنطقة من العالم، إنْ في المسيحيّة أم في الإسلام، كانت حقبة تحوّل أساسيّ دراماتيكيّ، إذ حلّت مكان العروبة عروق لا تمتّ إلى العروبة بأيّة صلة، وحلّت اللاتينيّة مكان الروم. أمّا الحقبة الحرجة بين التحوُّلَين فكانت تلك التي طبعتها الخلافة الشيعيّة الوحيدة في التاريخ: الخلافة الفاطميّة.

الفَصْلُ الخَامِس

المَسِيحِيَّةُ المَشْرِقِيَّةُ فِي القُرُونِ الوُسطَى

المَسِيحِيَّة في الشَّرقِ نِهايَةَ الألفِ الأوَّل

فِي ظِلِّ الخِلافَةِ الفَاطِمِيَّة

الكَنِيسَةُ الشَّرقِيَّة بِدَايَةَ الألفِ الثَّانِي

الكَنِيسَةُ الخَلقِيدُونِيَّة كَنِيسَتَان

المَسيحِيَّةُ في الشَّرق

نِهايَةَ الألفِ الأوّل

شكليًا، يمتدّ تاريخ الخلافة العبّاسيّة حتّى العام ١٢٥٨، نهاية آخر خلفائها: المستعصم، وهو الخليفة السابع والثلاثون. أمّا عمليًا فقد بقيت سلطة الدولة العبّاسيّة متينة حتّى نهاية عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) إذ بدأت تظهر التناقضات في الدولة ممّا أدّى الى تفكّكها. وفي عهد المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) بات زعماء حرس الخلافة، وهم من الاتراك، أسيادًا للدولة. وراحت سلطة الخليفة العبّاسيّ بعد المعتصم، تأخذ في الانحدار لتتلاشى كليًّا أمام سلطة رئيس الحرس التركيّ الذي أصبح بالفعل رئيس الدولة. ولقد منح الخليفة العبّاسيّ الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) ابن المعتصم وخليفته، رئيس حرسه التركيّ لقب سلطان. وعند وفاة الواثق أعلن الحرس خليفة بعده جعفر المتوكّل (٨٤٧ - ٨٦١) الذي حاول أن يفرض إرادته على الحرس ويسيطر عليهم، فعادت نيران الثورات لتتأجّج في وجه الحكم العسكريّ. وانتهى المتوكّل إلى القتل على أيدي حراسه بإيعاز من ابنه وخلفه المنتصر (٨٦١) الذي حاول هو الآخر أن يحرز بعض الاستقلال في الحكم فكان مصيره مثل مصير أبيه بعد خمسة أشهر على اعتلائه العرش. ذلك كان نصيب ثلاثة خلفاء عبّاسيّين حاولوا أن يتحرّروا من وصاية الحرّاس

الأتراك بين سنة ٨٦٢ وسنة ٨٧٠، وهكذا تمكّن الحرس التركيّ من فرض سيطرته على الخليفة الذي كان عليه الرضوخ أو الموت.

في ظلّ هذا الواقع كان الخلفاء يؤجّرون ولايات الدولة وأقاليمها إلى حكّام المقاطعات الذين كانوا يدفعون مبلغًا من المال إلى الحكومة المركزيّة ويؤمّنون معاشات الجنود والموظّفين المحلّيّين، فأصبح بعض السلالات الإقليميّة أو حكّام المقاطعات يقتطعون لأنفسهم مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة في المناطق والأقاليم الغربيّة والشرقيّة، وكان أكثر هؤلاء الحكّام الجدد من الترك أو الفرس.

فبعد أن كانت إسبانية قد أفلتت من السيطرة العبّاسيّة منذ سنة ٧٥٦، والمغرب منذ سنة ٧٨٨، وتونس منذ ٨٠٠، وخراسان منذ ٨٢٢، وإيران الشرقيّة منذ ٨٧٠، إستقلّت مصر عن تلك الخلافة على يد حاكمها التركيّ أحمد بن طولون (٨٧٢ - ٨٨٤) مؤسّس الدولة الطولونيّة الذي سلخ فلسطين أيضًا عن بغداد العباسيّة وضمّ الى حكمه لبنان وسورية.

وإذا كانت بغداد قد تمكّنت من استرجاع سيادتها على مصر سنة ٩٠٥، فإنّ هذه السيادة لم تَدُم سوى ثلاثين سنة انتهت إلى حاكم مصر التركيّ محمّد من طغج الملقّب بالأخشيد. ثمّ في ٩٦٩ حلّ محلّ الأتراك الأخشيديّين في مصر الفاطميّون مؤسّسو الخلافة الفاطميّة الشيعيّة الذين ضمّوا إلى دولتهم فلسطين ولبنان وسورية.

إضافة إلى الطولونيّين والأخشيديّين ودولتيهم، حكم الحمدانيّون شمالي سورية بعد الأخشيديّين إثر كثير من المنازعات والمهادنات مع الخلفاء. وتمكّنوا من بسط سلطانهم على الموصل وجانب كبير من العراق وشماليّ سورية، وقد عاشت الدولة الحمدانيّة، بين مدّ وجزر، مئة سنة كاملة تبدأ مع بداية سنة ٨٩٢ وتنتهي بنهاية سنة ٩٩١. إلاّ أنّ الدولتَين الأبرز اللّتَين قامتا على أشلاء الخلافة العبّاسيّة فكانتا: خلافة الفاطميّين، ودولة

السلاجقة، اللّتين اقتسمتا البلاد السورية في ما بينهما، فاستولى السلاجقة على شماليها، وسيطر الفاطميّون على جنوبيها، وكان السلاجقة من الترك، وانتسب الفاطميّون إلى العرب.

كان من السلاجقة، أو السلجوقيّين[1]، عدّة فروع أهمّها: السلاجقة الكبار: ١٠٣٧ - ١١٧٥؛ سلاجقة كرمان: ١٠٤١ - ١١٨١؛ سلاجقة سورية: ١٠٩٤ - ١١٩٤؛ سلاجقة العراق وكردستان: ١١٧٧ - ١١٩٤؛ وسلاجقة الروم في آسية الصغرى: ١١٧٧ - ١٣٠٠.

ومن هذه الفروع برزت عدّة سلالات صغيرة أسّسها الأتابكة[2].

أمّا الفاطميّون فقد أسّسوا خلافة شيعيّة كانت قاعدتها مصر وامتدّت سيطرتها إلى سورية ولبنان في مدّ وجزر بين سنة ٩٠٩ وسنة ١١٧١.

وسط هذه المنازعات المتعدّدة الأطراف عاش الشرق، الذي نحن بصدد بحث تاريخ مجتمعاته، عصورًا مظلمة أكثر من أيّة عصور سابقة.

عانى المسيحيّون في خلال ذلك الوضع القلق الناشىء عن الصراعات السلطويّة مريرًا. وكانوا في كثير من الأحيان موضوع مزايدة في الاضطهاد والاستعباد بين تلك الدويلات الاسلاميّة المتصارعة في ما بينها على السلطة، كما كانوا عرضة للهجومات من قبل كلّ ثائر إسلاميّ بوجه أيّ من السلطات وسط ذلك الزمان المضطرب. وممّا

---

١ - **السلاجقة، أو السلجوقيّون**: أمراء تركمانيّون نسبوا إلى جدّهم سلجوق.

٢ - **الأتابكة**: نسبة إلى أتابك أو أتابك، وهو لقب تركيّ أطلقه السلجوقيّون على بعض كبار رجال البلاط ومعناه الأب الوصي، قاموا أولا بدور المربّين للأمراء القاصرين، وتعدّدوا بعدما أطلق اللقب على القادة العسكريّين وتوسّعت صلاحيّاتهم تدريجًا حتّى تمكّن بعضهم من إقصاء الأمراء السلاجقة وجعل امتيازاتهم وراثيّة كأتابكة أذربيجان في القرن الثاني عشر ودمشق والموصل بعد وفاة زنكي ١١٤٤.

حفظته المدوّنات في هذا المجال ما من شأنه أن يدلّ على صعوبة العيش التي عاناها المسيحيّون في القرن الأخير من الألف الأوّل، والأمثلة على ذلك كثيرة.

سنة ٩٢٣ وسط ثورة فريق من المسلمين في بلدة الرملة[١] ضد العامل العبّاسيّ، أقدم الثوّار على هدم كنيستين: كنيسة مار قزما وكنيسة مار كورقس. كما هدموا كنيسة عسقلان[٢] وكنيسة قيصريّة[٣].

وفي مصر ثار المسلمون في الوقت نفسه وهدموا كنيسة تنيس[٤]، وإذ حاول المسيحيّون إعادة بناء الكنيسة وقد "قرب تمامها ثار المسلمون ثانية فهدموا ما بنوه وأحرقوه بالنار"[٥] وفي السنة التالية (٩٢٤) ثار المسلمون بدمشق فهدموا الكاتدرائيّة الجامعة التي كانت تُعرف بكنيسة مرتمريم وكانت "كنيسة عظيمة كبيرة حسنة، أُنفق فيها مئتا ألف دينار، ونهبوا ما كان فيها من آنية وحليّ وستور. ونُهبت ديارات (أديار) وخاصةً دير النساء الذي كان جانب الكنيسة. وشعّثوا كنائس كثيرة للملكيّة وهدموا كنيسة النسطوريّة"[٦].

---

١ ـ **الرَّملة**: بلدة في فلسطين شمال شرقي القدس، نشبت بينها وبين بيت جبرين المجاورة معركة أجنادين عند الزحف العربي ٦٣٤ التي انتصرت فيها الجيوش العربية على البيزنطيّين.

٢ ـ **عسقلان**: أشقلون قديماً، مدينة قديمة على ساحل فلسطين الجنوبي، تحتل موقعاً استراتيجياً سوف يلعب دوراً مهماً في الحروب الصليبية.

٣ ـ هي قيصرية فلسطين غير قيصريّة تركية الأسيويّة وغير قيصريّة فيليبوس المعروفة ببانياس، ويقال لها تحريفاً قيساريّة، مدينة قديمة بين حيفا ويافا، بناها هيرودوس بين ٤٠ و٤ ق.م. كانت مركز إقامة الحكّام الرومان، ثمّ أضحت كرسيّاً أسقفياً كانت له الرئاسة في فلسطين قبل أن يحتلّها العرب ٦٣٣ ولم يبق منها اليوم إلاّ انقاض.

٤ ـ **تنيس**: بلدة في مصر السفلى.

٥ ـ ابن بطريق سعيد، نظم الجوهر، طبعة بيروت (لا.ت.) ٢: ٨٢.

٦ ـ المرجع السابق ص٨٣؛ الزيّات حبيب، الروم الملكيّون في الإسلام، المطبعة البولسية (حريصا - لبنان، ١٩٥٣) ١: ٣٣.

وفي السنة نفسها "أخذ الوالي الرهبان والأساقفة وطلب منهم الجزية ومن جميع الضعفاء والمساكين والديارات التي بأسفل أرض الصعيد ومن الأساقفة والرهبان الذين في دير مينا"[١]. وفي العام ٩٣٧ ثار المسلمون بالقدس وأحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها وخرّبوا منها ما قدروا عليه"[٢]. كان ذلك في عهد خلافة الراضي باللّه العبّاسيّ (٩٣٤-٩٤٠) يوم كان الأخشيديّون مسيطرين على مصر، وقد بعث الأمير الأخشيديّ أحد قوّاده سنة ٩٣٩ الى مدينة تنيس المصريّة إثر موت بطريرك الإسكندريّة على الملكيّة سعيد بن بطريق، على رأس طائفة من الجند "فختم على كنائس الملكيّة وأحضر آلاتها الى الفسطاط وكانت كثيرة جدًّا"[٣]. وفي حوالي الوقت نفسه ثار المسلمون أيضًا بمدينة عسقلان مرّة ثانية "وهدموا كنيسة مريم العذراء ونهبوا ما فيها، وأعانهم اليهود حتّى أحرقوها، ففرّ أسقف عسقلان إلى الرملة وأقام بها حتّى مات"[٤].

قبل نهاية الألف الأوّل بقليل بدأت مصر زمن تحوّل مهمّ في تاريخها، إذ أضحت قاعدة الخلافة الفاطميّة الفتيّة منذ سنة ٩٧٣ يوم انتقل إليها من المهديّة، عاصمة تلك الخلافة حتّى ذلك التاريخ، الخليفة الفاطميّ الثالث المعزّ لدين اللّه (٩٥٢-٩٧٥) حيث كان قائده المظفّر، قد أسّس عاصمة جديدة للحكم الفاطميّ هي مدينة القاهرة؛ ومن القاهرة سوف تتّسع سلطة الفاطميّين الشيعة بعد وقت قصير إلى أوسع مداها، لتشمل المنطقة الممتدّة من المحيط الأطلسيّ إلى البحر الأحمر، إضافة إلى الحجاز واليمن وسورية حتّى الموصل[٥].

---

١ - ابن بطريق، مرجع سابق، ٢: ٨٣.

٢ - المقريزي، الخطط، طبعة بولاق، ٢: ٤٩٥.

٣ - المرجع السابق. ٤ - المرجع السابق.

٥ - ابن تغري بردي، ج٢، قسم٢، ص١٠؛ ابن خلّكان، ج٣، ص٥٤.

في بداية عهد الفاطميّين بمصر تعرّض المسيحيّون للعنف والإرهاب والاضطهاد. ومن المدوّنات أنّه على أثر تمكّن القائد البيزنطيّ الدومستيقوس (لاون بن برداس الفوقاس) من أسر محمّد بن ناصر الدولة في نواحي الشام سنة ٩٦٠، كانت ردّة الفعل عند المسلمين في مصر على ذلك عنيفة ضدّ المسيحيّين، "فشغب عوام مصر شغبًا عظيمًا وأغلق النصارى الكنائس في ذلك اليوم (وكان يوم أحد) وأصبح الرعاع يوم الإثنين غدوةً، وقصدوا كنيسة ميخائيل الملاك التي للملكيّة في قصر الشمع، وكسروا أبوابها وهتكوا الكنيسة ونهبوا ما ظفروا به منها. ورجعوا إلى كنيسة أبي قير، التي لليعقوبيّة بقصر الشمع، ففعلوا بها مثل ذلك ... وكذلك أيضًا كنيسة كانت لليعقوبيّة برأس الخليج على اسم السيّدة"[١].

وعندما غزا النقفور الدومستيقُس المغرب سنة ٩٦١ وفتحها وخرّب ما فيها من المساجد، كانت ردّة فعل مسلمي مصر هذه المرّة أيضًا عنفًا ضدّ المسيحيّين، وقد وردهم الخبر ليلة سبت أليعازر، "فتجمّع في الحال خلق من رعاع أهلها وقصدوا أيضًا كنيسة ميخائيل بقصر الشمع فشعّثوها وأخربوها خرابًا عظيمًا، ونهبوا كنيستَي النسطوريّة، وكنيسة مار تادرس للملكيّة، وكنيسة السيّدة المعروفة بكنيسة البطريرك، وشعّثوها أيضًا، وكانت يومئذ في يد اليعقوبيّة... وقد بقيت كنيسة ميخائيل مغلقة خرابًا مدّة طويلة وأبوابها مطمورة بالتراب لأنّ المسلمين منعوا فتحها وقلع الردم عنها"[٢].

حاول الخليفة الفاطميّ الخامس العزيز بالله (٩٧٥ ـ ٩٩٦) أن يستوعب النصارى من خلال تولية بعضهم، فولّى عيسى بن نسطوريوس النصرانيّ الوزارة، وجعل أبا

---

١ ـ الأنطاكي يحيى بن سعيد، كتاب الذيل (طبعة بيروت، لا.ت.) ص١١٦.

٢ ـ المرجع السابق ص١١٧ – ١١٨.

الفتح منصور النصرانيّ طبيبه وأنزله منزلة سامية في الدولة[1]، وكثر عدد الذميّين من النصارى واليهود في الدواوين ومناصب الحكم، واستأثروا بشيء كثير من السلطة والنفوذ، وكانت زوجة العزيز، أمّ ستّ الملك، جارية روميّة أرثذوكسيّة، وكان لستّ الملك خالان رفعهما العزيز بتدخله في شؤون الكنيسة إلى أعلى المناصب الإكليريكيّة، فجعل أحدهما: أورسطيُس بطريركًا على أورشليم سنة ٩٨٤، والآخر: أرسانيُس متروبوليتًا على القاهرة ثمّ بطريركًا على الإسكندريّة[2]. إلاّ أنّ هذه السياسة لم تمنع من استمرار ما كان حاصلاً على أيدي الرعاع من ردّات فعل ضدّ المسيحيّين. فعندما شبّت النار في الأسطول الفاطميّ سنة ٩٩٦ وأتت على معظمه، وهو راسٍ على شواطىء مصر "حمل البحريّون السلاح واتّهموا الروم والنصارى وكانوا مُقيمين بدار مانك بجوار الصناعة التي بالمقس، وحملوا على الروم هم وجماعة من العامّة معهم فنهبوا أمتعتهم وقتلوا منهم مئة رجل وسبعة رجال، وطرحوا جثثهم في الطرقات وأُخذ من بقي فحبس بصناعة المقس"[3]، ونُهبت كنيسة ميخائيل التي للملكيّة بقصر الشمع، وأُخذ منها رحل وآنية ذهب وفضّة ما يساوي جملة كثيرة، وشعّثت الكنيسة، ونهبت كنيسة النسطوريّة وجرح أسقف بها لهم جراحات مات منها"[4].

يتّضح من تلك الممارسات أنّ السياسة التي حاول الخليفة الفاطميّ الخامس اتّباعها بهدف استيعاب النصارى لم ترق للشعب المسلم، وممّا يعزّز هذا الاستنتاج أنّه بينما كان الخليفة يومًا يجري على بغل سريع، ألقت امرأة مسلمة في طريقه لوحة كُتب

---

١ - إبن العبري، مختصر الدول، ص ٣١٦.

٢ - الأنطاكي، مرجع سابق، ص ١٦٤، ١٦٥، ١٨٥، ٢٩٨؛ المقريزي، الخطط، ٤: ٣٩٨.

٣ - المقريزي، الخطط، ٢: ١٩٥-١٩٦.

٤ - الأنطاكي، مرجع سابق، ص ١٧٨-١٧٩.

عليها: "بالّذي أعزّ اليهود بمنشا[١]، والنصارى بابن نسطور[٢]، وأذلّ المسلمين بك. ألا نظرت في أمري؟"[٣].

وينتهي الألف الأول في عهد الخليفة الفاطميّ السادس: الحاكم بأمر اللّه، أو الحاكم بأمره (٩٩٦-١٠٢١) الذي أنهى الألف الأوّل بشيء من مسالمة المسيحيّين، إلاّ أنّه بدأ الألف الثاني بإذلالهم بشكل لم يسبق له مثيل.

ويمكن وصف نهاية الألف الأول في هذه المنطقة من العالم بأنّها كانت "حافلة بفوضى سياسيّة، وتفسّخ اجتماعيّ، وتشاؤم فكري، وتشكّك دينيّ"[٤]. وهذا ما جعل أبا العلاء المعرّي: الشاعر الفيلسوف الضرير (٩٧٣-١٠٥٧) ينشد متحسّرًا:

هفَت الحنيفةُ والنصارَى مَا اهتدَت ويهودٌ حارَت والمجُوس

إثنان أهلُ الأرضِ: ذو عقلٍ بلا دينٍ، وآخر ديّنٌ لا عقل له[٥].

---

١ ـ منشا: هو منسّا بن ابراهيم، رجل يهودي أنابه الخليفة عنه في سورية.

٢ ـ ابن نسطور، هو الوزير النصراني عيسى بن نسطور الذي سبق الكلام عنه.

٣ ـ ابن تغري بردي، مرجع سابق، ج٢، ق٢ن، ص١٤ أبو الفداء، ٢: ١٣٨؛ السيوطي، ص ١٤.

٤ ـ حتّي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢١٤ ـ ٢١٥.

٥ ـ زند عزيز، لزوم ما لا يلزم او اللزوميات (القاهرة، ١٨٩١-٩٥) ٢: ١٩١.

فِي ظِلِّ
الخِلافَةِ الفَاطِمِيَّة

كان المسيحيّون واليهود، بشكل عام، على خير حال في ظل الخلافة الفاطميّة، باستثناء عهد الحاكم بأمره الذي عاد فأجرى عليهم التدابير التي كان المتوكّل (٨٤٧-٨٦١) قد فرضاها عليهم، ثمّ أضاف اليها بعض التدابير الأخرى، مع أنّ والدته ووزيره كانا مسيحيّين[١].

قسّم دارسو الحاكم شخصيّته إلى أربعة أطوار:

الأوّل: من سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م. إلى سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م.، وفي هذه الحقبة لم يكن يملك من السلطان شيئًا.

الثاني: من سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م. إلى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤ م.، حيث انتزع لنفسه سلطة كبيرة رغم صغر سنّه، أظهر في خلالها تعصبًا شديدًا للمذهب الإسماعيليّ.

الثالث: من سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م. إلى سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م. حيث تخلّى عن سياسة التعصّب واتّبع سياسة التسامح مع جميع الأديان والطوائف.

الرابع: من سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م. إلى سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م. حيث تقلّبت شخصيّته في أطوار عدّة، ولكنّه في هذه المرحلة تمكّن من إقرار الأمن وقضى على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده[٢].

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٢١، مستنداً الى: إبن خلّكان، ٢: ٥؛ سعيد بن البطريق، ص ١٩٥؛ المقريزي، ٢: ٢٨٨؛ إبن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، نشر فندرهيدن (الجزائر،١٩٢٧) ص ٥٤؛ الأنطاكي، كتاب الذيل، ص١٨٦؛ راجع الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ١٢٠ ـ ١٢٣.

هذا التقسيم، الذي جاءَ نتيجة تصرّفات الخليفة الفاطميّ السادس، من شأنه أن ينطبق على كبرى قراراته. ففي "حقبة التعصُّب" انتهى عهد التسامح الذي عاش فيه المسيحيّون واليهود طيلة العهد الفاطميّ الذي سبق الحاكم...

يُقدّر دارسو الحالة الإجتماعيّة في هذه الحقبة أنّ عدد النصارى في مصر وسورية ولبنان وفلسطين، في عهد الحاكم، أي بعد النبيّ العربيّ بنحو أربعمئة سنة، كان مساويًا لعدد المواطنين من المسلمين إن لم يفقه[1]. وإذ لم يرَ الحاكم رغبةً من قبَل النصارى في اتِّباع المذهب الذي أسّسه ودعا إليه، شجّعهم على النزوح إلى حيث كان البيزنطيّون لا يزالون مسيطرين: إلى أنطاكية وشماليّ سورية ولبنان، وقد جاء هدم الكنائس وتشديد التدابير المذلّة للمسيحيّين على ما يبدو، ضمن تلك السياسة[2]. إلاّ أنّ قسمًا كبيرًا من هؤلاء قد أصرّ على الصمود في دياره، ما جعل الحاكم يصعّد في تلك التدابير، فأمر بمعاقبة كلّ من يصنع أيّ مقدار من النبيذ في محاولة لمنع ممارسة سرّ الأفخارستيّة. فداهم الجنود بيوت النصارى وحطّموا ما كان عندهم من خوابٍ وكؤوس، وحذّروا النصارى من تقديم النبيذ في قرابينهم، فراح هؤلاء يقرّبون، عوضًا عن النبيذ، ماءً نُقع فيه عود الكرمة أو الزبيب[3].

رغم تلك الظروف الصعبة، وجد المسيحيّون في مصر وقتًا ومناسبة للاختلاف في ما بينهم، وكان موضوع الخلاف سنة ١٠٠٤ حساب عيد الفصح، فجعله البعض في يوم فصح اليهود يوم السبت في الخامس من نيسان (إبريل)، وقال آخرون أنّه يوافق يوم الأحد في السادس من الشهر نفسه. فكتب أرسانيُس بطريرك الإسكندريّة إلى أهل

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٢٢.

٢ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة، ٢: ٢٠٨.

٣ ـ الأنطاكي، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

أورشليم بما صحّ عنده جاعلاً فصح النصارى يوم الأحد في السادس من نيسان (إبريل)، فكتب أهل الشام إلى مصر مستوضحين منهم حول ما اتّفقوا عليه، فلمّا وصلت كتب أرسانيُس عيّد جميع النصارى يوم الأحد في السادس من نيسان باستثناء قوم من اليعاقبة المصريّين من أهل الصعيد، فإنّهم أصرّوا على أن يفصحوا يوم الأحد الذي يليه[١].

قبل أن يموت الحاكم بأربع سنوات ظهر في القاهرة في الثلاثين من أيّار (مايو) سنة ١٠١٧ حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزني، وكان فارسيًّا أبصر النور في زوزن ثمّ هاجر إلى مصر والتحق بخدمة الحاكم وراح يدعو إلى التوحيد. جاءت دعوة حمزة مختلفة عن دعوة الحاكم بأنّها لم تكن تكليفًا بل كانت تخييرًا[٢]. وقد تمكّن حمزة بما كان له من تأثير وسلطة على الحاكم من إبطال التدابير التي كان هذا الأخير قد أصدرها ضدّ المسيحيّين واليهود. وسوف يتعزّز وضع المسيحيّة، بعض الشيء، بعد انتقال الخلافة الفاطميّة إلى الظاهر بن الحاكم (١٠٢١ ـ ١٠٣٦) الذي عادت معه سلطة السيّدة ستّ المُلك إلى سابق عزّها[٣]. وما إن تسنّم ابنها الظاهر كرسيّ الخلافة بعد موت أبيه حتّى سارعت ستّ الملك إلى إيفاد نيقوفوُس بطريرك أورشليم الى القسطنطينيّة ليبلغ الأمبراطور باسيليُوس "بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام، ورجوع أوقافها إليها. واستقامت أمور النصارى"[٤].

---

١ ـ الأنطاكي، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٢٠٨، بالاستناد الى: عمدة العارفين، ص ٤٤ – ٤٧.

٣ ـ ست المُلك (ت ١٠٢٤): أخت الحاكم بأمر الله، كانت لها سلطة في الجزء الأوّل من حكه ثمّ كفّ يدها، أصبحت بعد اغتياله وصيّة على ابنه الظاهر مدّة أربع سنوات، اتّهمها البعض بتدبير اغتيال الحاكم، توفيت بمصر.

٤ ـ الأنطاكي، ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

إلاّ أنّ موت الحاكم لم يُنهِ الممارسات تمامًا ضد المسيحيّين. ففي عهد خليفته الأوّل: الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦) وهو الخليفة الفاطميّ السابع، تقرّر بناء سور لمدينة القدس "فخرّب المتولّون لعمله كنائس كثيرة في ظاهر المدينة، وأُخذت حجارتها، وعوّلوا على نقض كنيسة صهيون وكنائس غيرها ليحملوا حجارتها إلى السور"[1]. ولم تتمّ إعادة بناء كنيسة القيامة إلاّ في عهد الخليفة الثامن: المستنصر باللّه (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) الذي "هادن ملك الروم فاشترط عليه، هذا الأخير، أن يعمّر بيعة القيامة مقابل إخلاء الروم خمسة آلاف أسير، وقد أرسل ملك الروم مَن عمّرها وصرف عليها مالاً جزيلاً"[2].

في هذه الأثناء، كان أتباع حمزه بن علي يحاولون نشر تعاليم ملّتهم الجديدة. وقد كتب أحد هؤلاء: بهاء الدين المقتني (المتوفّي بعد سنة ١٠٤٢) رسائل لبثّ دعوته حتّى الهند والقسطنطينيّة قبل القرار بإقفال باب الدعوة. وقد جمع بهاء الدين في رسائله إلى المسيحيّين بين شخصيّتَي حمزه والمسيح، "وخاطب المسيحيّين في رسائل أخرى، وجّهها إليهم، بالقدّيسين، وبمجامع القدّيسين، راجيًا أن يحملهم بذلك على اعتناق تعليمه. وكان يضرب من الأمثال ما هو من قبل الوارد في العهد الجديد من الكتاب المقدس. وفي ذلك ما قد يشير إلى سابق صلة له بالتعليم المسيحي"[3].

عجز، في هذا الوقت، خلفاء الحاكم بأمره عن فرض الاستقرار والأمن في مصر، وعن المحافظة على السيادة الفاطميّة في المناطق التي امتدّ اليها حكم الخلافة الشيعيّة،

---

١ ـ الأنطاكي، ص ٢٧٢.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، ٩: ١٥٩.

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢١٧ ـ ٢١٨ بالاستناد الى: SYLVESTRE DE SACY, *EXPOSÉ DE LA RELIGION DES DRUZES* (PARIS, 1838) VOL. I. P. 83, N.I؛ راجع الجزء الثاني والعشرين من هذه الموسوعة.

فخسروا حلب بعد موت الحاكم بسنتين عندما انتزعها منهم المرداسيّون، وهم الآخرون من الشيعة وقد أسّسوا دولة عربيّة شيعيّة بين ١٠٢٣ و١٠٧٩ على أنقاض الدولة الحمدانيّة، انطلقت من وادي الفرات وشملت حلب ومنبج وبالس والرقّة والرحبة ثم حمص وصيدا وبعلبك وطرابلس، وامتدّت إلى عانه، وملكت جميع وادي الفرات الشاميّ. وفي سنة ١٠٧١ سقطت مدينة القدس، وهي كبرى مدن سورية الجنوبيّة التي كان قد بسط الفاطميّون سلطتهم عليها، سقطت في أيدي السلاجقة. وتبعتها سنة ١٠٧٦ مدينة دمشق. وما أن تمكّن الفاطميّون من استرجاع القدس، سنة ١٠٩٨ (أو سنة ١٠٩٦) حتّى عادوا فخسروها بعد سنة لتقع هذه المرّة في أيدٍ لم يحسب لها من حساب: أيدي الصليبيّين.

بنهاية العهد الفاطميّ الذي ترافق مع نهاية القرن الأوّل من الألف الثاني، بدت المسيحيّة في الشرق وكأنّها على مشارف المجهول. إلاّ أنّه على ما في المجهول من توتّر، فإنّه يبقى، في مثل هذه الحال، واعدًا بتغيّرات لا يمكن إلاّ أن يكون المسيحيّون، الذين عانوا ما يقارب الخمسة قرون التقهقر والذلّ والانكسار، قد أملوا فيها وعدًا، وإن حالمًا، باستعادة سيادتهم على الشرق. غير أنّ مفترق القرن الأوّل من الألف الثاني كان حاشدًا بالأحداث، وقد رافق ما أخذ يظهر من تحوّلات في مسار الأحداث، على صعيد المجابهة بين المسيحيّة والإسلام، حدثٌ قد يكون موازيًا في سلبيّته لأيّ إيجابيّة بالنسبة للمسيحيّين يمكن أن تنشأ عن أيّ حدث آخر ألا وهو: الإنشقاق العظيم في الكنيسة.

الكَنيسَـةُ الشَّرقِيَّـةُ
بِدَايةَ الألفِ الثَّانِي

عانت الكنيسة الجامعة في العهد الفاطميّ من ضربات مؤلمة للأبرشيّات الأنطاكيّة الجنوبيّة، كما عانت، في الوقت نفسه من تدخّل بعض الأباطرة في شؤونها، كما حصل مع البطريرك الأنطاكيّ يوحنّا الخامس (٩٩٣ ـ ١٠٢٢) على يد الأمبراطور باسيليُوس الثاني الذي حاول فرض "إصلاح كنيسة أنطاكية على طراز كنيسة الحكمة الإلهيّة في القسطنطينيّة، ما اضطرّ البطريرك إلى التنحّي عن الكرسيّ لبعض الوقت، وبالتالي اضطرار خلفه نيقولاوُس الثالث (١٠٢٥ـ١٠٣١) إلى التنازل عن بعض الامتيازات التي تمتّعت بها كنيسة أنطاكية مقابل بقائه على السدّة البطريركيّة"[١].

كانت أنطاكية في هذه الحقبة حجرًا بين الشاقوف الإسلاميّ من جهة، والشاقوف القسطنطينيّ من جهة ثانية. فلقد كانت القسطنطينيّة هي المسيطرة على تلك الكنيسة المستقيمة الرأي التي تعتبر المرجع لكنائس سورية ولبنان، باستثناء الكنيسة المارونيّة التي كانت قد أضحت علاقتها مباشرة بروما، والكنائس غير الخلقيدونيّة التي كانت قد استقلّت بذاتها، كالكنيسة النسطوريّة والكنيسة اليعقوبيّة. وهكذا فعندما مات البطريرك يوحنّا الخامس سنة ١٠٢٢ بقي الكرسيّ الأنطاكيّ خاليًا مدّة ثلاث سنوات ونصف. ثم تمّ انتخاب خلف له: نيقولاوُس الثالث سنة ١٠٢٥ بطريركًا على أنطاكية، صُلّي عليه في القسطنطينيّة. ويُلاحظ أنّ جميع البطاركة الذين تسلّموا كرسي أنطاكية في هذه الحقبة من التاريخ، كانوا يُعيّنون من القسطنطينيّة، أو أنّ الصلاة عليهم كانت تحصل

---

١ - VAILHE A., (ECHOS D'ORIENT 1933) P. 283; GRUMEL V., *PATRIACHES GRECS D'ANTIOCHES DU NOM DE JEAN*, (ECHOS D'ORIENT 1933) P. 284.

هناك، مثلما حصل في الصلاة على "الياس الراهب النيقوميذيّ بطريركًا على أنطاكية (١٠٣٢-١٠٣٣)"[1]، وبطرس الثالث الذي كان يعمل في البلاط الملكيّ القسطنطينيّ أمين سرّ لدى الأمبراطور رومانوس الثالث (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤) قبل أن يقدّم النذر؛ ويلتحق بكنيسة الحكمة الإلهيّة، ليُرقّى لاحقًا إلى رتبة البطريركيّة على أنطاكية (١٠٥٢ ـ ١٠٥٦). إلاّ أنّ بطرس الثالث هذا، حاول أن يعيد لأنطاكية استقلاليّتها، أو بالأحرى حاول أن يحرّرها من الوصاية البيزنطيّة، ومن المدوّنات في هذا المجال أنّه "احتجّ بشدّة على ترقية شمّاس أنطاكيّ في القسطنطينيّة بدون موافقة رئيسه الأنطاكيّ"[2]. كما احتجّ على توسيع النفوذ القسطنطينيّ في الولايات الأرمنيّة التي كانت تخضع لسلطة أنطاكية الروحيّة منذ القدم، وعارض إلحاح البطريرك القسطنطينيّ ميخائيل على محاولة إحلال الطقس البيزنطيّ واللغة اليونانيّة محلّ اللغة السريانيّة واللغة العربيّة في بعض الأبرشيات الأنطاكيّة[3]. وفي هذا الاعتراض دليل واضح على الحالة الشاذّة التي كانت تعانيها أنطاكية بسبب الهيمنة، أو محاولة الهيمنة عليها من قبل القسطنطينيّة، أمبراطوريًّا وكنسيًّا.

كان بطرس الثالث بطريركًا فذًّا حاول جاهدًا إعادة أنطاكية إلى سابق أهميّتها وإلى دورها الأصيل في العلاقة الرائدة بين الكنائس. فما أن تسنّم الكرسيّ الإنطاكيّ حتّى سارع إلى تعزيز علاقته بكنائس روما والإسكندريّة وأورشليم. وكانت العلاقة منقطعة تمامًا منذ أمد طويل بين روما وأنطاكية، فراسل لاون التاسع (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤) "متلهّفًا على هذا الانقطاع، متسائلاً عن سبب ابتعاد خليفة بطرس العظيم عن جسم

---

١ ـ الأنطاكي، مرجع سابق، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤.

٢ - GRUMEL V., *ECHOS D'ORIENT*, OP. CIT., PP. 140 -141.

٣ - RUNCIMAN S., ESTERN SCHISM, PP. 64 - 65.

الكنائس، وانقطاع صوته عن مجامعها، وامتناعه عن المساهمة في حلّ مشاكلها الإكليريكيّة، مبيّنًا الفائدة التي تنجم عن مثل هذا التعاون من حيث التوجيه الأخويّ الرسوليّ"[1]. وقد أدّت هذه الجهود إلى تقارب مهمّ بين روما وأنطاكية، فأصبح ذكر البابا الرومانيّ يرد في رتبة القداس الأنطاكيّة، وكذلك في أورشليم والإسكندريّة، علما بأن لاون التاسع كان قد أجاب على رسالة بطرس برسالة سلام تضمّنت تأكيد البابا بوضوح على "تقدّم روما وعصمة السدّة البطرسيّة، وعلى أنّ كنيسة روما هي أمّ الكنائس، ومحكمتها أعلى المحاكم، منبّهًا على تلبّد غيوم الهمّ والشقاق في الشرق، مشدّدًا على وجوب الدفاع عن حقوق الكرسيّ الأنطاكيّ"[2].

لقد كان هذا البطريرك الأنطاكيّ العظيم يجهد لتوحيد الكنيسة، وكأنّه كان مدركًا للخطر الذي سوف يُحدث ذلك الشرخ الرهيب في المسيحيّة. ففي إحدى رسائله إلى دومينكُس، رئيس أساقفة أكويلية (البندقية) ما من شأنه أن ينمّ عن تلك الرغبة العميقة في توحيد الكنيسة، وذلك من خلال إشارته إلى رسالة الجلوس التي وجّهها إلى البابا الرومانيّ... حتّى إذا رضي البابا بفحواها "اتّحد الجميع بنفس واحدة ليقدّموا للّه جميعًا ضحيّة واحدة"[3].

إلاّ أنّ رغبة ذلك الرائد المسيحيّ الكبير كانت، على عمقها وصدقها وحرارتها، بعيدة المنال. فالقدر كان أقوى، وكان لا بدّ من انتصار الأقدار.

في هذه الأثناء كان الأمبراطور البيزنطيّ رومانُس الثالث يعمل بجهد على إخضاع كنائس الشرق لسلطته. حتّى إنّه استدعى بطريرك السريان المونوفيزيّين

---

١ - MICHEL A., *HUMBERT UND KEROULLARIOS*, II: 437 - 452.

٢ - MICHEL A., OP. CIT., PP. 458 - 475.

٣ - راجع: P.G., VOL. 120, COL. 757; JUGIE M., *CHISME BIZANTIN*, PP. 221 - 223, N.I.

يوحنّا الذي كان يقيم في مرعش، ليشخص إليه مع مطارنته وأساقفته، وعندما حضر هؤلاء إلى القسطنطينيّة حاول الأمبراطور، عبر بطريرك عاصمته، أن يفرض على البطريرك السريانيّ نقض معتقده والالتحاق بالكنيسة الأرثذوكسيّة، وعندما بقي السريانيّ مصرًّا، مع ثلاثة من أساقفته، على المونوفيزيّة، أمر الأمبراطور بنفي البطريرك إلى المغرب، وبسجن الأساقفة الثلاثة، وقد مات الأولّ بعد ثلاث سنوات من نفيه، فأقام السريان لهم بطريركًا جديدًا ما لبث أن التجأ إلى ديار بكر من بلاد الإسلام، هاربًا من طلب الأمبراطور له، ولم يُعرف مصير الأساقفة المسجونين[1].

هذه الأحداث المشرقيّة تبقى غير ذات بالٍ نسبة إلى ما سوف يجلبه انشقاق الكنيسة إلى كنيستين: غربيّة وشرقيّة، بدءًا من منتصف القرن الحادي عشر، ذلك الانشقاق الذي كان مقدّمة لقرنَين ونيّف من صراع على أرض الشرق بين الغرب المسيحيّ والشرق المسلم. وهكذا فقد حبل القرن الأوّل من الألف الثاني بما سيضع الشرق لأمد طويل وسط بركان قلّما همد قبل أن تتقرّر عودة الشرق، إلى الشرق، وعودة الغربيّين إلى الغرب، وقبل أن تتحجّم المسيحيّة إلى ما أضحت عليه بعد انكفاء "طفرة الكبد اللاتينيّة" التي بدأت رسالة دينيّة، وانتهت صراعًا ماديًّا دنيويًّا، دفع مسيحيّو الشرق ثمنه قهرًا وذلاً وصراعًا من أجل البقاء.

١ ـ الأنطاكي، مرجع سابق، ص٢٥٢.

الكَنِيسَةُ الخَلقِيدُونِيَّةُ

كَنِيسَتَان

بقيت العلاقات بين القسطنطينيّة، عاصمة بيزنطية، وبين روما، عرضة للمدّ والجزر طوال قرون من الزمن، وكانت في كلّ أزمة تعبر وفي الأذهان أنّها لن تؤدّي إلى الانشقاق النهائيّ أو إلى الانفصال التام. وهكذا كان الانطباع في منتصف القرن الحادي عشر، عندما رشق الكاردينال همبرتو في روما في ١٦ تمّوز (يوليو) ١٠٥٤ البطريرك القسطنطينيّ ميخائيل الأوّل (١٠٤٣ ـ ١٠٥٨) بالحرم، فانفصلت الكنيسة البيزنطيّة عن الكنيسة اللاتينيّة. إلاّ أنّ التطوّر الذي سوف يحدث في الكنيسة الغربيّة، وغزو الإفرنج للشرق في ما عُرف بالحروب الصليبيّة، سيثبّت الإنفصال هذه المرّة[١].

قصّة هذا الحرم أنّه في منتصف القرن الحادي عشر، كانت لا تزال إيطالية الجنوبيّة تحت حكم الدولة البيزنطيّة. وإذ كانت جيوش النورماند[٢] تهاجم إيطالية،

---

١ ـ يتيم ميشال، تاريخ الكنيسة الشرقية، طبعة ثالثة (جونية،١٩٩١)، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥.

٢ ـ النورماند والنورمان NORMANDS: ترجمتها "أهل الشمال"، إسم أطلق على الغزاة "الفايكينغ" القادمين من بحار اسكندنافيا في القرن الثامن، احتلّوا شواطئ أوروبا، مارسوا التجارة البحريّة وتوسّطوا بين البيزنطيّين والغرب، استلم بعضهن الحكم في كييف ونوفغورود (روسيا)، اكتشفوا أيسلندة في القرن التاسع، انصرفوا إلى القرصنة، سكنوا نورماندي طبقًا لمعاهدة ٩١١ ومنها احتلّوا بريطانيا ١٠٦٦، دعاهم مؤرّخو العرب في الأندلس الأردمان، كما أطلق عليهم عامّة إسم المجوس.

تحالف البابا لاون التاسع (١٠٤٩ ــ ١٠٥٤) مع ملك القسطنطينيّة قسطنطين التاسع مونوماكس (١٠٤٣ ـ ١٠٥٥)، وكان على سدّة البطريركية في القسطنطينية آنذاك ميخائيل كيرولاريُس (١٠٤٣ ـ ١٠٥٩) الذي رأى في هذا التحالف السياسيّ بين الملك والبابا إمكانيّة اتّفاق دينيّ، من شأنه أن يحطّ من أهمّيّة بطريرك القسطنطينيّة. وكان هذا البطريرك متحدّرًا من أسرة شريفة تمثّلت مرارًا في مجلس الشيوخ القسطنطينيّ، والتحق بسلك الإدارة المدنيّة، وقام بنشاطات سياسيّة، وينسب إليه أنّه تزعّم حركة إنقلابيّة سنة ١٠٤٠ استهدفت الأمبراطور ميخائيل الرابع، طامحًا بالعرش[١]، ذلك قبل أن يقدّم النذر ويلبس الإسكيم[٢]. وقد وصل إلى السدّة البطريركيّة عن طريق تقرّبه من قسطنطين التاسع، فأضحى البطريرك المنتظر، نظرًا لما كان للأمبراطور من تأثير في وصول الأساقفة إلى السدّة البطريركيّة في القسطنطينيّة، وهذا ما حصل فعلاً عندما توفّي البطريرك ألكسيُس في ٢٠ شباط (فبراير) ١٠٤٣. ثمَّ سعى هذا البطريرك الطّموح إلى تقديم نفسه على بطاركة الشرق وإلى تزعّم الكنيسة الشرقيّة، فأوجب توحيد الطقوس والقوانين، وتدخّل في شؤون الكنائس الشرقيّة غير الأرثذوكسيّة أيضًا محاولاً استيعابها، ثمّ مدّ طموحه نحو الكنائس اللاتينيّة الموجودة في القسطنطينيّة، فأوجب عليها ممارسة الطقوس بموجب التقليد البيزنطيّ (اليونانيّ)، ولمّا تمّ الاتفاق بين ملك القسطنطينيّة وبابا روما، وإذ كانت الكنائس اللاتينيّة قد امتنعت عن تنفيذ ما حاول هذا البطريرك فرضه عليها، أمر بإغلاقها[٣].

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله: ٢: ٢٣٢ استناداً الى: SKYLITZES (CEDRENUS), P.106;

٢ ـ المرجع السابق استناداً الى: AMANN E., *ROME ET CONSTANTINOPLE*, P. 138.

٣ ـ AMANN E., OP. CIT., VII: 140; HUMBERT, *BREVIS ET SUCCINCTA*, P.L., VOL. 136, COL. 1002.

لم يكتف بطريرك القسطنطينية ميخائيل بهذا التدبير، كردّة فعل على ذلك التحالف، بل راح يُهاجم الكنيسة اللاتينيّة وينتقد بعض عاداتها وتقاليدها السائدة، من مثل استعمال الفطير، وصوم السبت، وأكل الدم والمخنوق وغير ذلك، وأوعز إلى لاون، متروبوليت أخريده ورئيس أساقفة البلغار، أن يبعث برسالة إلى أحد الأساقفة اللاتين في إيطالية الجنوبيّة، وهو يوحنّا أسقف تراني، ينتقد فيها الطقوس والعادات اللاتينيّة ويأمر بالكفّ عنها. وكانت لهجة تلك الرسالة عنيفة جدًّا، من مثل قوله: "مَن يصوم السبت ويقدّس على الفطير ليس يهوديّا ولا وثنيًّا ولا مسيحيًّا وإنّما هو شبيه بجلد النمر المرقّط"[1].

إطّلع الحاكم البيزنطيّ لجنوب إيطالية على مضمون الرسالة، فكتب إلى قسطنطين يرجوه أن يمنع الخصومات الدينيّة في تلك الأوقات الحرجة، فالنورمانديّون كانوا قد أسروا البابا ووضعوه في إقامة جبريّة، وقد وصلت الرسالة المذكورة إلى أسقف مدينة تراني الذي أطلع سكرتير البابا هومبرتو مورموتير[2] عليها، وقد كان هذا الأخير في طريقه إلى تفقّد البابا في إقامته الجبريّة آنذاك، بعد حصوله على الإذن له بذلك من النورماند، فحمل الرسالة معه، فكانت ردّة فعل البابا المعتقل على تلك الرسالة، في ذلك الظرف العصيب، عنيفة جدًّا، فاستشاط غيظًا وأمر بالردّ عليها عبر رسالتين تُوجّه إحداهما إلى الأسقفين: ميخائيل القسطنطينيّة ولاون إخريده، وتحفظ الثانية بلا عنوان كوثيقة تحمل ردّ التهم الموجّهة إلى الكنيسة اللاتينيّة[3].

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٢٣٤.

٢ - HUMBERT DE MOURMOTIERS, CARDINAL DE SYLVA CANDIDA

٣ - LEON IX, *EPISTOLA AD MICHAELIM CONSTANTINOPLITANUM*, P. L., VOL. 143, COL. 744 -769; *ADVERSUS GRAECORUM CALUMNIAS*, P.L. VOL. 143, COL. 931-974.

جاءت رسالة روما موازية في العنف للرسالة التي كان الردّ عليها، فاعتبرت الأسقفَين ميخائيل ولاون أحمقَين، لأنّهما تجاسرا فحكما على السدّة الرسوليّة التي لا يستطيع أحد من المئتين أن يحاكمها.

في هذه الأثناء تجاوب الملك قسطنطين مع الحاكم البيزنطيّ لجنوب ايطالية، فأرسل إلى البابا كتابًا ضمّنه الولاء، وأجبر البطريرك ميخائيل على إرسال كتاب آخر من قبله، فكان هذا الكتاب "رقيقًا أوضح فيه البطريرك هذه المرّة عن رغبته في الوئام والاتّفاق، راجيًا فيه البابا أن يذكر اسمه في ذبتيخة روما، مقابل ذكر البابا في ذبتيخة القسطنطينيّة، ولكنّه حيّا الحبر الأعظم على أنّه أخ لا أب، ووقّع بصفته بطريركًا مسكونيًّا لا بصفته بطريرك القسطنطينيّة فقط".

ردّ البابا لاون التاسع على الرسالتَين برسالتَين بعث بهما مع ثلاثة نوّاب يرئسهم الكاردينال هومبرتو، وقد هال البابا أن يقدم بطريرك القسطنطينيّة على مناداته كأخ، وعلى تلقيب نفسه بالبطريرك المسكونيّ، وهكذا فعندما وصل الوفد الرومانيّ إلى القسطنطينيّة أواخر سنة ١٠٥٤، قصد الملك أوّلاً ثمّ عرّج على البطريركيّة، حيث عامل البطريرك معاملة فوقيّة، دافعًا له رسالة البابا دفعًا، فاعتبر البطريرك هذا العمل مُهينًا[١]، وامتنع عن الاعتراف بصلاحيّة الوفد المفاوض، وأبى أن يشترك مع أعضائه. فاستخلص الكاردينال هومبرتو أنّ البطريرك ميخائيل غير مستعدّ للاتّفاق مع روما. وهكذا تفاعل الموضوع حتّى جاء يوم السبت الواقع فيه ١٦ تمّوز (يوليو) ١٠٥٤، وكان البابا لاون توفّي قبل ثلاثة أشهر، فدخل هومبرتو كنيسة آجيا صوفيّة في القسطنطينيّة، ووضع صكّ حرم ميخائيل على المذبح الأوسط أمام الإكليروس

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٢٣٧، استناداً ال: EPIST. CERULARIE AD. *PETRUM ANTIOCHENUM,* P.G., VOL. 120, COL. 785 -788.

والشعب، وجمع بطريرك القسطنطينيّة بدوره أعضاء "المجمع الدائم" يوم الأحد المصادف ٢٤ تمّوز (يوليو) ١٠٥٤ ورشق الصكّ بالحرم، وبتراشق الحرمين انفصلت الكنيسة البيزنطيّة عن الكنيسة اللاتينيّة[١].

في هذه الأثناء، كان بطريركًا على أنطاكية: بطرس الثالث، الذي سبقت الإشارة إلى مدى سعيه لتوحيد الكنيسة، وقد حاول ميخائيل كيرولاريُس استمالة بطريرك أنطاكية إلى جانبه، فأرسل اليه كتابًا ينتقد فيه العادات اللاتينيّة، "تألّم بطرس لهذه التصرّفات العنيفة، وكتب إلى البطريرك القسطنطينيّ رسالة تميّزت بسموّ العاطفة المسيحيّة والمحبّة الأخويّة، مبيّنًا له أنّ هذه العادات إنّما أمور ثانويّة، وأنّ بعضها موجود عند الروم أنفسهم، فهي لا تدعو إلى الانفصال، وأنّ الكنيسة اللاتينيّة لا تزال في طور البربريّة، فالمحبّة الأخويّة تأمر الروم بأن يعطفوا على إخوانهم اللاتين، ويسامحوا جهلهم وخشونتهم، ويرجوه في النهاية أن يعود إلى الوئام والاتّحاد. إلاّ أنّ جهود هذا البطريرك قد ذهبت سدى. فوقع المحظور بانفصال الكنيسة البيزنطيّة عن الكنيسة اللاتينيّة. أمّا الكنائس الملكيّة فلم تشترك مباشرةً في الخلاف، وظلّت العلاقات قائمة بينها وبين روما على قدر ما كانت تسمح به الظروف آنذاك. ولم يتأصّل الإنفصال في البطريركيّات الملكيّة إلاّ بعدما تسلّم زمام إدارتها الروحيّة الإكليروس القسطنطينيّ"[٢].

لم يسِر خلفاء بطريرك أنطاكيّة بطرس الثالث على خطاه في محاولاته التوحيديّة، بل إنّ خلفه ثيودوسيُس انضمّ إلى حاشية البطريرك القسطنطينيّ الثائر ضدّ البابا، ما ألزم أنطاكية بالإنفصال، وجرّ ثيودوسيُس معه رؤساء الأساقفة والأساقفة الذين كانوا

---

١ - يتيم، مرجع سابق، ص٢٠٣ - ٢٠٥.

٢ - يتيم، مرجع سابق، ص٢٠٥.

خاضعين لسلطته[1]، وقد نتج عن خضوع بطاركة أنطاكية لسلطات بيزنطية الدينيّة والسياسيّة إمتداد الإنفصال إلى الروم الأنطاكيّين كافّة، وبقي الموارنة وحدهم في تلك الحقبة على ارتباط بروما.

لقد كان من الراجح ألاّ يتّخذ هذا الانشقاق، الذي نتج أصلاً من خصام شبه شخصيّ، الحجم الكبير الذي اتّخذه، والمسار الطويل ، الذي ثبت عليه، لو لم تتفجّر نهاية القرن الأوّل من الألف الثاني في الشرق، بركانًا لم يكن في الحسبان، سوف يطبع أحداث أرض منشأ الديانات الإبراهيميّة الغنيّة بالأحداث بعنوان: الحقبة الصليبيّة.

---

١ - DICTIONNAIRE DE THEOLOGIE CATHOLIQUE, IA, 1409.

الفَصْلُ السَّادِس

إنعِكَاسَات

الحَملاتِ الصَّليبيَّة

خَلفيَّاتُ الحَملاتِ الصَّليبيَّة

بدَايَةُ الحَملاتِ الصَّليبيَّة . تَداعِيَاتُ الحَملاتِ الصَّليبيَّة

عَودَةُ الشَّرق إلَى الشَّرق

إنْعِكَاسَاتُ الحَملاتِ الصَّليبيَّة عَلَى الكَنَائِسِ الشَّرقيَّة

خلفيّات الحملات الصّليبيّة

إنّ من يتوسّع في دراسة تاريخ الأرض التي كانت مسرحًا للحروب الصليبيّة، لا بدّ له من أن يضع في الحسبان العديد من الخلفيّات التي اشتركت في إيجاد المناخ المناسب لغزو الإفرنج هذه البلاد. وفي علميْ التاريخ والسياسة، كما في عدد كثير من العلوم، لا يصحّ حصر الأسباب المؤدّية إلى الغزو الصليبيّ في موقف البابا أوربانُس الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) أو دعوة هذا البابا أو خطبته، في السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٠٩٥ في مدينة مارمونت في جنوب فرنسا التي "حثّ فيها المؤمنين على سلوك الطريق إلى كنيسة القيامة لانتزاعها من أيدي الغاصبين، والاحتفاظ بها لأنفسهم"[١]، على أنّ ذلك كان السبب الأوحد أو المحرّض اليتيم الذي جعل الغرب اللاتينيّ المسيحيّ يهبّ لاجتياح الشرق. بل إنّ المحرّضات والأسباب لهذا التحوّل التاريخي البالغ الأهميّة كانت ذات جذور عميقة في التاريخ، إضافة إلى أنّها كانت، على تعدّدها، كثيرة التتابع والترابط. حتى أنّ تلك الأسباب والدوافع، إذا لم نقل المحرّضات، لم تكن بمجملها دينيّة: مسيحيّة إسلاميّة، وحسب، بل كانت في جزء، أو في بعض كثير منها، بعيدة كلّ البعد عن الدين، وعن القدس، وعن كنيسة القيامة، وعن كلّ ما هو لاحق لمجيء المسيح.

---

١ ـ راجع الجزءين العاشر والحادي عشر من هذه الموسوعة.

منذ الحرب التي نشبت بين طروادة: المدينة الشرقيّة في آسية الصغرى، والإغريق: اليونان الغربيّين، كان الشرق كما كان الغرب أحيانًا، مسرحًا لحروب بين هذَين المقلبَين من الأرض. ففي القرن الخامس قبل الميلاد، بدأت تلك السلسلة من المنازعات عندما هاجم داريُس الأوّل ملك الفرس (٥٢١ - ٤٨٦ق.م.) موطن الإغريق على الأرض الأوروبيّة، وكذلك فعل ابنه أحشورش XERXES (ملك٤٨٦ - ٤٦٥ق.م) الذي دمّر أثينا. وقد "أعاد لهما الزيارة الإسكندر المقدوني ذو القرنين (٣٥٦ - ٣٢٤ق.م). ومن بعد خلفائه، جاء الرومان... ثم بدأت السلسلة الثانية من المنازعات بين الشرق والغرب بظهور الإسلام، وشعاره: نشر الدين الجديد، فقضى على السيطرة الغربيّة التي دامت ألف سنة (٣٣٠ق.م. - ٦٤٠م.) في هذه المنطقة، وراح يهدّد أوروبّا في مؤخّرتها: من الأندلس، وفي أواسطها: من صقلّية، وفي مقدّمتها: على أيدي السلاجقة الذين كانوا يطمعون بالاستيلاء على القسطنطينيّة. فكانت ردّة الفعل حروبًا قام بها أوروبّيون يحملون صلبانًا خيطت على ملابسهم"[١]، ولذلك عُرفوا بالصليبيّين.

تلك الصراعات، بين الشرق والغرب، بديهيّ ألاّ تكون في أيّ من فصولها، وليدة الصدفة. بل كان لكلّ فصل ظروفه المؤاتية. أمّا الظروف التي آتت فصل الاجتياح الغربيّ للشرق في ما عُرف بالغزو الصليبيّ، فعديدة.

لا شك في أنّ الواجهة المباشرة للحروب الصليبيّة، كانت ردّة فعل في العالم المسيحيّ ضد الإسلام، تُرجمت بقيام أوروبّا المسيحيّة على آسية الإسلاميّة، التي كانت قد اتّخذت خطّة الهجوم منذ الفتح الإسلاميّ الذي بدأ سنة ٦٣٢، وراح يتقدّم حتّى تخطّى الشرق إلى إسبانيا وصقلّية الغربيّتَين.

---

١ - بولس، التحولات، ص٢٤٤ - ٢٤٥؛ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص١٦١ - ١٦٢.

في هذا الإطار، يندرج أيضًا جملة من العوامل المحرّضة لانبعاث النزعة الدينيّة في حالة ثأريّة عند مسيحيّي الغرب، منها إقدام الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمره، على هدم كنيسة القيامة في القدس سنة ١٠٠٩، وهي المحج المقدّس الذي كان الغربيّون المتديّنون قد اعتادوا على تكبّد عناء الحجّ إليه تبرّكًا. وقد زاد في هذا المحرّض البالغ الأهميّة، إقدام السلاجقة على وضع الصعوبات في طريق الحجّاج بخلال مرورهم في آسية الصغرى وهم في طريقهم إلى القدس. كلّ هذه العوامل، كانت مثيرة للعاطفة الدينيّة، التي تأجّجت في قلوب أصحابها، عندما تكرّر طلب النجدة من الغرب من قبل مسيحيّي الشرق، بشخص الأمبراطور البيزنطيّ ألكسيُس كومنينُس، الذي أرسل إلى البابا أوربانُس الثاني مُستنجدًا سنة ١٠٩٥، إثر اكتساح السلاجقة مناطق البيزنطيّين الآسيويّة وصولاً حتّى بحر مرمرة، وأضحت جيوشهم تهدّد القسطنطينيّة نفسها.

في هذه الأثناء، كان التفكّك ضاربًا في الوحدة الاسلاميّة، فقد كان السلاجقة الأتراك والتركمان، من أهل السنّة، يسيطرون تمامًا على آسية الصغرى وسورية الشماليّة، بينما كانت مصر وفلسطين وسورية الجنوبيّة خاضعة لسيطرة الفاطميّين الشيعة. وتحت هذَين الحكمَين، وعلى هوامشهما، كانت تقوم إمارات ودويلات متعدّدة الإنتماءات المذهبيّة الإسلاميّة، وكانت غالبًا في حالة تصارع، جرّاء العداء والتنافس على السلطة، والتنابذ بسبب "مشاكل التعاقب على الحكم بين هؤلاء الحكّام والأمراء المنشقّين، ما أدّى إلى فوضى سياسيّة وإلى حالة من الاضطراب الدائم"[١].

في الوقت نفسه، كانت المنطقة الجبليّة ملجأ لمختلف الفرق الإسلاميّة المنشقّة عن السنّة، إضافة إلى أتباع الكنائس المسيحيّة المختلفة. فكان من تلك الفرق: العلويّون

---

١ - بولس، التحولات، ص ٢٤٧.

بالقرب من اللاّذقيّة، والحشّاشون من الإسماعيليّة بالقرب منهم إلى الشرق، والدروز في جنوب الجبل اللبنانيّ، والشيعة بالقرب منهم جنوبا وفي طرابلس. ومن الكنائس المسيحيّة المستقلّة بنوع من الحكم الذاتيّ، كان الموارنة في شمال لبنان. وبعيدا عن هذه التقسيمات الدينيّة والمذهبيّة، زاد في حدّة هذه الفوضى داخل ما كان، قبلاً، يشكّل الأمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة، ذلك السيل المستمرّ من الأعراب البدو، الذين كانوا يهجرون الصحراء ليستقرّوا في المناطق الزراعيّة أو في المواقع العسكريّة. أضف إلى ذلك سيلاً آخر من الأكراد، ومن التركمان، كان يتدفّق للانخراط في جيش الأمير الحاكم الذي يمنحهم خير جزاء[1].

تلك التجزئة المشوبة بالفوضى السياسيّة، جعلت الناس، وقد عانوا الذلّ والفقر طوال قرون بسبب الجور العبّاسيّ والفاطميّ والسلجوقيّ والتركيّ، لا يبالون بتبدّل من يسود، خاصّة بعد أن كان الجند في الخلافتَين: الشيعيّة الفاطميّة، والسنيّة العباسيّة، قد غدا بأكثريّته الساحقة من أولئك المرتزقة المغامرين الغرباء، الذين أصبحوا يسيطرون على الأراضي الزراعيّة التي كان السلاطين والأمراء يمنحونها هبة لهم، بعد انتزاعها من أيدي مستثمريها من العرب ومن السكّان الأصليّين[2].

في هذه الأجواء، انطلق الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد تمكّنوا من تبطين الخلافة العبّاسية بسلطتهم الفعليّة، انطلقوا، بطبيعتهم المحاربة، ليُشعلوا حروبًا كان العرب قد كفّوا عنها منذ أمد بعيد، وبدا وكأنّ ممتهني الحرب هؤلاء، قد أخذوا على عاتقهم غزو الروم تحت شعار الإسلام. وسرعان ما سيطروا على أرمينيا سنة ١٠٦٤، ثم تغلّبوا،

---

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٣٤٢.

١ ـ راجع: LAMMENS H., *LA SYRIE*, I: 208 - 209.

بقيادة ألب أرسلان، على البيزنطيين بقيادة الأمبراطور رومانس الرابع سنة ١٠٧١ في معركة ملاذجرت[١]، وأسر القائد السلجوقيّ الأمبراطور نفسه، فانفتحت أمام السلجوقيّين الأتراك أبواب آسية، وأسّسوا فيها سلطنة الروم، بعدما احتلّوا بين ١٠٧٨ و١٠٨١ مدنًا داخلية كأيقونية، وثغورًا متطرّفة كإزمير، وسبحت خيولهم في مرمرة، وراحوا يترقّبون الفرصة للعبور إلى تراقيا[٢] وأوروبّا، بعد أن تشتّت جيش البيزنطيّين تمامًا، وقد كان هذا الاندحار البيزنطيّ من أسوأ الكوارث، لأنّ البلقان كانت قد أصبحت صقليّة، واليونان كانت قد خلت من السكّان وافتقرت، ولأنّ آسية الصغرى وحدها كانت معقل الروح الهلينيّة، فمنها كان الأمبراطور يجمع جيوشه، وفيها كان يجد أكبر قوّاده وأنشط ضبّاطه، وأسوأ ما كان في أمر اجتياح الأتراك أنّ فتحهم لم يقتصر على السلطة والسياسة، بل تعدّاهما إلى استملاك الأرض، فحلّ القرويّ التركيّ محلّ القرويّ اليونانيّ، فأضاعت الهلينيّة قواعدها ومكانتها بشكل لم يسبق له مثيل[٣].

تزامنت هذه الأحداث مع وجود أمبراطور بيزنطيّ راغب في إعادة وحدة الكنيسة، هو ألكسيُس كومنينُس (أمبراطور ١٠٨١ ـ ١١١٨)، ووجود بابا يولي الكنيسة الجامعة كلّ اهتمامه ويرعاها بعناية مستمرّة، وهو أوربانُس الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩). وكانت الإتّصالات متواصلة بين البابا والأمبراطور الذي تصدّى لهجمات الأتراك السلجوقيّين في الأناضول والنورمان في الأبيروس[٤]، وكان ينقل إلى البابا مخاوفه من

---

١ ـ ملاذجرت أو ملاذكرد MALAZGIRT : مدينة في شمال شرقي تركية على مقربة من بحيرة وان، كانت تدعى قديماً مانتزيكرت، قاعدة أرمنيّة هامة، ثم عاصمة لإمارة عربية في القرن التاسع، إحتلها البيزنطيّون ١٠٠١ قبل ان تقع فيها هذه المعركة.

٢ ـ تراقيا: منطقة في جنوب أوروبة الشرقية، تتقاسمها منذ ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ اليونان (تراقيا الغربية) وبلغاريا (تراقيا الشمالية أو روملي الشرقية) وتركية (تراقيا الشرقية وأهم مدنها استنبول).

٣ ـ رينيه غروسيه، رصيد التاريخ، ٢: ١٠٦ ـ ١٠٩.

٤ ـ إبيروس EPIROS: منطقة في بلاد اليونان القديمة جنوبي مقدونية، ألّفت مملكة مستقلة بعد الاسكندر، من أشهر ملوكها بيروس الثاني (٣١٨ ـ ٢٧٢ق.م).

تفاقم الشرّ في آسية الصغرى وتزايد عدد الأتراك فيها وانتشارهم في سهولها ووديانها. وهذا ما اعتبره المؤرّخون نداءات متتالية من الأمبراطور إلى البابا، وصفها بعضهم بالاستنجاد والاستغاثة. تزامن كلّ هذا مع إقدام رعاع التركمان وأمثالهم على العيث بأرض الشرق فسادًا يقتلون وينهبون، ينتهكون حرمة الكنائس في أثناء الصلوات، حيث يجلسون على الموائد المقدّسة ويهينون الكهنة، ويخرّبون الكنائس[١]. كلّ هذه الأعمال وصلت إلى مسمع البابا عن طريق الحجّاج الغربيّين الذين خبروها بأنفسهم واضطروا في بعض الأحيان إلى أن يقاتلوا للوصول إلى القبر المقدّس.

لم تقتصر الفوضى في فلسطين إبّان تلك الحقبة على كلّ ما ذكر، وعلى تعرّض المسيحيّة والمسحيّين للإذلال والإهانة، بل إنّ السكان من أهل البلاد، إلى أيّ دين انتموا، كانوا، كما سبق وذكرنا، عرضة لامتهان الحقوق وللجور، فكان النزاع حاميًا بين السلاجقة السنّة والفاطميّين الشيعة وقد شهد مذابح رهيبة، وكانت أورشليم، بشكل خاص، هدفًا لنزاع مستمرّ بين السلاجقة والفاطميّين أحيانًا، وبين السلاجقة أنفسهم أحيانًا أخرى، ما أحلّ ضيقًا شديدًا بالمسيحيّين. واضطّر البطريرك سمعان الأورشليميّ إلى أن يهرب مع كبار رجال الإكليروس إلى جزيرة قبرص[٢].

مع تفاقم هذه الأحداث، أرسل الأمبراطور ألكسيُس إلى إيطاليا لجنة عسكريّة بيزنطيّة مهمّتها حضّ المسيحيّين على الجهاد في سبيل الدين، كان ذلك في آذار (مارس) ١٠٩٥ حيث صدف أن كان البابا أوربانُس الثاني قد دعا إلى مجمع لمعالجة موضوع الإنشقاق في بيانشينزا PIACENZA. وهناك دعا البابا اللجنة العسكريّة البيزنطيّة

---

١ - GROUSSET R., *HISTOIRE DES CROISADES*, I: 2; CLAUDE CAHEN, *LA SYRIE DU NORD À L'ÉPOQUE DES CROISADES* (PARIS, 1940) P. 199; WILLIAM OF TYRE, VOL. I: 47.

٢ - GROUSSET R., I: 47.

إلى ارتقاء منبر المجمع ونقل ما لديهم إلى الأساقفة. وقد صُعق الأساقفة الحاضرون لِما سمعوه من أفواه أعضاء ذلك الوفد عمّا كانت تعانيه المسيحيّة في الشرق من اضطهاد مخيف، يهدّد بشكل جدّي المسيحيّة في أرض منشئها[1]. وقد وقع هذا النداء الملحّ في نفس البابا أوربانُس موقعًا عظيمًا. وإذ كان من المقرّر عقد مجمع في مدينة كليرمون CLERMONT الفرنسيّة للبحث في شؤون كنيسة فرنسا، إنتقل البابا إلى هناك في آخر الصيف حيث استقبله الفرنسيّون بمنتهى التكريم والإجلال، علمًا بأنّه من أصل فرنسيّ، وأحد عظماء بلادهم.

كان نداء البيزنطيّين لا يزال يضجّ في نفس أوربانُس الثاني عندما وصل إلى جنوب فرنسا حيث راح رهبان كلوني[2]، ينقلون إليه مشاهداتهم المروّعة عن شؤون الحجّ والحجّاج. ويعتبر بعض المؤرخين أنّ البابا قد اتّصل من هناك بريمون كونت تولوز وتباحث معه في أمر الشرق.

في هذه الأجواء وصل أوربانُس الثاني إلى كليرمون حيث عُقد المجمع بين الثامن عشر والثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر). وبعد إنجاز جدول أعمال المؤتمر، وفي اليوم ما قبل الأخير من أيّام المجمع (٢٧ تشرين الثاني - نوفمبر-) أعلن عن عزمه على إلقاء بيان هامّ وأباح الحضور للجمهور.

إعتلى البابا أوربانُس الثاني، بكلّ جلال ووقار، المنصّة المهيبة التي أُقيمت خصّيصًا للمناسبة في باحة كاتدرائيّة كليرمون، وراح، بلهجة الخطيب المفوّه، يعدّد فظائع السلاجقة الأتراك المرتكبة في الشرق، مُذكّرًا بقدسيّة أورشليم، وبوجوب الحفاظ

---

١ - HEFELÉ - LECLERCQ, *HISTOIRE DES CONCILES*, V: 394 - 395.

٢ - كلوني CLUNY: مدينة في شرق فرنسا، انشىء فيها دير للآباء البندكتيين ٩١٠، منه انبثقت في الغرب حركة اصلاح ونهضة دينية وثقافية ولا سيما في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وقد عُرف رهبان هذا الدير برهبان كلوني.

عليها، وتأمين وصول الحجّاج إلى مقدّساتها، داعيًا إلى الجهاد في سبيل الله، مؤكّدًا الغفران للشهداء المجاهدين[1]. ووسط هتاف الناس: "هذا ما يريده الله"، أعلن أوربانُس عن حماية الكنيسة لعائلات المجاهدين وأملاكهم، وأوجب وضع شارة الصليب قماشًا أحمر على أكتاف المجاهدين أو صدورهم، وعيّن القسطنطينيّة مُلتقى المجاهدين محدّدًا يوم الخامس عشر من آب (أغسطس)، وهو يوم عيد انتقال العذراء، من سنة ١٠٩٦، موعدًا للانطلاق. وعيّن الأسقف أديمار ADHEMAR قائدًا أعلى وزعيمًا أوحد للصليبيّين، وأمر بوجوب إعادة جميع أوقاف كنائس الشرق وحقوقها إليها[2].

يَعتبر بعض المؤرّخين أنّ اختيار البابا لجنوبي فرنسا مكانًا لبدء دعوته "لم يكن من قبيل المصادفة محضًا، إذ كانت تلك البقعة من القارّة الأوروبيّة قد اكتسحتها قبائل المسلمين قادمة من إسبانيا. وكان المسلمون خلال أربعة قرون ونصف القرن يوالون الهجوم على المواطن المسيحيّة، أوّلاً عن طريق الأمبراطوريّة البيزنطيّة، وثانيًا عن طريق إسبانيا وصقليّة وإيطاليا. وكان قد آن للمسيحيّة أن تُبدي ردّة ما". ويرون فوق ذلك كلّه "أنّ البابا أوربانُس الثاني رأى في الْتماس أمبراطور الروم ألكسيُس كومنيمُس العون منه، فرصة سانحة لتوحيد الكنيسة اليونانيّة وكنيسة روما بعد الانشقاق الذي وقع بين ١٠٠٩ و١٠٥٤، ولإقامة نفسه رئيسًا أوحد للمسيحيّة"[3].

على أثر خطبة الحبر الأعظم غدت صيحة "هكذا يريد اللّه DEUS LE VOLT" بمثابة نفير تردّد صداه في أوروبّة من أدناها إلى أقصاها، وسرى في الناس على اختلاف

---

١ - MUNRO D.C., *SPEACH OF URBAN II AT CLERMONT*, AMER. HIST. REVUE, XI, 231 F.F.

٢ - CHALANDON F., *HISTOIRE DE LA PREMIÈRE CROISADE*, PP. 44 - 46; RUNCIMAN S., *HISTORY OF THE CRUSADES*, I: 2 - 5; CHEVALIER U., *CARTULAIRE DE ST. CHAFFRE*, PP. 13 -14, 161-163;

٣ - حتّي، تاريخ سورية لبنان وفلسطين، ٢: ٢٢٤.

طبقاتهم كأنّما بعدوى نفسانيّة عجيبة، فكان هنالك المتعبّدون الرانون إلى تنفيذ ما يريده اللّه، والقوّاد العسكريّون الطامعون بالاستيلاء على مناطق جديدة، وأرباب الخيال البعيد، والنفوس المضطربة، وعشّاق المغامرات المستعدّون أبدًا للانضمام إلى كلّ حركة بارزة، إضافة إلى المجرمين والخطأة ناشدي الغفران من خلال الحجّ إلى الأرض التي وطئتها قدما المسيح، ومثلهم مَن مُنُوا بالشقاء الاقتصاديّ والاجتماعيّ، فكان "حمل الصليب" راحة وفرجًا لهمومهم[1].

ومع حلول ربيع العام ١٠٩٧، كان قد تقاطر إلى القسطنطينيّة أكثر من ١٥٠ ألف إفرنجي ونورماندي[2] حاملين الصليب شارة، فعُرفوا من ثمّ بالصليبيّين. وقبل حلول الصيف كانت هذه الحملة الصليبيّة، وهي الأولى، قد اخترقت آسية الصغرى، واحتلّت نيقية قاعدة السلاجقة، وأسقطت مدينة دوريلايوم[3]. وبذلك الفتح المظفّر عاد القسم الأكبر من آسية الصغرى إلى أمبراطور الروم بحكم تعهّد الولاء الذي منحه إيّاه الصليبيّون وفاءً لرابطة العرق[4].

---

١ - المرجع السابق، ٢: ٢٢٢؛ وراجع: AUGUST C. KREY, THE FIRST CRUSADE, (PRINSTON, 1921) PP. 24 -43.

٢ - خلص بعض الدراسات الحديثة إلى أنّ الحملات الصليبية حشدت نادراً أكثر من عشرة آلاف مقاتل. في هذا الخصوص، راجع: LA GRANDE ENCYCLOPÉDIE LAROUSSE, V.6, *CROISADES*, P. 3501.

٣ - دوريلايوم: هي اسكي شهر، المدينة التركية الواقعة جنوب غرب انقره.

٤ - FULCHER, *HISTORIA HIEROSOLYMITANA*, ED., HAGEMEYER (HEIDELBERG, 1913) P. 192; CAHEN-CLAUDE, *LA SYRIE DU NORD À L'ÉPOQUE DES CROISADES* (PARIS,1940), PP.3 - 104؛ راجع: ابن القلانسي، ص١٣٤.

بِدَايَــــــــــةُ

الحَملاتِ الصَّلِيبيَّة

عند وصول الصليبيّين إلى الشرق في حملتهم الأولى ربيع ١٠٩٧، كانت هذه المنطقة من العالم مجزّأة، كما سبق وألمعنا، بين العديد من الحكّام. أمّا أنطاكية، وهي مهد الكنيسة المنظّمة الأولى، فقد كان أميرها تركيًّا سلجوقيًّا منذ ١٠٨٤. وفي بعض المصادر "أنّ بعض الأمراء المسلمين الصغار كانوا يسالمون الغزاة الإفرنج في خضمّ مؤامرات كانوا يحوكونها ضد بعضهم البعض"[١].

نتيجة هذا التجزّؤ والتناحر، يعتبر مؤرّخو الحروب الصليبية أنّ الانتصار الذي أحرزه الصليبيّون في المرحلة الأولى بين ١٠٩٧ و١١٤٤ جاء نتيجة لضعف المقاومة التي لاقوها أكثر ممّا كان نتيجة لقوّة الغازين ومهارتهم[٢].

لم يقتصر التشرذم على أولئك الذين جاء الصليبيّون لمحاربتهم، بل هو أصاب الصليبيّين أنفسهم فور عبورهم جبال طورُس، وراح كلّ منهم يضع خططًا بهدف توسيع رقعة سيطرته. وقد نتج عن ذلك تحوّل بودوان[٣] شرقًا باتجاه مناطق مسيحيّة، فاحتلّ الرها (أورفا URFA, EDESSE) بين النهرين في تركية التي كانت تحت السيطرة الأرمنيّة، وأسّس هناك ولاية عُرفت باسمه، ونصّب نفسه أميرًا على عرشها، وتزوّج إحدى أميراتها الأرمنيّة، واستقر فيها إلى حين[٤]. وكان بودوان هذا، الذي سيصبح في

---

١ - WIET, *L'EGYPTE ARABE, HISTOIRE DE LA NATION EGYPTIENNE,* P. 59

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٦٢.

٣ - بودوان BAUDOUIN: إسم خمسة من ملوك القدس الصليبيّين، عرفوا عند العرب بأسماء: بغدوين، بردويل، بلدوين، أشهرهم الأوّل حاكم الرها ١٠٩٨ - ١١٠٦، قائد الحملة الصليبيّة الأولى، ملك القدس ١١٠٠ - ١١١٨.

٤ - لمزيد من الاطّلاع حول إمارة الرها، راجع: MATTHEW OF EDESSA, *CHRONIQUE,* ED., DULAURIES (PARIS, 1858)

ما بعد ملكًا على القدس، قادمًا من بلاد الرين. في هذا الوقت تحوّل غربًا الأمير الصقلّي النورمانيّ تانكريت دي هوت فيل TANCRED ودخل مدينة مسيحيّة هي الأخرى أرمنيّة السكّان: قيليقية، حيث كان إلى جانب الأرمن جماعة من اليونان. ثمّ احتلّ مدينة طرسوس والمناطق المحيطة بها.

إندفع باقي الجيش الصليبيّ باتجاه سورية، وكانت أنطاكية هدفه الأول بالنظر لِما كان لها من أهميّة مسيحيّة، وبعد حصار شديد استمرّ ثمانية أشهر كاملة بقيادة بوهمند BOHÉMOND، الأمير النورمانيّ شقيق تانكريت، حاول حاكما حلب ودمشق السلجوقيّان شنّ هجومات لفكّ الحصار باءت بالفشل نتيجة مساندة الأسطول الإيطاليّ للمحاصِرين من البحر، وقد سقطت المدينة عندما تواطأ قائد أنطاكيّ أرمنيّ ناقم، كان يتولّى الدفاع عن أحد أبراجها، مع المحاصرين[1]. ولكن "ما كاد المحاصِرون يدخلون المدينة حتّى وجدوا أنفسهم محاصَرين بدورهم، على يد المغامر السلجوقيّ كربوقا، فكان ما قاساه الصليبيون إثر ذلك من الوباء والمجاعة مدة خمسة وعشرين يومًا من أشدّ ما سبق لهم أن عانوه، حتّى أنّهم نبشوا جثث الحيوانات الميتة وأكلوها[2]. ولم يعد بالإمكان رفع حالتهم المعنويّة وكسب الوقت إلاّ بأعجوبة. وقد تحقّقت هذه الأعجوبة باكتشاف الحربة المقدّسة التي طُعن بها جنب السيّد المخلص وهو معلّق على الصليب، إذ عُثر عليها دفينة في إحدى كنائس أنطاكية، فاندفع الصليبيّون على الأثر بجرأة بالغة، استطاعوا بها أن يردّوا المحاصِرين عن المدينة. وظلّ بوهمند، وهو أدهى قادة الصليبيّين وأمضاهم عزيمة، حاكمًا على هذه الولاية الجديدة مضمومة إليها أنطاكية وجوارها. هذا في وقت كان أمبراطور الروم يأمل بإعادة أنطاكية إليه، لكنّه مُني بخيبة الأمل.

---

١ ـ إبن القلانسي، ص ١٣٥.

٢ ـ .WILLIAM OF TYRE, I: 271؛ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٢٧.

وكان أشدّ منه خيبة ريموند صاحب تولوز، زعيم أغنياء جنوب فرنسا، وهو الذي تحقّق اكتشاف الحربة على أيدي رجاله، إذ كان يطمع بأن تكون إمارة أنطاكية له"[1].

لمّا نصّب بوهمند نفسه حاكمًا على ولاية أنطاكية، سار الكونت ريموند بجيوشه جنوبًا فاجتاح معرّة النعمان[2] وأنزل الدمار بسكّانها وأصبحت تُعرف بلسان الإفرنج بـ"مارا". ثمّ احتلّ حصن الأكراد المسيطر على الطريق الموصل بين سهول العاصي والسهول الساحليّة، إلى أن أدرك عرقة الواقعة في عكّار من شمال لبنان، والتي كانت تابعة لإمارة طرابلس، فعصت عليه بفضل حصونها المنيعة رغم حصاره لها ثلاثة أشهر. في هذه الأثناء كان شقيق بودوان: غودفري دي بويون GODEFROY قد انحدر بقوّاته بمحاذاة الساحل ليحاصر جبلة، فالتقى بريموند. وإذ كان الهدف الرئيسيّ القدس، رُفع الحصار وسارت الحملة على الطريق الساحليّ حيث اتصلت بالموارنة في البترون الذين أسدوا إليها معونة جليلة من خلال قيامهم بمهمة الأدلاء. أمّا بيروت فسارع أميرها التنوخيّ إلى تقديم الهدايا للافرنج تمامًا مثلما فعل ابن عمّار الشيعيّ أمير طرابلس. وهكذا وصلت الحملة إلى عكّة في شبه نزهة. وفي السابع من حزيران (يونيو) بلغوا محيط الهدف الذي كان الجهاد من أجله: مدينة القدس.

كانت أورشليم في ذلك الوقت بيد الفاطميّين، وعاملُهم فيها الفضل بن بدر الجمالي، وحاميتها عربيّة سودانيّة، وعديدها نحو ألف رجل. أمّا عدد المهاجمين فقد بلغ نحوًا من أربعين ألفًا نصفهم من الجنود النظاميّين، وكان على رأسهم ثلاثة من

---

١ - RAIMUNDUS DE AGILES, *HISTORIA FRANCORUM QUE CEPERUNT JERUSALEM*, IN MIGUE, PATHROLOGIA LATINA, V: 657; WILLIAM OF TYRE, I: 349; *ANNALES DE TERRE SAINTE*, ARCHIVES DE L'ORIENT LATIN, VOL. II, (PARIS, 1884), PT. 2, P. 429

٢ - **مَعَرّة النعمان**: مدينة في سورية، منسوبة إلى النعمان بن بشير والي معاوية، لعلّها "ارا" القديمة، احتلّها العرب ٦٣٧، استولى عليها البيزنطيون ٩٦٨، ثمّ الصليبيون ١٠٩٨، استرجعها زنكي ١١٣٧، انتقلت إلى الأتراك حتى الاستقلال، منها أبو العلاء المعرّي.

كبار القادة: غودفري وريموند وتانكريت. وبعد حصار دام شهرًا ونيفًا أطبقوا على المدينة المقدّسة في الخامس عشر من تموز (يوليو) ١٠٩٩ "وفتكوا بأهلها على اختلاف السنّ والجنس بلا تمييز ولا مراعاة"[١]. وفي أحد المصادر العربيّة[٢] أنّ عدد الضحايا بلغ نحوًا من سبعين ألفًا، ويذكر مؤرّخون لاتين أنّ "النظر كان يقع على أكوام من الأشلاء في الساحات والطرق"[٣].

باحتلال الصليبيّين للقدس، نشأت في سورية الدولة اللاتينيّة الثالثة بعد الرها وأنطاكية، بيدَ أنّ أورشليم كانت أهمّ تلك الدول على الإطلاق. وقد تولّى الحكم فيها غودفري متّخذًا لقب "حامي القبر المقدّس". وراح تانكريت يتوغّل نحو الأردن، فسيطر على بيسان بعد اخضاع نابلس من دون مقاومة، ثم استقرّ في طبريّة بصفة حاكم إقليم تابع للقدس. إلاّ أنّه مع بداية القرن الثاني عشر أصبح حاكمًا لأنطاكية خلفًا لعمّه بوهمند الذي كان قد أُسر على يد السلاجقة. وكان بودوان، شقيق غودفري أمير الرها، قد استدعي ليتوّج ملكًا على هذه المنطقة في يوم الميلاد من العام ١١٠٠ باعتبار أنّه المؤسّس الحقيقيّ للمملكة اللاتينيّة في الشرق.

إجتهد الملك اللاتينيّ الأوّل في الشرق في اخضاع مدن الساحل بهدف تأمين المواصلات البحريّة مع أوروبة، وصدّ هجومات الأسطول الفاطمي. وبمعاونة ملاّحي الجمهوريّات الايطاليّة تمكّن من إخضاع أرسوف وقيصريّة بعد سنة من ملكه. وقبل نهاية سنة ١١١٠ كان قد سيطر على عكّة وبيروت وصيدا بمساعدة أساطيل بيزا وجنوى والنروج. ثم راح يوسّع مملكته جنوبًا حيث بنى سنة ١١١٥ قلعة الجبل الملكي

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٢٩.

٢ - إبن الاثير، الكامل، ١٠: ٢٨٣.

٣ - WILLIAM OF TYRE, I: 370.

MONTE REGALIS، وهي المعروفة بقلعة الشوبك في جبل الشراة جنوب الأردن، لحراسة طريق القوافل بين دمشق ومصر والحجاز. وعندما مات بودوان سنة ١١١٨ كانت المملكة اللاتينيّة قد بلغت ذروتها وأصبحت تمتدّ من خليج العقبة إلى بيروت باستثناء شبه جزيرة صور التي بقيت بيد المسلمين حتى ١١٢٤، وعسقلان حتى سنة ١١٥٣، وكان الامتداد الشرقيّ لتلك المملكة محاذيًا لوادي الأردن.

من جهة ثانية كان ريموند الملقب بـ SAINT- GILLES وقد دعاه العرب صنجيل، مصممًا على إخضاع طرابلس التي سبق أن غضّ النظر عنها وهو في طريقه إلى بيت المقدس. غير أنّه عاد إليها سنة ١١٠٣ وبنى القلعة الشهيرة باسمه فوق تل مشرف على المدينة حيث نشأ حيّ لاتيني. ومن هناك عقد حصارًا على المدينة المسوّرة التي كان عدد سكّانها نحو عشرين ألفًا، وراح يهاجم المناطق المجاورة لها بمساندة أسطول جنوى، ولم يتمّ إخضاع المدينة إذ صمدت طرابلس قرابة ست سنوات ولم تسقط إلاّ بعد موت ريموند (١١٥٠) بأربع سنوات. وكانت اللاّذقيّة قد سقطت قبل ست سنوات بيد تانكريت الذي احتلّ أفامية أيضًا سنة ١١٠٦ وألحق المدينتين بولاية أنطاكية التي شملت أحيانًا أجزاء من قيليقية.

وعندما توفّي بودوان الأوّل سنة ١١١٨ خلفه بودوان الثاني الذي ملك حتى وفاته سنة ١١٣١ حين أصبحت المملكة اللاتينيّة في الشرق تضمّ دولا ثلاثًا: طرابلس وأنطاكية والرها، تدين بالولاء الإسميّ لملك القدس. إلاّ أن بعض المدن الداخليّة ومنها: حلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ودمشق، قد بقيت خارج سلطة الإفرنج.

وهكذا فقد حققت الحملة الصليبيّة أهدافها، وأصبحت طريق بيت المقدس سالكة للحجّاج الغربيّين. بيد أنّ الحروب الصليبيّة لن تتوقف عند هذا الحد.

تداعيات الحملات الصليبية

لسنا هنا في مجال تأريخ الحروب الصليبيّة، بل القصد من رواية بعض أحداثها يدخل في نطاق موضوع معالجة تطوّر أحوال الكنيسة الشرقيّة، وما كان للحروب الصليبيّة من تأثير على ذلك التطوّر. ومَن يتعمّق في تداعيات الحروب الصليبيّة لا بدّ له من أن يستنتج أنّها كانت فاتحة صراع جديد بين الشرق والغرب تحت عنوان المسيحيّة والإسلام، سوف يتفاعل مع السنين ليُعيد في النهاية كلاً إلى دياره، وليدفع المسيحيّون الشرقيّون كلفة ردّة الرجل الإسلاميّة، ولتصبح هذه الكلفة عرفًا مستمرًا إلى يومنا هذا.

ومهما حاول الباحثون المحدثون، بحكم الدوافع السياسيّة، ان يحوّروا في التاريخ، ومهما حاولوا أن يلطّفوا الواقع بطمس الحقائق، لن يكون بوسعهم أن يزيلوا حقيقة أنّ مسيحيّي الشرق، الملكيّين منهم والبيزنطيّين وغير البيزنطيّين، وأنّ المسيحيّين الغربيّين في انتمائهم الطقسيّ، والمشرقيّين في انتمائهم العرقيّ والجغرافيّ، قد رحّبوا بالصليبيّين وعاونوهم وأملوا فيهم المنقذين من السيطرة المتصاعدة، ومن الفوضى التي سادت هذه البقعة من العالم في خضمّ التفكّك الاسلاميّ نهاية الألف الأوّل للميلاد.

كذلك لن يمكنهم نكران أنّ بعض المجتمعات المنشقّة داخل الاسلام قد رحّبت بالصليبيّين، أو أنّها تعاونت معهم في وجه القوى الإسلاميّة السنيّة غير العربيّة التي كانت تعيث بالبلاد فسادًا. وغنيّ عن التأكيد على أنّ جميع الكنائس التابعة للقسطنطينيّة

والمعروفة بالكنائس الأرثذوكسيّة قد تعاونت مع الصليبيّين إلى حدّ منذ مجيئهم إلى الشرق. فلقد كان هذا المجيء مرجوًّا لا بل نتيجة استغاثة واستنجاد من الروم أنفسهم، كما سبق وذكرنا عن إلحاح الأمبراطور البيزنطيّ على البابا الرومانيّ بوجوب إنقاذ المسيحيّة في الشرق.

في مقابل هذا التعاطف بين بعض أهل الشرق من مسيحيّين وغير مسيحيّين مع الصليبيّين، كان هنالك موقف مسيحيّ معادٍ لهؤلاء، هو موقف مَن سمّاهم مؤرّخو الكنيسة البيزنطيّة بـ "الهراطقة، من يونانيّين وأرمن وسوريّين ويعاقبة، الذين كانوا لا يزالون يمارسون نصرانيّتهم على طريقتهم الخصوصيّة في جوار أنطاكية"[1]، وهؤلاء هم القائلون بالطبيعة الواحدة، أو بغير ذلك ممّا لا يتّفق مع المبدأ القويم للكنيستين الشرقيّة والغربيّة.

بقيت العلاقات على صفائها وعلى كثير من التعاضد والتعاون بين الصليبيّين اللاتين وبين الروم البيزنطيّين، حتّى وفاة أديمار، الأسقف الذي كلّفه البابا أوربانُس قيادة الحملة الصليبيّة إلى الشرق، وكانت تلك الوفاة في الأوّل من آب (أغسطس) سنة ١٠٩٨، ما استدعى اجتماع الأمراء الصليبيّين في أنطاكية في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ليوجّهوا رسالة إلى البابا أوربانُس الثاني يبلغونه من خلالها خبر وفاة أديمار، ويرجونه أن يأتي بنفسه إلى أنطاكية ليرعى الكنيسة فيها. وقد استغرب المؤرّخون الروم أن يكون الأمراء الإفرنج "قد تناسوا وجود يوحنّا السابع بطريرك أنطاكية الشرعيّ فلم يذكروه لمناسبة هذا الطلب"[2]. ويتّهمون بوهمند بأنّه كان "منهومًا بالسلطة

---

١ - Anonymi Gesta Francorum, X: 30; Raymond d'Aguilers, XIII; Haginmeyer H., *Die Kreuzzugsbriefe*, p. 164.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٢٧٧.

فاشتدّ حرصه على إمــارة أنطاكيــة واستهلك إليهــا... إلــى أن كاشـف الـروم بـالعداوة، فحاول في حزيران (يونيو) ١٠٩٩ أن يخرجهم من اللاذقيّة"[١].

إذا كان موت ممثّل البابا في ترؤس الحملة الصليبيّة الأسقف أديمار قد أوقع بعض الخلل في العلاقة بين الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة، فإنّ وفاة البابا أوربانُس الثاني في التاسع والعشرين من تمّوز (يوليو) سنة ١٠٩٩ قد وضعت هذه العلاقة على حافّة المجهول، إذ فقدت الحملة الصليبيّة رأس هرميّتها، ولم يكن للبابا الذي خلف أوربانُس الثاني، وهو باسكاليس الثاني (١٠٩٩ ـ ١١١٨) السلطة نفسها التي كانت للأوّل على قادة الإفرنج، الذين راحوا يقرّرون سياساتهم بعيدًا عن الإرادة الكنسيّة الجامعة. وهكذا أقدم بوهمند على مهاجمة منطقة مرعش في جنوب تركية، التي كانت قد أعيدت إلى الروم بموجب شروط المعاهدة بينهم وبين الصليبيّين، ليضمّها إلى إمارته. وكذلك فعل تانكريت بالنسبة إلى طرسوس وأدنه. وعندما وقع بوهمند أسيرًا في يد السلجوقيّين في صيف ١١٠٠، وبعد تحرّره من هذا الأسر، اتّهم البطريرك الأنطاكي يوحنّا السابع بأنّه قد تواطأ مع الأتراك لأسره، وأجبره على الخروج من أنطاكية وجعل مكانه أسقفًا لاتينيًّا. هذا ما تذكره المراجع الأرثذوكسيّة[٢]. بينما يقول مؤرّخو اللاتين بأنّ البطريرك يوحنّا قد استقال، وإذ شغر كرسيه نُصّب الأسقف اللاتينيّ برناردُس بطريركًا مكانه[٣].

كذلك يعتبر مؤرّخو القدس أنّ التعيين الذي أجراه الأمراء الصليبيّون لأرنولفُس روهيز بطريركًا على أورشليم، قد أدّى إلى نتائج خطيرة على صعيد العلاقات بين

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٢٧٨.

٢ ـ راجع: GRUMEL V., *PATRIARCHES D'ANTIOCHE,* (ECHOS D'ORIENT ,1933), PP. 286 -298; LEIB B., DEUX INEDITS BYZANTINS, PP. 59 -69.

٣ ـ WILLIAM OF TYRE, VI: 23; ORDERIC VITALIS, IV: 141

الكنيستين، بسبب مماشاة هذا البطريرك لسياسة بوهمند الكنسيّة، معتبرين أنّه، إضافة إلى إبعاده الكهنة المونوفيزيّين الأرمن واليعاقبة والأقباط عن كنيسة القبر المقدّس، قد أبعد الأرثذوكسيّين المشرقيّين أيضًا وعيّن عشرين كاهنًا لاتينيًا للخدمة في تلك الكنيسة. ثمّ "قبض على الكهنة الأرثذوكسيّين مُطالبًا بعود الصليب، وأمر بتعذيبهم، حتّى قبلوا مكرهين بتقديم الأثر المقدّس له"[1]. ويبدو أنّ هذا البطريرك اللاتيني، الذي كان واعظًا أديبًا دون أن يكون زاهدًا أو حائزًا أيّة درجة كهنوتيّة، قد تصرّف ببعض الاستبداد، ما أغضب الشعب الأرثذوكسيّ وكهنته، كما أثار استياء القسطنطينيّة[2].

في هذه الأثناء، كان البابا أوربانُس الثاني قبل وفاته، قد عيّن رئيس أساقفة بيزا دمبرتوس DAIMBERT خلفًا لأديمار وممثّلاً لسلطة روما في الأراضي المقدّسة، فحلّ محلّ أرنولفوس بطريركًا على أورشليم، وخضع له غودفري، وكيل القبر المقدّس، وبوهمند أمير أنطاكية، وأقسما يمين الطاعة والولاء له. أمّا أمير الرها بودوان، فامتنع عن الخضوع.

منذ دمبرتُس تعاقب على سدّة البطريركيّة في أورشليم أحد عشر بطريركاً لاتينيًا كان آخرهم هرقليُس (١١٨٠ ـ ١١٩٠). بينما جلس على كرسي أنطاكية في الحقبة نفسها أربعة بطاركة كان آخرهم بطرس (١١٩٦ ـ ١٢٠٨). ونشأت تدريجًا خمس أبرشيّات كبرى تابعة لأورشليم رأس كلاً منها رئيس أساقفة، وهي أبرشيّات: صور وقيصريّة وبيسان وبصرى وعمّان. وكانت أسقفيّات بيروت وصيدا وبانياس وعكّة تابعة لصور، وأسقفيّات سَبْطية تابعة لقيصريّة، وطبريّة وجبل الطور تابعة لبيسان. بينما كان لأنطاكية ستّ عشرة أبرشيّة هي أبرشيّات: مصيصة والباره وأباميه ومنبج

---

١ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٢٧٩؛ WILLIAM OF TYRE, IX:1; FULCHER DE CHARTRES, I: 30.

٢ ـ RUNCIMAN S., HISTORY OF THE CRUSADES, I: 294 - 295.

والرها وبانياس وجبلة وطرابلس واللاذقيّة وحارم (أو ارتاح) ومرعش وقيسون وقورش ورفنية وطرطوس وجبيل. وقد نشأت منازعات شديدة بين البطريركيّتَين على أبرشيّات الساحل الفينيقي، فكانت أوشليم تقول بوجوب اتّباع الملاءمة السياسيّة في تقسيم الأبرشيّات، بينما قالت أنطاكية بقرارات المجامع المسكونيّة ووجوب إبقاء القديم على قدمه. وبعد تطوّر تلك المنازعات وتدخّل ثلاثة باباوات في ملابساتها، بقي الحدّ الفاصل بين البطريركيّتَين الحدّ السياسيّ بين مملكة أورشليم وإمارة طرابلس[1].

في هذه الأثناء، امتنع الأرثذوكسيّون عن الاعتراف بسلطة الإكليروس اللاتيني، وراحوا ينتخبون في القسطنطينيّة بطريركًا تلوّ البطريرك على أورشليم طوال المدّة التي كان فيها اللاتين في المدينة المقدّسة. وكان هؤلاء البطاركة، على ما يبدو، يقيمون دومًا في القسطنطينيّة. أمّا بالنسبة لأنطاكية فيذكر بعض المراجع أنّها، بإيعاز من الأمبراطور، حذت حذو أورشليم[2].

هذه الحزازات بين المملكة اللاتينيّة الغربيّة في الشرق، والأمبراطوريّة الشرقيّة في القسطنطينيّة، سوف تتطوّر في ما بعد إلى منازعات عسكريّة، وسوف تبقي جذوة الانشقاق متوهّجة، رغم الأخطار المصيريّة التي كانت تتهدّد المسيحيّة في الشرق، التي من أجلها جاء الصليبيّون ومن أجلها استنجد الروم باللاّتين. غير أنّ الطرفَين انجذبا خلف السلطة والمطامع أكثر ممّا أعارا المسيحيّة اهتمامًا.

على خطّ آخر، كانت الحمية الدينيّة تفعل فعلها في بعض الأوساط الاسلاميّة، من عربيّة وغير عربيّة. وكان هناك مَن يعير الدين كلّ الاهتمام، ومن يحلم بتخطّي جميع

---

١ - CAHEN C., *LA SYRIE DU NORD*, PP. 314 -317; RICHARD J., *ROYAUME DE JERUSALEM*, PP. 97 - 98.

٢ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

الفوارق المذهبيّة والعرقيّة، سواء بالسياسة أو بالقوّة، من أجل الوصول إلى وحدة إسلاميّة متراصّة، يمكن من خلالها تحرير الشرق من السيطرة المسيحيّة: الغربيّة والشرقيّة. وهذا ما سوف يتحقّق على يد بطل من أشهر أبطال الإسلام، ذي أصل كرديّ، ولد سنة ١١٣٨ في تكريت الواقعة على ضفاف دجلة بين الموصل وسامرّاء فسمّي يوسف، ولكنّ شهرته قد انتشرت بلقبه: صلاح الدين الأيّوبي، الذي سيأخذ على عاتقه إزالة المملكة اللاتينيّة الشرقيّة من الوجود. وإنّ هذا الوجود قد بدأ فعلا بالاضمحلال مع زوال مملكة القدس عمليًّا سنة ١١٨٧، وإمارة أنطاكية سنة ١٢٦٨. وحدها كونتيّة طرابلس دامت حوالي القرنين ولم تُزل إلاّ على أيدي المماليك سنة ١٢٩١.

لقد عمد الصليبيّون، إبّان سيطرتهم على الشرق، إلى تقسيم البلدان المحتلّة إلى أربع دول مرتبطة بما يشبه الفدراليّة، وكانت مملكة القدس الدولة الرئيسة ذات السيادة، تتبعها دول إقطاعيّة ثلاث: كونتيّة طرابلس، وإمارة انطاكية، وكونتيّة الرها EDISSA على الفرات، وكان ملك القدس على رأس الهرميّة الاقطاعيّة. أمّا سلطته فكانت مستمدّة من سلطة الولاة الإقطاعيّين ومن سلطة البطريرك الأورشليمي. وكانت سلطة الإقطاعيّين الكبار على النمط نفسه داخل إماراتهم، وكان هؤلاء الاقطاعيّون يؤلّفون هيئة تراقب سلطة الملك تسمّى "المجلس الأعلى". وكان يلي هذا المجلس، نزولا، مجالس لبورجوازيّين ذوي صلاحيّات مماثلة لصلاحيّات النبلاء الذين كان لهم سلطة على الحياة والموت. وقد تمتّع بحريّات واسعة أعضاء الجاليات الإيطاليّة والفرنسيّة التي كانت قد عاونت على الاحتلال، ما جعلها تحرز تلك الامتيازات الموروثة[1].

---

١ - راجع: بولس، التحولات، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

تجدر الاشارة إلى أنّ مملكة القدس ودويلاتها لم تكن خاضعة لأيٍّ من الدول الغربيّة، بل كانت دولاً محليّة شرقيّة ذات حكم لاتيني. وقد اعتبر الإفرنج، عمومًا، كلّ من احترم الصليب مسيحيًّا، محاولين عدم التمييز بين الكنائس، وإن كان بعض تلك الكنائس غيرَ موال لهم. على أنّ الكنائس التي محضتهم الولاء قد جهّزت إداراتهم بالعديد من الموظفين وبالممثّلين لدى أمراء الداخل، وكان أبرز هؤلاء: الموارنة[1].

عَـــــــودَةُ

الشَّرقِ إلَى الشَّرق

في الربع الأوّل من القرن الثاني عشر، بدأت السيطرة الإفرنجيّة على الشرق تتزعزع مع بروز قائد فذّ من بين الأتابكة، هو عماد الدين زنكي، فسادَ الموصل سنة ١١٢٧ ثم بسط سيطرته على الجزيرة الفراتيّة، ومن هناك دفع بجيوشه إلى مدينة الرها فانتزعها سنة ١١٤٤ من أيدي الصليبيّين الذين حكموها نحو خمسين سنة، بعد أن ضمّ حلب إلى سلطته سنة ١١٢٨ ثمّ استولى على حماه فبعلبك. بيدَ أنّه فيما كان يحاصر قلعة جابر، بعد سنتَين من احتلاله للرها، هجم عليه بعض مماليكه بتحريض من خصومه واغتالوه[1]، فخلفه في القيادة ابنه نور الدين الذي تمكّن سنة ١١٥٤ من انتزاع دمشق من السلالة التركيّة البوريّة التي أسّسها طغتكين بن عبدالله بعد أن كانت دمشق لسنين كثيرة حليفة فعليّة للقدس اللاتينيّة. أمّا صلخد وبصرى وبانياس، التي كانت خاضعة للشيعة الإسماعيليّة، وغيرها من المدن في منطقة دمشق، فربّما عمدت أحيانًا إلى التماس العون من اللاّتين لمواصلة كفاحها ضدّ المسلمين الآخرين[2].

---

١ - سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، تعريب عفيف البعلبكي، ص٢٩٤.

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٣٤ - ٢٣٥.

بسيطرته على دمشق، أزال زنكي العقبة الأخيرة القائمة بين المناطق الخاضعة لـه ومدينة القدس. وللمرّة الأولى منذ سقوط الأمويّين سنة ٧٥٠، أصبحت دمشق عاصمـة دولة مسلمة واسعة موحّدة ومستقلّة. وأصبح الهدف الأوحد لسياسة نور الدين انتصـار الإسلام السنّي. وتركّزت جميع الجهود علـى الجهـاد بعـد أن وطّـدت دمشـق أهمّيتهـا العسكريّة ونفوذها الديني كعاصمة للسنّة، مقابل العاصمة الشيعيّة آنـذاك: القـاهرة. وإذ كان زنكي هادفًا إلى تطويق القدس من الشمال والجنوب، رأى أن لا بـدّ مـن السـيطرة على مصر. فبعث بقائده أسد الدين شيركوه الكرديّ إلى عاصمة الخلافة الفاطميّة حيث تمكّن سنة ١١٦٩، بعد انتصارات حقّقها في ميدانَي القتال والسياسة، من تولّي الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦٠ – ١١٧٠)، ولكنّه لم يعش وزيرًا سوى شهرين.

بموت أسد الدين انتقلت الوزارة في الخلافة الفاطميّة الواهنة إلى ابن أخيه صـلاح الدين بن أيّوب الذي كان قد رافقه إلى مصر. بيـدّ أنّ حدثـًا لـم يكـن فـي الحسبان، قـد وضع صلاح الدين أمـام مسؤوليّة تاريخيّـة جسـيمة. ذلـك أنّ المخطـّط الأكـبر والقـائد الأعلـى نـور الديـن زنكـي قـد توفّـي فجـأة فـي دمشـق سـنة ١١٧٤ تاركـًا بعـده خلفـاء قاصرين وعاجزين، بعد أن كان صلاح الدين قد أقدم على خلع الخليفة العاضد وإلغـاء الخلافة الفاطميّة نهائيًّا في مصر، وبَعد أن سيطر على بلاد النيـل سيطرة تامـّة، حتّـى أنّه عُرف بالسلطان. وإذ دبّت الفوضى فـي دمشـق والموصـل وحلـب بعـد مـوت نـور الدين، قام قائد الوحدة الاسـلاميّة صـلاح الديـن بعبـور الصحـراء علـى رأس سـبعمائة فارس من الجنود المدرّبين، ودخل دمشق فـي ٢٤ تشـرين الأول (أكتوبـر) ١١٧٤ بـلا مقاومة، ثم تزوّج أرملة نور الدين ونال المبايعة من زعماء المدينة، وولّى المدينة أخاه طغطكين، وغادرها على رأس جيش جنّده من الشام قاصدًا حلب فأخضعها، كذلك فعـل ببعلبك، ومنها توجّه شمالاً إلى حماه حيث وجد أنّ جيشًا من جند حلب والموصـل كـان

في أعقابه، وكان النصر الذي حقّقه صلاح الدين على هذا الجيش سنة ١١٧٥ حاسمًا. وبعد إلغائه لمعارضيه وخصومه ومحاولي الثورة عليه من الأتابكة والأكراد، وإزالته للخلافة الفاطميّة من الوجود، وقبل البدء بمحاربة العدوّ الأكبر: الإفرنج، تفرّغ صلاح الدين لمقاتلة الحشّاشين الذين حاولوا اغتياله مرّتين، فانقضّ على قلاعهم التسع التي كانوا يحتمون فيها على امتداد جبال اللاّذقيّة، فأسقطها جميعًا باستثناء القلعة الرئيسيّة: مصياف، في جبال النصيريّة. على أنّه لم يفكّ الحصار عنها إلاّ بعد عهد قطعه له زعيم فرقة الحشّاشين بأنّه لن يحاول اغتياله.

بعد توحيده لمصر وسورية، أصبح انتزاع البلاد من سيطرة الإفرنج الهدف الخطير لصلاح الدين. وقد بدا هذا الهدف ممكن التحقيق بعد أن أصبحت القدس بين فكّ الكمّاشة الأول: القاهرة، وفكّها الثاني: دمشق. أمّا الوضع في فلسطين "فإنّه كان يغري مَن يتطلّع إلى غزوها. ذلك أنّ مملكة بيت المقدس كانت، خلافًا لبنود هدنة السلام، تقوم بغزوات إلى جهة الشمال وإلى أبعد من حلب دون أن تترك جيشًا يتولّى أمر الدفاع عن فلسطين. وكان يتسلّم عرش مملكة بيت المقدس في ذلك الزمان بودوان الرابع ذو السادسة عشرة، وكان يُلقّب بالأبرص لأنّه كان مصابًا بالبرص، وفضلاً عن هذا فإنّ ذراعه اليمنى كانت مشلولة لأنّه دُقّ فيها مسمار، "وهي عادة مستحبّة كان يمارسها الفرسان دلالة على قوّة التحمّل والجلد"[١].

في هذه الأثناء كان صلاح الدين بعد سيطرته على الدويلات الإسلاميّة في سورية، قد عاد إلى القاهرة سنة ١١٧٦، وسارع إلى ترميم أسوار المدينة وإلى بناء قلعة على جبل المقطّم مشرفة على القاهرة لتمتين الدفاع عن عاصمته.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص١٧٨.

تراوحت السيطرة الإفرنجيّة على بعض مناطق الشرق الأوسط بين قدومهم الأوّل سنة ١٠٩٦ وخروجهم من هذه البلاد على أيدي المماليك سنة ١٢٩١، بين حالات مدّ وجزر، تخلّلتها ثماني حملات عسكريّة تلت الحملة الشعبيّة الأولى، وقد انتهت الحملات الصليبيّة بطرد الإفرنج تماما من الأراضي العربيّة على يد المماليك في أواخر القرن الثالث عشر. وكان من أبرز الأبطال المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الغزاة الإفرنج، إضافة إلى عماد الدين زنكي (ت١١٤٦)، وابنه نور الدين (ت١١٧٤)، وصلاح الدين الأيّوبي (١١٣٨ ـ ١١٩٣)، ومن المماليك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) أعظم سلاطين دولة المماليك إطلاقا، وهو الذي جاء على رأس سلسلة من السلاطين الذين سدّدوا إلى سورية اللاتينيّة الضربات القاضية الأخيرة، ومنهم الملك الأشرف (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣) انقضّ على آخر معاقل الصليبيّين في الشرق، فهاجم عكّا في ١٨ آيار ١٢٩١ وفتحها "ولم يراعِ عهد الأمان الذي قطعه على نفسه للهيكليّين، بل فتك بهم أشدّ الفتك، وقد غدت المدينة بحكم الزائلة من الوجود"[1]. وفي اليوم الذي سقطت فيه المدينة الفلسطينيّة الأخيرة، أجلى الصليبيّون عن صور اللبنانيّة. ولم يبقوا في صيدا أكثر من شهرين. ثمّ انسحبوا من بيروت قبل نهاية تمّوز (يوليو). وهجروا طرطوس في بداية آب (أغسطس) ولم يبق من الصليبيّين سوى الهيكليّين الذين صمدوا في جزيرة أرواد حوالي إحدى عشرة سنة. فكانوا خاتمة مشهد النهاية من فصل الوجود الصليبيّ في الشرق. وبذلك عاد الشرق إلى الشرق.

---

١ ـ أبو الفداء، المجلّد الرابع، ص ٢٥ ـ ٢٦؛ المقريزي، ج٢، ق٣، ص ١٢٥ ـ ١٢٩.

إِنْعِكَاسَاتُ الحَمَلاتِ الصَّلِيبِيَّة عَلَى الكَنَائِسِ الشَّرقِيَّة

قد يكون من العسير جدًّا التمكّن من الإحاطة بجميع الانعكاسات الفعليّة التي خلّفتها الحروب الصليبيّة، إن على المسيحيّة في الشرق، أم حتّى على المجموعات الإسلاميّة المنشقّة عن السنّة. ذلك أنّ تلك الحروب كانت متعدّدة الجبهات بحيث أنّه لم تجرِ مع خلافة معيّنة، أو مع عرق معيّن، بل هي بدأت مع السلاجقة الأتراك، وانتهت مع المماليك السُنّة، مرورًا بالفاطميّين الشيعة، وببقايا الخلافة العباسيّة الرمزيّة، وبالأتابكة الأتراك، ومن ثمّ بصلاح الدين وورثائه الأيّوبيّين. وهي كذلك تفاعلت مع شعوب، وتفاعل معها، سلبًا وإيجابًا، أي عداوةً وتحالفًا، وبحسب الأوقات والظروف، أقوام منهم: المسيحيّون البيزنطيّون، والمسيحيّون المنشقّون عن الكنيسة الجامعة: أقباطًا ونساطرة ويعاقبة وأرمن...، إضافة إلى مَن تفاعل معها منْ مناصرين ملكيّين غربيّين وموارنة؛ ومن مسلمين منشقّين عن السنّة: شيعة وقرامطة وحشّاشين وعلويِّين ودروز...

لقد كانت الحروب الصليبيّة في الشرق عنصرَ تحويل أساسيّ في المسار السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، بل والكيانيّ لزمن طويل، لا نبالغ إذا قلنا إنّه لم ينتهِ تفاعلاً

حتى اليوم. فلولا الوجود الصليبيّ لما كان صلاح الدين قد وجد نفسه أمام قضيّة استوجبت ترسّله وريادته من أجل توحيد المسلمين في ملّة واحدة وفي قوّة واحدة. فإنّ ردة الفعل الإسلاميّة الوجدانيّة الكيانيّة على اجتياح الصليبيّين المسيحيّين للشرق الذي كان قد استقرّ أكثر من أربعة قرون تحت سيطرة سياسيّة وعسكريّة إسلاميّة، كانت بمثابة ضخّ قوة جديدة في مسيرة الإسلام الذي كان، عشيّة وصول الصليبيّين إلى القسطنطينيّة، مفككًا متناحرًا بين عروق ومذاهب وخلافات، على أنّ الخطر المصيريّ الآتي من مقلب الشمس، قد طبّق المقولة المعبّر عنها بالعديد من الحِكم والأمثال الرائجة في أوساط مجتمعات هذه البقعة من العالم، وأشهرها إسلاميًا: أنصر أخاك ظالمًا كان أم مظلومًا.

قبْل الصليبيّين كانت بيزنطية تشكّل، بنظر الإسلام، تلك القوّة الخارجيّة التي اعتُبرت، لزمن طويل، القاعدة المرجع لمَن يقاومونها من مسيحيّين في مناطق سيطرته، غير أنّ وصول الجيوش الغربيّة اللاتينيّة بتلك القوّة قد جعل المسلمين منذ ذلك التاريخ، يمدّون نظرهم إلى ما وراء حدود القسطنطينيّة. وبانسحاب الصليبيّين من هذه الأرض، نشأ واقع غاب عن رؤية الكثير من الباحثين، ألا وهو أنّ ذلك الانسحاب، كان بمثابة تقاسم غير معلن للشرق والغرب، بين المسيحيّين والمسلمين: الشرق للمسلمين، والغرب للمسيحيّين.

عمليًّا، حقّقت الحروب الصليبيّة نتيجة بالغة الأهميّة بالنسبة للمسيحيّة في الغرب، فلقد كان السلاجقة الأتراك، يوم نداء البابا أوربانوس الثاني، يهدّدون الغرب جديًّا، ولقد أزال الصليبيّون هذا التهديد تمامًا من خلال مهاجمة مصدر الخطر في عقره، ولكنّهم ما أن أزالوا الخطر الاسلاميّ عن أوروبّة المسيحيّة، وحقّقوا الهدف القوميّ الرئيس، حتّى انطفأت فيهم جذوة الجهاد. فالجهاد لم يكن جهادًا للمسيحيّة بشكل عام، بل كان

جهادًا من أجل إيطاليا وما وراءها. كان جهادًا قوميًّا أكثر ممّا كان جهادًا دينيًّا، وإلاّ لكان الغرب قد حرص على اجتياح الشرق بقوّة ساحقة وليس بحملات متتالية لا يربط بينها أيّ استراتيجيّة واضحة الأبعاد.

هذا الواقع فعل فعله أيضًا في شكل العلاقة بين قوى روما اللاتينيّة وقوى القسطنطينيّة الإغريقيّة المسيحيّة، والتي أصبحت بيزنطيّة.

صحيحٌ أنّ بداية الحملات الصليبيّة كانت تحالفًا بين هاتَين القوتَين، إلاّ أنّهما لم تُصبحا في يوم من الأيّام قوّة واحدة، هما لم تبلغا قط درجة الاندماج. حتّى في أحلك أيّام المسيحيّة، بقي هناك قوى بيزنطيّة وقوى لاتينيّة. بقيت هنالك كنيستان، بقي هنالك الأمبراطور والبطريركيّة المسكونيّة في القسطنطينيّة، والبابا في روما. بقيت المسيحيّة مشرذمة. بقي الصراع الخفيّ ليفعل فعله بينهما. بينما توحّدت القوى الإسلاميّة الرئيسيّة تحت لواء: لا إله إلاّ الله، وإذا اشترك "المشركون" في واقعة، أو معركة، أو حقبة، فإنّ الصليب بقي صلبانًا: قبطيًّا ويعقوبيًّا وأرمنيًّا ونسطوريًّا وملكيًّا وأريوسيًّا ومانويًّا ومارونيًّا وبيزنطيًّا ولاتينيًّا... عداك عن طوائف تشرذمت بين خلقيدونيّة ومشيئة واحدة ومشيئتَين، وطبيعة واحدة وطبيعتَين، ومريم أمّ اللّه ومريم الإمرأة العاديّة، والفطير، وعماد التائبين، ولقب البطريرك، والأيقونات ... وإلى ما هنالك من بدع واستقامات، وما يُضحك الباحث أو يبكيه بحسب انتمائه العقيدوي.

حتّى أنّ الصليبيّين اللاتين قد انقسموا بعضهم على بعض، فتحارب البنادقة مع الجنويّين، وقضى آل بليولوغس على الأمبراطوريّة الصليبيّة في القسطنطينيّة، وتناحر الإقطاعيّ مع الإقطاعيّ والأمير مع الأمير والأميران مع الملك. تناحروا وتقاتلوا وهم مخيّمون في مرجة تحيط بها غابات الأعداء...

تقول لنا المدوّنات أنّ الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧)، أحد كبار من دقّوا الوتد في التابوت الصليبيّ، قد تحالف، أو على الأقلّ قد تمكّن من إيجاد علاقة وديّة، مع ميخائيل الثامن أمبراطور الروم (١٢٥٨ - ١٢٨٢)، وبذلك قهر الأخير اللاتين في القسطنطينيّة، واتّفق الإثنان، بناء على رغبة بيبرس، على "أن يبقى ميخائيل مُضيّقا على اللاتين، ومنفتحًا على بيبرس وعلى القباجقة، بني جنسه، لتتمّ الصلة بين مصر وجنوب روسيا عن طريق البحر... فوافق الأمبراطور بليولوغُس ميخائيل الثامن على اقتراح بيبرس، وأزوج خان القباجقة من ابنته، غير الشرعيّة، وفتح المضايق للمماليك، مقابل إقامة بطريرك أرثذوكسيّ في الإسكندريّة سنة ١٢٦٢. ثمّ حالف هذا الأمبراطور القسطنطينيّ، السلطان المصريّ الأيّوبيّ للصمود في وجه القائد الصليبيّ كارلوس أنجو"[١]. هذا الأمبراطور كان العاشر على القسطنطينيّة بعد ألكسيس الأوّل (١٠٨١ - ١١١٨) الذي كان استنجاده ببابا روما العامل الأساسيّ في مجيء الصليبيّين إلى الشرق. وها هو ميخائيل يتعاهد مع أعداء الأمس الذين استنجد سلفه بالصليبيّين لإنقاذ المسيحيّة من قوّتهم، ويخطّط معهم لإزالة الصليبيّين من الشرق، وللعودة بالوضع إلى ما كان عليه يوم الإستنجاد بهم.

يعتبر مؤرّخو الروم أنّ هذا التحالف الذي حصل بين السلطان المسلم بيبرس والأمبراطور البيزنطيّ ميخائيل الثامن، والذي دفع الأوّل وقبض الثاني ثمنه إقامة بطريرك أرثذوكسيّ في الاسكندريّة سنة ١٢٦٢، "هو الذي هيّأ الجوّ لبيبرس من أجل محاربة الصليبيّين"[٢]، فقام في السنة التالية "على رأس جيش قويّ وهاجم الناصرة، فاستولى عليها وخرّب كنيستها وشاهد خرابها وقد سوّيت بها الأرض، وأغار على

١ - رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٣٣٧، مرجعه: DOLGER F., *REG.*, PP. 1902 - 2052.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٣٣٧.

عكّة فغنم في ضواحيها"[1]. "ثمّ جال سنة ١٢٦٥ جولة ثانية فاستولى على قيصريّة فلسطين ودكّ أبراجها وخرّب حصونها وأبنيتها. وما لبث أن أسقط أرسوف، وأن دخل حيفا منتصرًا وبطش فيها بطشًا"[2].

وهكذا كرّت حروبه إلى نهايتها. وعندما كان بيبرس، لدى استسلام أنطاكية، يقتل وينهب في المدينة التي لم يسلم منها سوى بضعة آلاف التجأوا إلى القلعة، ولدى استسلامهم جرى بيعهم بأبخس الأثمان نظرًا لكثرتهم، فبلغ ثمن الصبيّ اثنَي عشر درهمًا، وثمن البنت خمسة دراهم[3]، لم يميّز إطلاقًا بين ما هو بيزنطيّ وما هو لاتينيّ! وعندما هجر رؤساء الدين الناجون أنطاكية المدمّرة لم يتّجهوا إلى القسطنطينيّة بل إلى دمشق، مركز السلطة الإسلاميّة في البلاد، وذلك بموجب الاتفاق الذي حصل بين الأمبراطور ميخائيل الثامن وسلطان المماليك بيبرس في أمر بطاركة الكرسيّ الأنطاكيّ، "فاعترف السلطان برئاستهم وسمح بانتقالهم من أنطاكية إلى دمشق"[4].

واللافت في هذه التطوّرات، أنّ الأمبراطور البيزنطيّ ميخائيل الثاني، كان في الوقت نفسه يسعى بقوّة من أجل التوصّل إلى اتّحاد بين الكنيستَين اللاتينيّة والبيزنطيّة. إذ كان، على خطّ آخر، يفاوض البابا اسكندر الرابع (١٢٥٤ ـ ١٢٦١) في موضوع الاتحاد. ولكنّ ميخائيل سيطر على القسطنطينيّة قبل أي تقدّم في شأن الاتحاد[5].

---

١ ـ أبو الفداء، المختصر، ٣: ٢١٧ ـ ٢١٨.

٢ ـ BARHEBRAEUS, ASSEMANI, *BIBL. ORIENT* III: 444 -445, DULAURIER VARTAN, *JOURN. ASIATIQUE* (1860), PP. 205 -206.

٣ ـ AINI, *PERLES D'HISTOIRE*, REC. HIST. CROIS., II: 229 - 234; BARHEBRAUES, P.448

٤ ـ *ECCELESIA IEROSOLEMON*, ANON. 42

٥ ـ JANAIN R., *LES SANCTUAIRES DE BYZANCE SOUS LA DOMINATION LATINE*, ETUDES BIZANTINES, (1945) PP. 134 -184; NORDEN W., *DAS PAPSTTUM UND BYZANZ*, F., PP. 382 - 383.

من شأن متابعة قصّة محاولات ميخائيل الثامن في شأن اتّحاد الكنيسة من خلال اتّصالاته بروما، أن تدلّ بوضوح على أنّ الأمبراطور البيزنطيّ كان يضع هدفًا واضحًا لسياسته، وهو سيطرة البيزنطيّين على الممالك اللاتينيّة في الشرق، أو على الأقلّ على كنائس الشرق. فبعد سيطرته على القسطنطينيّة، سالم المغول في آسية ليتسنّى له فرض سلطته على ممتلكات الروم في البلقان.

وإذ كان البابا اسكندر الرابع قد توفّي، وخلفه أوربانُس الرابع (١٢٦١ ـ ١٢٦٤) حاول البابا الجديد تنظيم حملة صليبيّة أخرى إلى القسطنطينيّة لاستعادتها من يد البيزنطيّين، فسارع ميخائيل إلى مفاوضة البابا في أمر الاتّحاد، ما جعل الحبر الرومانيّ يعدل عن مشروع الحملة. وكاد الاتفاق يتمّ بين البابا، والأمبراطور الداهية، لكنّ وفاة البابا سنة ١٢٦٤ حالت دون ذلك.

خلف أوربانُس الرابع متسنّمًا كرسيّ البابويّة كليمانص أو اقليمُس الرابع (١٢٦٥ ـ ١٢٦٨) وكان هذا الأخير أشدّ اندفاعًا من الذين سبقوه في إعادة إحياء الأمبراطوريّة اللاتينيّة في الشرق. وقد صارح كليمانص الأمبراطور ميخائيل، مهدّدًا، بأنّه لا يعِد بعدم إرسال حملة صليبيّة جديدة قبل خضوع الأمبراطور، هو وكنيسته، لسلطة روما[١]. وبالفعل راح هذا البابا يشجّع ملوك إيطاليا على العمل الحربيّ في الشرق، وانتزع من بودوان الثاني تنازلاً عن حقوقه في عرش القسطنطينيّة اللاتينيّ إلى كارلوس أنجو ملك صقليّة، وذلك أمام البابا في فيتيربو VITERBO، وإذ خشي ميخائيل الثامن سوء العاقبة، سارع إلى مفاوضة البابا في شأن الاتّحاد، لكنّ اقليمُس كان قد أدرك أهداف الأمبراطور، فتصلّب في موقفه، فارضًا إعلان الانصياع لكنيسة روما قبل البحث

---

١ - DOLGER F., PP. 1934 - 1947.

في أيّ موضوع آخر. لكنّ الأقدار شاءت أن يفارق هذا البابا الحازم الحياة في خريف سنة ١٢٦٨. كما شاءت أن يقع ارتباك في روما بسبب انقسام الكرادلة الذي أدّى إلى شغور السدّة الباباويّة مدة سنتَين وتسعة أشهر. وإذ فقد ميخائيل المرجعيّة في روما، راح يفاوض ملك فرنسا لويس التاسع (١٢١٤ ـ١٢٧٠) راجيًا "وضع حدّ لمطامع أخيه كارلُس أنجو في ممتلكات الروم"[١]. وقبل أن يتفق الكرادلة ويُجلسوا على الكرسيّ الرومانيّ غريغوريُس العاشر سنة ١٢٧١، كان لويس قد توفّي قبل سنة دون أن تزول أهداف كارلوس في استعادة القسطنطينيّة.

كان غريغوريُس من الذين أدركوا حقيقة المخاطر المهدّدة بانهيار الإمارات اللاتينيّة في الشرق، لأنّه يوم انتُخب بابا، كان في فلسطين، فراح يعمل على مختلف الجبهات من أجل درء ذلك الخطر. ففاوض التتر في محاربة المسلمين، وحضّ الأمير إدوارد البريطانيّ على تنظيم حملة صليبيّة جديدة. ومرّ، وهو في طريقه من فلسطين إلى روما، بالقسطنطينيّة حيث التقى الأمبراطور ميخائيل وأظهر له استعداده للعمل الجدّي في سبيل اتحاد الكنيستَين. وبينما أكمل غريغوريُس طريقه إلى روما، سارع ميخائيل إلى دعوة الأساقفة والأشراف والوجهاء إلى اجتماع عام، شرح بخلاله الخطر المحدق ببيزنطية، وأعرب عن إيمانه بضرورة الاستعانة بالغرب. لكنّ موقف الأمبراطور قوبل بمقاومة شديدة ومكابرة عنيدة من قبل المجتمعين، لا سيّما من البطريرك والأساقفة وبعض أعضاء الأسرة المالكة. ولم يتمكّن ميخائيل من استمالة سوى بعض علماء اللاهوت وعدد قليل من الأساقفة[٢].

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٣٢٦، مرجعه: IBID, 1968, 1971

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، مرجعه: BRÉTIER L., *BYZANCE*, P.398.

وإذا ما تابعنا تلك التطوّرات نجد أنّ تحالف ميخائيل مع بيبرس في الشرق لم يكن سوى نتيجة تخوّف الأمبراطور، لا بل تأكّده، من قرب سحق المسلمين للصليبيّين، فحاول من خلال ذلك التحالف أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من كنائس الشرق.

إنّ الداعي لهذا الاستنتاج، هو أنّ ميخائيل قد لبّى البابا غريغوريُس إلى مجمع عقد في ليون ربيع سنة ١٢٧٤، وجاء المدينة الفرنسيّة وفد بيزنطيّ أعلن خضوع كنيسة بيزنطية لسلطة روما العظمى، وأكّد استعداد الامبراطور للاشتراك في حملة صليبيّة جديدة[١]. أمّا ردّة الفعل، في القسطنطينيّة، على خضوع الأمبراطور لسلطة روما العليا، فكانت عنيفة، فاستقال البطريرك يوسف الأوّل احتجاجًا، وقرّعت شقيقة الأمبراطور، أفلوجيا، أخاها، وضجّ الأمراء، والتأم مجمع أرثذوكسيّ لتوبيخ الأمبراطور الذي رغم ذلك كلّه، واظب على الاتّحاد حتّى وفاته[٢].

خلف البابا غريغوريُس بعد وفاته سنة ١٢٧٦ أربعة باباوات بخلال أربع سنوات كان آخرهم نيقولاوُس الذي توفّي سنة ١٢٨٠، وقد سار الباباوات الأربعة على خطى غريغوريُس. ولكن بموت البابا نيقولاوُس الثالث سنة ١٢٨٠ وبموت ميخائيل الثامن سنة ١٢٨٢، وإذ كانت تدابير تثبيت الإتّحاد قد تعرقلت بسبب تسارع موت الباباوات من جهة، وبسبب الخلافات العنيفة داخل القسطنطينيّة من جهة ثانية، وبوصول مرتينُس الرابع (١٢٨١ ـ ١٢٨٥) إلى السدّة الرومانيّة من جهة، ووصول أندرونيكُس إلى السدّة الأمبراطوريّة البيزنطيّة سنة ١٢٨٨، وقيام عمّته أفلوجيا بتحريضه على فسخ الاتّحاد، سقط حلم الاتّحاد بين الكنيستَين، ما أسقط حلم تثبيت ركائز

١ - Nicephorus Gregoras, Ist., VI, 1 - 2.

٢ - Grumel V., *En Orient après le Concile de Lyon*, (Echos d'Orient, 1925) pp. 321 - 322; Rouillard G., *Politique de Michel VIII*, (Etudes Bizantine, 1944) pp. 73 - 84.

الأمبراطوريّة المسيحيّة في الشرق، وأُعيد تنظيم الحكم والكنيسة في القسطنطينيّة بشكل مستقلّ عن اللاتين[١]، لتأخذ الأحداث مجراها الذي أخذته.

كان للحروب الصليبيّة، عمليًّا نتائج مناقضة تمامًا للهدف الذي كانت من أجله تلك الحروب أساسًا. فلقد جاء الصليبيّون إلى الشرق تحت شعار الصليب وبهدف حماية المسيحيّين والمسيحيّة فيه، ولكن بانعطافهم عن أهدافهم، أو بالأحرى عن الأهداف التي أرسلوا من أجلها، انتفى الجامع بينهم، فكانت الخلافات لا بل المنازعات في ما بينهم التي زادت في زعزعة مملكتهم الغريبة عن أرضها إلى أن انهارت تمامًا. وبذلك كان على مسيحيّي الشرق أن يتحمّلوا وزر الأحقاد التي خلّفها الإفرنج في قلوب المسلمين. وقد انصبّ الحقد والكره اللذان ولّدتهما الحروب الصليبيّة على المسيحيّين من أهل البلاد، وعلى تلك الأقلّيات المسلمة المنشقّة عن السنّة، بحجّة أنّ بعضها قد ساند "الكفّار" بحسب الافتاءات التي صدرت في ذلك العصر. وبالإجمال "فإنّ عواقب الحملات الصليبيّة على الشرق كانت مفجعة. فقد خشي المماليك رجوع الإفرنج، إذ كان بعضهم قد تحوّل إلى جزيرة قبرص، فعمدوا إلى تخريب المرافىء"[٢].

فبينما يذكر الرحّالة إبن جبير (١١٤٥ ـ ١٢١٧) أنّ عكّا، بعد صور، كانت أشد المدن ازدهارًا في سورية الإفرنجيّة، "وقد كانت مدينة منقطعة النظير بحصونها"[٣]، يذكر رحّالة آخر زار المنطقة بعد الأوّل بقرن من الزمن، أنّها كانت خرابًا يبابًا[٤].

---

١ - NICEPHORUS GREGORAS, IST., VI: 1-2.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٥٩؛ راجع: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩؛ إبن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، الطبعة الفرنسيّة (باريس، ١٨٩٣) ٢١: ١٢٩ ـ ١٣٠؛ قابل: الادريسي، نشر غولد ميستر، ص ١١.

٣ ـ إبن جبير محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٤.

٤ ـ أبو الفداء (١٢٧٣ ـ ١٣٣٣)، تقويم البلدان، ص ٢٤٣.

وقد يكون إبن بطّوطة أفضل مَن أعطى صورة عن وضع المنطقة إثر تحريرها من الإفرنج، فيذكر أنّ عسقلان كانت خرابًا، وكذلك مدينة عكّا، وصور، وطبريّة "التي كانت في ما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبقَ منها إلاّ رسوم تنبىء عن عظمتها"[١].

وهكذا أصبحت جميع مدن الشاطىء الواقعة بين عسقلان وطرابلس خرابًا أو ما يشبه الخراب[٢].

وإمعانًا في سياسة التخريب، عمد سلاطين المماليك إلى تدمير لبنان تدميرًا منظّمًا، بعد أن عملوا ببعض النصوص الشرعيّة القديمة، وباجتهادات لفقهاء مسلمين سنّة، فضيّقوا على النصارى وأوجبوا الحدّ من نفوذهم، كما أنّهم أحدثوا تدابير جعلت المسلمين المُنشقّين يتساوون مع المسيحيّين في المقاساة. ففي سنة ١٢٧٧ هدم العامل المملوكيّ في القدس كنيسة القيامة "وقتل قسّيسها بيده وحوّلها إلى زاوية إسلاميّة. كما هدم المماليك كنيسة الروم في الإسكندريّة التي كانت مقرّا بطريركيًا يعتقد الأرثذوكس أنّ رأس يحيا بن زكريّا[٣] مدفون فيها، ثمّ جعلوها مسجدًا وأطلقوا عليها اسم المدرسة الخضراء" على ما ذكر مؤرّخ المماليك شهاب الدين لبنويري (١٢٧٨ - ١٣٣٢)[٤].

وإذ حقد المماليك على مسيحيّي الرها وأنطاكية بسبب التأييد الذي أبداه هؤلاء للصليبيّين، عمدوا إلى ابتزاز جميع أموال مسيحيّي القدس وسلعهم، وعملوا على تشريدهم مستثنين العاجزين والمرضى والنساء والأطفال[٥]. وفي العام ١٢٩٩ أصدر

---

١ - إبن بطوطة، تحفة النظار، ١: ١٢٦ - ٢٣١.

٢ - راجع: ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩.

٣ - يحيى بن زكريا في المراجع الإسلامية هو اسم ليوحنا المعمدان.

٤ - النويري، نهاية الأرب، طبعة باريس، ج٢٩، ص ٩٨.

٥ - WILLIAM OF TYRE, I: 334.

السلطان المملوكيّ قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) مراسيم تُحرّم على "النصارى" من رعاياه تولّي الوظائف الحكوميّة. وعمد خليفته السلطان الناصر محمّد بن قلاوون (١٢٩٣ ـ ١٢٩٤) إلى تطبيق التدابير القديمة التي أوجبت على أهل الذمّة أن يرتدوا ملابس خاصّة يُعرفون بها، وأن يمتنعوا عن ركوب الخيل والبغال. كذلك فعل الناصر الثاني الحسن ابن الناصر محمّد (١٣٤٧ ـ ١٣٥١) الذي زايد على جدوده فأمر بإلغاء عيد قوميّ من أعياد القبط، وأقفل الكثير من كنائس المسيحيّين في مصر[١]. ناهيك عمّا تعرّض له موارنة لبنان من مجازر[٢]. وما عاناه مسيحيّو مصر في تلك الحقبة سواء كانوا من الأرثذوكس أو من الأقباط المونوفيزيّين[٣]. ومن المدوّنات أنّه في سنة ١٤٤٢ "ختم على كنائس النصارى الملكيّين في مصر لأنّه وجد داخلها أعمدة من الحجارة المنحوتة... وحصل على جميع أهل الطوائف من أهل الذمّة من الإهانة والتغريم ما لا مزيد عليه"[٤]. وفي سنة ١٤٤٥ أمر الملك الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ ـ ١٤٥٣) بهدم جدار كنيسة الملكيّين في القاهرة" لأنّ جدارها عال على مسجد يجاورها وأنّه يجب هدمه"[٥]. وبعد سنتين أمر السلطان بهدم تلك الكنيسة، وهي الواقعة بقصر الشمع، وأمر ببيع أنقاضها، ليُبنى بثمنها مسجد في مكانها[٦]. و"عندما توفّي السيد أحمد بن حسن بن علي الشافعي الشهير بن النعماني سنة ١٤٤٨، كان قد أسلم على يده ثمانون كافرًا... ولم يبق في قصر الشمع ولا دموة (الجيزة) ولا في المدينة كنيسة

---

١ ـ المقريزي، كتاب السلوك، ترجمة كاترمير، ١: ٦٩.

٢ ـ راجع الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ راجع الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة.

٤ ـ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأنباء العمر، طبعة باريس، ص٢٦١.

٥ ـ المرجع السابق ص٢٦١ ـ ٢٥٧.

٦ ـ السنحاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص١٨٠ ـ ١٨٢.

للنصارى إلاّ وقد شملها من السيد إمّا هدم، وإمّا بعض هدم، وإمّا إزالة منبر، أو أيقونة أو حجاب أو هيكل"[1].

لم يكتفِ السلطان جقمق بكل هذا، بلْ "جهّز خاصكيّا اسمه إينال باي... فحضر إلى القدس الشريف بمرسوم من الملك الظاهر بالكشف على الديارات وبهدم ما استجدّ بدير صهيون وغيره. وانتزاع قبر داوود من النصارى. فهُدم البناء المستجدّ بصهيون، وأُخرج قبر داوود من أيدي النصارى، ونُبشت عظام الرهبان المدفونين بالقبو الذي به قبر داوود... وكان ذلك اليوم مشهودًا. وفي تلك السنة وقع البطش بالنصارى، فأُخرج المسجد من دير السريان وسُلّم للشيخ محمّد المشمّر وصار زاوية. وهُدم البناء المستجدّ ببيت لحم وبالقيامة، وقُلع الدرابزين الخشب... وأُخذ إلى المسجد الأقصى بالتكبير والتهليل. وكُشفت جميع الديارات وهُدم ما استجد بها"[2]. وقد اعتبر المؤرّخ المسلم أنّ تلك الأعمال التي جاد بها السلطان سيف الدين جقمق في أواخر عهده جعلته مؤهّلا لأن "يختم الله أعماله بالصالحات وإزالة الديارات المنكرات"[3]. ما من شأنه أن ينمّ عن الحقد الذي خلّفته الحملات الصليبيّة في نفوس المسلمين.

في هذه الأثناء، كان رجال الفكر المسيحي في الغرب قد اقتنعوا بإخفاق الوسائل العسكريّة في معاملة المسلمين، بعد أن كان بعض الروّاد منهم قد دعا منذ أواسط القرن الثاني عشر إلى تركيز الإهتمام على الوسائل السلميّة، وخاصّة التبشيريّة منها، وهكذا بدأ نشر الإرساليّات اللاتينيّة في بلاد الشرق[4]. إلاّ أنّ المماليك قد واجهوا

---

١ ـ المرجع السابق، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

٢ ـ الحنبلي مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

٣ ـ المرجع السابق.

٤ ـ راجع الجزءين العاشر والحادي عشر من هذه الموسوعة.

الإرساليات بتقييد شديد. وفي كتاب البراءة الذي أرسله السلطان إلى بطريرك الملكيّين، ينبّهه ألاّ يقابل الأجانب وألاّ يستضيفهم، لا سيّما إذا كانوا من المشتبه بهم، وألاّ يراسل حاكمًا أو ملكًا في دولة أجنبيّة. وقد أرسل تنبيهًا مماثلاً إلى بطريرك السريان (اليعاقبة)[١]. وفي الإطار نفسه انقطعت الرسائل بين روما وبطريرك الموارنة الذي استمرّ طيلة عهد المماليك ينقل مقره من قرية إلى أخرى نظرًا للحالة القلقة التي كانت سائدة[٢].

لم تنجح محاولات المماليك في إبادة الكنائس المسيحيّة، كما أنّها لم تنجح في إبادة المذاهب المنشقّة عن السنّة، على أنّها أضعفت هؤلاء جميعًا "وقد وجّهت هذه السياسة أنظار السكّان، في شمالي سورية وفي لبنان وفلسطين التي ظلّت زمنًا طويلاً تحت الحكم الأوروبي، وفي الدرجة الأولى الإفرنسي، إلى الغرب"[٣]. وكما كانت ردّة الفعل ضد الأوروبيّين عميقة في سلبيّتها لدى انكسار هؤلاء على أيدي المماليك، كذلك ستكون ردّة فعل الجماعات الدينيّة التي عانت من ظلم المماليك سلبيّة بعمق، وستوجّه أنظار تلك الأقليّات نحو الغرب حتّى بعد زوال حكم المماليك وطوال مدة حكم خلفائهم: العثمانيّين.

---

١ ـ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٣١٢ هـ.) ص١٤٥ ـ ١٤٦.

٢ ـ DIB P., L'EGLISE MARONITE (PARIS,1930), PP. 156 - 219.

٣ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٣٩٩.

الفَصْلُ السَّابِع

في العَهدِ العُثمَاني

سُقُوطُ القُسطَنطِينيَّة

فِي ظِلِّ التَّنظِيمَاتِ العُثمَانِيَّة

إستقلال البَطرِيَركيَة الأنطَاكيَّة

سُقوطُ القُسطَنطِينيَّة

التُّرك: ظهرت، كلفظة، لأوّل مرّة، إسمًا لأقوام من بداة آسية الوسطى في بداية القرن السادس، كانت قبائلهم تقيم بين بحر آرال[1] وجبال ألتائي[2]، وتُقسم إلى ثلاثة فروع: الويغور والكرلوك والأغوز أو الغز، نزح بعضها شرقًا وبعضها غربًا إلى ما وراء نهر جيحون[3]. إلى أن تمكّنت من إنشاء دويلات بدويّة انتشرت في منغوليا وحدود الصين الشماليّة حتّى البحر الأسود، "وكما عاش الأعراب على الجِمال، كذلك عاش الأتراك على الخيل، فشربوا ألبانها وأكلوا لحومها وامتطوها في طلب النصر. وقد استخدموا الركاب والقوس والنبال، وكانت الميزة التي تفوّقوا بها على خصومهم سرعة الانتقال. كان أوّل اتّصالهم بالشعوب الهنديّة الأوروبيّة في تركستان[4]. وفي هذه البلاد واجههم العرب الفاتحون للمرّة الأولى في القرنَين السابع والثامن، وعندما بلغ آسية الصغرى بعد ذلك من عُرف منهم بالعثمانيّين، وجدوا البلاد قد تتركت جزئيًّا على يد أنسبائهم السلاجقة، وهم أمراء تركمانيّون نسبوا إلى جدّهم سلجوق. ويعود

---

١ - **بحر آرال أو بحر خوارزم** ARAL: بحيرة مالحة في تركستان الغربية يصبّ فيها نهرا سيرداريا وأموداريا.

٢ - **ألتائي** ALTAÏ: سلسلة جبال في آسية الوسطى بين روسيا والصين، فيها معادن الذهب والفضة، يبلغ ارتفاعها ٤٥٢٠ متراً.

٣ - **نهر جيحون أو أموداريا** AMOU-DARIA: طوله ٢٥٤٠ كيلومتراً، هو إكسس القديم، نبعه من جبال بامير (الهند)، يجتاز آسية السوفياتيّة ويصبّ في بحر آرال (راجع آرال أعلاه).

٣ - **تركستان**: منطقة في آسية الوسطى بين سيبيريا وبحر قزوين وإيران وأفغانستان والهند ومنغوليا، هي منقسمة بين الصين والاتحاد السوفياتي سابقاً، دخلها المسلمون ابتداءً من ٧٥١، القسم الصيني يؤلّف مقاطعة سين كيانغ، والقسم الذي كان في الإتحاد السوفياتي مساحته أربعة ملايين كيلومتر مربع يؤلّف جمهوريّات: تركمانستان، أوزباكستان، تاشقاند، تادجيكستان، القرغير، قازخستان.

السلاجقة والعثمانيّون بالنسب إلى قبيلة الغز، أو الإتّحاد القبليّ المعروف بهذا الاسم. أمّا المؤسّس الذي نُسبت إليه السلالة العثمانيّة فزعيم شبه تاريخيّ إسمه عثمان[1]، عاش بين القرنَين الثالث عشر والرابع عشر، يستدلّ من اسمه هذا، إذا صحّ، أنّ عشيرته كانت آخذة في اعتناق الإسلام أو قد اعتنقته نهائيًا. وقد بقيت الدولة العثمانيّة بعد أن تأسّست حوالى سنة ١٣٠٠ نحوًا من ستذ وستّين سنة مجرّد إمارة قائمة على الحدود، واتّخذت بعد سنة ١٣٢٦ مدينة بروسا[2] قاعدة لها. ثمّ غدت بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٤٥٣ مملكة عاصمتها مدينة أدرنة[3]. وكان استيلاء محمّد الثاني الفاتح على القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣ فاتحة العهد الأمبراطوريّ للدولة العثمانية"[4].

في ربيع سنة ١٤٥٢ بدأ السلطان العثمانيّ محمّد الثاني (١٤٤٦ ـ ١٤٨١) بإنشاء قلعة بالقرب من القسطنطينيّة على الساحل الأوروبّي قبالة قلعة "كوزل حصار" التي كان قد أنشأها بايزيد على الشاطىء الآسيويّ. وكان بايزيد الأوّل (١٣٤٧ ـ ١٤٠٢) الملقّب "بلدرم" أي الصاعقة، وهو السلطان العثماني (١٣٧٩ ـ ١٤٠٢) قد حارب القسطنطينيّة سبعة أعوام واحتلّ الصرب قبل أن ينتصر عليه تيمورلنك في معركة أنقرة ويأسره.

عندما أرسل الأمبراطور قسطنطين الحادي عشر وفدًا إلى محمّد الثاني ليحتجّ على بناء القلعة، ما كان من السلطان العثمانيّ إلاّ أن أمر بأعضاء الوفد فقُطعت

---

١ ـ راجع: KOPRÜLÜ MEHMED FUAD, *LES ORIGINES DE L'EMPIRE OTTOMAN* (PARIS,1935), PP. 87, SEQ.; WITTEK PAUL, *THE RISE OF THE OTTOMAN EMPIRE* (LONDON,1938) PP. 7 SEQ.; VONHONNER JOSEPH, *GESCHICHTE DES OSMANISCHEN REISCHES*, VOL. I (PEST,1827), PP. 40 SEQ.

٢ ـ بروسا .BROUSSE: مدينة في غربي تركية الأسيوية، فتحها أورخان بن عثمان سنة ١٣٢٦ واتخذها العثمانيون عاصمة لهم.

٣ ـ أدرنة ANDRINOPLE: مدينة في تركية أوروبا من مدن الأمبراطوريّة البيزنطيّة، فتحها الأتراك سنة ١٣٦١ فأصبحت مقرًا لسلاطينهم حتى ١٤٥٣.

٤ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

رؤوسهم. وإذ تأكّد لقسطنطين الخطر المنتظر، راح يرمّم أسوار القسطنطينيّة ويتهيّأ للدفاع. كما أنّه راسل أمراء البندقيّة وجنوى مستنجدًا وملوّحًا بامتيازات هامّة للإمارتَين. كذلك بعث يستنجد بالبابا نيقولاوس الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥).

أرسلت روما الكاردينال أسيدورس إلى القسطنطينيّة ليبحث أمر التعاون، وقد طالب الكاردينال الأمبراطور بأن يُذكر إسم البابا في رتبة القدّاس في القسطنطينيّة تمهيدًا لإقناع اللاّتين بوجوب إرسال حملة للدفاع عن القسطنطينيّة، غير أنّ الأمبراطور كان مُحرجًا بموقف كبار أعضاء الإكليروس الروم الرافض للخضوع لسلطة البابا، أمّا وقد أوجب الظرف عليه أن يساير روما، ضغط على بعض كبار الإكليروس وأقام في الثاني عشر من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٤٥٢ قدّاسًا حافلاً في كنيسة الحكمة الإلهيّة في القسطنطينيّة بموجب الطقس اللاتيني. "وما أن فعل، حتّى ضجّت المدينة بالاحتجاج... وقال أحد زعماء المعارضة الدوق الكبير "نوتاراس" قوله المشهور: "عمائم الشيوخ ولا تيجان الكرادلة"[1]!

يفرض الإنصاف هنا التذكير بأنّ الأجواء بين كنيستَي الشرق والغرب كانت لا تزال عابقة بسبب ما جريات المجمع المسكونيّ الذي أطلق عليه إسم مجمع فلورنسا، والذي بدأ أعماله فعلاً في بازل سنة ١٤٣١، وانتقل إلى فرارا، وأنهى أعماله في فلورنسا سنة ١٤٣٩. وكانت غاية ذلك المجمع التوصّل إلى الوحدة بين الكنيستَين. وبعد جهد جهيد، تحمّل في خلاله ممثّلو الكنيسة الشرقيّة الكثير من الأعباء وقدّموا الملحوظ من التنازلات، توصّل المجمع إلى إعلان صيغة اتّحاد أعلنت رسميًا في السادس من تمّوز (يوليو) ١٤٣٩ في قدّاس حبريّ أقامه البابا أوجانيوس الرابع

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، ٣: ٣.

(١٤٣١ ـ ١٤٤٧)، تلاه باللاتينيّة الكردينال "سيزاريني" يمين البابا، وباليونانيّة متروبوليت نيقيا "بيساريون" ثمّ تعانقا. ولكن عندما وصل الوفد الأرثذوكسيّ إلى القسطنطينيّة في الأوّل من شباط (فبراير) ١٤٤٠، صدم أعضاؤه فيها بمعارضة شديدة من الإكليروس والشعب، ونُعتوا بـ"الفطيريّين والخونة والهراطقة". وجلّ ما سمح به المعتدلون من هؤلاء ذكر اسم البابا في الذبتيخة ولم يوافقوا على إذاعة نصّ كتاب الاتّحاد "TOMUS UNIONIS"[١]. وقد علّل باحثون كنسيّون سبب عدم دوام الاتّحاد الذي عُقد بين مختلف الكنائس الشرقيّة والكنيسة الرومانيّة في مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩، بأنّه كان وليد الظروف السياسيّة، ولم ينبثق عن رغبة عميقة من شعوب الشرق والغرب للتلاقي والتحاب، بل كان نتيجة مفاوضات قام بها الرؤساء وحدهم دون استشارة رغبات شعوبهم، ودون تهيئتهم لهذا الحدث الهامّ. وممّا أدّى إلى انفصام الوحدة المصطنعة وتقوية الانفصال، أنّ الغرب كان في أواسط القرن الخامس عشر متضعضعًا مضطربًا من الناحيتَين الروحيّة والسياسيّة، وأنّ الشرق كان رازحا تحت سيطرة المماليك والعثمانيّين الذين سعوا جهدهم لعزل المسيحيّين عن العالم الغربيّ[٢].

كان لموقف رجال الدين البيزنطيّين، ولمن سار في ذلك الموقف ولمن تسبّب به، فعل إنهاء القسطنطينيّة كعاصمة من عواصم المسيحيّة في الشرق. ولم ينتصف شهر أيّار (مايو) من سنة ١٤٥٣ حتّى كان الأتراك قد اقتحموا سور المدينة التي دبّ الذعر في أهلها، خاصّةً بعد أن سقط الأمبراطور المنكود الحظّ شهيدا وهو يحارب في ميدان الشرف. وقد أباح السلطان العثمانيّ المدينة ثلاثة أيّام بلياليها لستّين ألف مقاتل، إضافة إلى عدد كبير من الدراويش والتجّار والفلاّحين الذين انخرطوا في الحملة وقد

---

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله، ٢: ٣٥٨ ـ ٣٦٩.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

استهواهم النهب والسلب. ثمّ دخل السلطان المدينة وذهب توًّا إلى كنيستها الكبرى، كنيسة الحكمة الإلهيّة، واعتلى المذبح وصلّى صلاته الاسلاميّة، فتحوّلت الكنيسة إلى مسجد وتحوّل القصر الأمبراطوريّ، وهو المعروف بالقصر المقدّس، إلى مقرّ للسلطان، وتحوّلت القسطنطينيّة المسيحيّة إلى عاصمة للعثمانيّين السنّة[1].

إنّ القسطنطينيّة التي عصت على الإسلام بجميع خلافاته، منذ الراشدين حتّى المماليك، والتي بقيت عاصمة للمسيحيّة في الشرق منذ انتقل إليها هرقل في العام ٦١١، كانت دائمًا هدفًا أخيرًا لتلك الخلافات جميعًا. إلاّ أنّها هذه المرّة كانت هدفًا أوّل لجحافل فاتحي شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط ومصر ومحيطها: العثمانيّين.

بعد فتح القسطنطينيّة، انطلق الأسطول العثمانيّ ليحتلّ عددًا من الجزر اليونانيّة الواقعة شمالي بحر أيجه. وعندما توفّي السلطان محمّد الثاني سنة ١٤٨١ كان قد أخضع بلاد الصرب، وقضى على إمارتي الروم في المورة، وعلى دوقيّة أثينة اللاتينيّة، واستولى على أمبراطوريّة طرابزون*. وأوصى محمّد بالخلافة لابنه الأصغر: جم، الذي شهدت الدولة العثمانيّة الفتيّة تفسّخًا واضطرابات بسبب رفضه من قبل الإنكشاريّين[2] الذين والوا أخا محمّد الأكبر: بايزيد. ومات محمّد، بعد أربعة عشر عامًا من الصراع مع أخيه، مسمومًا في نابولي سنة ١٤٩٥ بعد أن أسره شارل الثامن. وبقيت السلطنة التركيّة العثمانيّة في حال من النزاع انتقل إلى أبناء بايزيد وأحفادهم

---

١ - PEARS E., *DESTRUCTION OF THE GREEK EMPIRE* (1930); AMANTOS C., *LA PRISE DE CONSTANTINOPLE* (ATHENES,1953); BABINGER E., *MEHEMED, DER EROBERER UND SEINE ZEIT* (MUNICH,1953); *ANNALES SULTANORUM OTTOMANIDARUM*, P.G., VOL.159, COL. 573 - 650; GUERDAN R., *VIE GRANDEUR ET MISÈRES DE BYZANCE* (PARIS,1954) P. 205.

٢ - **الإنكشارية**: معناها الجنود الجدد، هو أسم الجيش المنظّم الذي أحدثه العثمانيّون في القرن الرابع عشر.

حتّى سنة ١٥١٢ عندما تمكّن سليم بن بايزيد من إكراه والده على التنازل له عن العرش، وكان أوّل أمر أصدره أن يُدسّ السمّ لأبيه ليثبّت أقدامه سلطانا.

إتّجه سليم الأوّل (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) بفتوحاته شطر آسية، فهاجم فارس التي كان على عرشها الشاه إسماعيل الصفوي الشيعيّ، وتمكّن، سنة ١٥١٤، من ضمّ ديار بكر وكردستان إلى دولته. ثم اتّجه شطر المماليك، فكان أوّل صدام بين القوّتين قد حصل في منطقة حلب في عهد بايزيد، وقد انتهى بصلح موقّت مهدّد في أيّ وقت، بسبب التنافس والتزاحم على النفوذ والزعامة في العالم الاسلاميّ بين القوّتين العثمانيّة والمملوكيّة. وقد حاول المماليك السنّة التحالف مع الإيرانيّين الشيعة ضدّ بني عثمان السنّة، ما أغضب السلطان العثمانيّ الذي أرسل للسلطان المملوكيّ يبلغه أنّ اسماعيل الصفوي، ملك إيران، خارجيّ، "وأنت مثله وسأبدأ بك قبله، وموعدنا مرج دابق"[١]. إلتحم الجيشان في ٢٤ آب (أغسطس) ١٥١٦، حيث واجه جيش المماليك المصريّ المؤلّف من جماعات من البدو والسوريّين بأسلحتهم التقليديّة القديمة: السيف والخنجر، جيش الإنكشاريّة العثمانيّ المسلّح بالبنادق والبارود، وبالمدافع على أنواعها، ومنها الكبيرة الموضوعة على عجلات تجرّها الخيول[٢].

كان على رأس جيش المماليك السلطان قانصوه الغوري الملقّب بالملك الأشرف، وكان يومها في أواسط العقد الثامن من عمره، وقد قاتل قتال الأبطال، ولكنّ أصوات المدافع، ورؤيته لقادته وولاته يخونونه وهم ينضمّون الواحد تلو الآخر إلى جيش العثمانيّين المتفوّق بعدده وعدّته، قد جعلا قلبه الهرم ينهار فجأة ليسقط عن صهوة حصانه، ويتمّ بذلك النصر للسلطان العثمانيّ سليم الذي اعتقله ونقله، وهو يعاني آلام

١ ـ مرج دابق: موضع في سورية الشمالية بين منبج وانطاكية على نهر قويق على بعد يوم عن حلب.

٢ ـ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول (بغداد، ١٢٨٢هـ) ص٢٢٠.

القلب، إلى القسطنطينيّة. وبذلك سقطت سورية بكاملها بيد العثمانيّين إذ تسارع ولاتها وعمّال المماليك فيها إلى إعلان ولائهم لهؤلاء. وقد رحّب أهلها بأسيادهم الجدد، شأنهم في كثير من الحالات السابقة، إذ اعتبروا أنّهم منقذون لهم من الأسياد السابقين. ولم يشذّ أمراء لبنان وأعوانهم عن ذلك، بل سارعوا بقيادة فخر الدين الأوّل إلى مرج دابق ليعلنوا ولاءهم للسلطان. ومن سورية، بعد ذلك الفتح اليسير، سار الجيش العثمانيّ المظفّر جنوبًا نحو مصر حيث كان قد نودي بالمملوكيّ "طومان باي" سلطانًا عليها. فالتحم الجيشان في الثاني والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٥١٧ في الريدانيّة قرب القاهرة، حيث انهزم الجيش المصريّ الذي اثخنته القذائف، وشُنق طومان باي على أحد أبواب القاهرة الرئيسيّة في ١٧ نيسان (إبريل).

بسقوط مصر بعد البلاد السوريّة، غدا الحجاز جزءًا من الأمبراطوريّة العثمانيّة، حيث ما لبث اسم السلطان أن أصبح يُذكر في مساجدها. وها هي سلطنة جديدة تبسط سيادتها على العرب وسائر الساميّين، وهي أجنبيّة المولد، وإن كانت في دينها قد أسلمت حديثًا. هذه السلطنة سوف تحكم أمبراطوريّة بلغت أوج عزّها في عهد سليمان الأوّل القانونيّ (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)، وهو ابن الفاتح سليم الأوّل. ذلك أنّ القانونيّ هذا قد استولى على الجانب الأكبر من هنغاريا. وحاصر مدينة فيينّا، واحتلّ جزيرة رودُس. وقد امتدّت الأمبراطوريّة في عهده من بودابست على نهر الدانوب، إلى بغداد على نهر دجلة، ومن بلاد القرم إلى شلال النيل الأوّل. "ولم ينشئ المسلمون في العهد الحديث دولة هذا مداها، وكانت، إلى ذلك، من أطول الدول الإسلاميّة عمرًا"[١]، إذ ستعمّر حتّى سنة ١٩٢٢، وقد ظهرت أوّل ما ظهرت سنة ١٣٠٠.

---

١ ـ إبن أياس، بدائع الزهور في تاريخ الدهور (القاهرة، ١٨٩٣)، ٣: ٩٧، ١١٥.

كانت الدولة العثمانيّة اسلاميّة تيوقراطيّة بجوهرها، كجميع الدول الإسلاميّة التي تعاقبت قبلها، تُميّز المسلمين عن غير المسلمين من رعاياها. فالرعايا المسيحيّون ذميّون، يعاملون على أنّهم من الدرجة الثانية، وفي بعض الأحيان من الأعداء، هم لا يستطيعون أن يكونوا مواطنين بكامل الشروط ما لم يتحوّلوا إلى الإسلام، وكان وجودهم مجرّد أمر مقبول به، لكنّ عقائدهم وحقوقهم مُصانة لقاء دفع الجزية. وكان العثمانيّون يصنّفون الرعايا المسيحيّين بحسب الكنائس التي ينتمون إليها، بصرف النظر عن قوميّاتهم، فجميع المسيحيّين الأرثذوكس في الدولة كانوا يُعتبرون من الأروام، ولفظة روم عند الأتراك كانت تعني: الإغريق أو البيزنطيّين. وأصبح بطريرك الروم الأرثذوكسيّ في القسطنطينيّة الرئيس المدنيّ لجميع المسيحيّين، من أتباع الطقس اليونانيّ، الذين يؤلّفون ملّة الروم. وأصبح المطارنة الرؤساء المحليّين لأبناء أبرشيّاتهم والممثّلين لهم لدى السلطات التركيّة، ونالوا بعض الإمتيازات في حقل القضاء الجزائيّ والمدنيّ. وفي ما بعد، استفاد بطاركة الكنائس المختلفة، ورؤساء الطوائف الإسرائيليّة، من الامتيازات نفسها[1]. وبهذا تمّ ما تمنّاه، أو ما فضّله على الأقلّ دوق القسطنطينيّة الكبير سنة ١٤٥٢: "عمائم الشيوخ ولا تيجان الكرادلة".

---

١ - بولس، التحوّلات، ص ٣١٥؛ LA MOUCHE, HISTOIRE DE LA TURKIE, P. 192 -193

فِي ظِــــــــــلِّ
التَّنظِيمَاتِ العُثمَانِيَّة

إعتبر باحثون كبار[1] أنّ فلسفة العثمانيّين السياسيّة، كما فهمها الوالي العاديّ على الأقل، كانت تقوم على أنّ الشعوب المغلوبة، من غير المسلمين، كانوا: رعيّة، يتعهّدهم: الراعي، لمنفعة الفاتح. وهذا التعبير المُستعار من حياة البدو في الجزيرة العربيّة، كان يعبّر كذلك عن المدارك التقليديّة التي جالت في أذهان الأجيال المتحدّرة من القبائل البدويّة في آسية الوسطى. فالشعوب المغلوبة في رأيهم، بمثابة المواشي البشريّة، ولذلك اقتضى أن: يُحلبوا ويجزّوا، وإنّما يتيسّر لهم أن يعيشوا كما يبتغون ما داموا لا يسبّبون المتاعب. ولمّا كان أكثرهم من الفلاّحين والصناعيّين والتجّار، فلم يطمحوا إلى الانخراط في سلك الجنديّة، ولا نزعوا إلى تولّي المناصب المدنيّة. لكنّ "القطيع" كان بحاجة إلى: كلاب حراسة. وكان هؤلاء يجنّدون بالأكثر من أسرى الحرب، والرقيق الذي في حوزتهم، وأولاد النصارى الذين يؤخذون في مقابل الضرائب ثم يدرّبون ويربُّون كمسلمين. وكان هؤلاء المجنّدون يخضعون لمنهج عنيف من التدريب في العاصمة يستغرق سنين كثيرة، ويمرّون في مباريات شاقّة وغربلة دقيقة. فمَن أبان عن فطنة وتوقّد ذهن أُعدّ من جديد لتولّي المناصب الحكوميّة، ومَن تميّز بالقوّة الجسديّة وُجّه إلى الخدمة العسكريّة، وكان أصلبهم يحوّل إلى فرقة المشاة المعروفة بالإنكشاريّة. وكانت طبقة الحكّام وطبقة الجند في الأمبراطوريّة في أوّل الأمر، تُنتقيان منهم على سبيل الحصر[1]. فرؤساء الوزارة، والوزراء، وأمراء البحر،

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٣١٣.

٢ - Albert H. L, *The Governement of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent* (Cambridge, 1913) pp. 45- seq.; Barnette Miller, *The Palace School of Muhammad the Conquerror* (Cambridge,1941), pp. 6 seq., 81-82, 84 -96.

والقوّاد، وحكّام الأقاليم جميعهم كانوا في ما سبق عبيدا، وكذلك بقوا. فكانت أرواحهم وأملاكهم في كلّ آن تحت رحمة سيّدهم السلطان الذي ما تردّد يومًا في ممارسة حقّه في هذه الملكيّة... وقد اعتمد العثمانيّون أساسا آخر للتنظيم الإداريّ هو: التابعيّة الدينيّة. ذلك أنّ المجتمع في الشرق الأدنى كان، منذ عصور عريقة في القدم، يُقسم على أساس الملّة بدلاً من العرق والعنصر. وكانت نواة الملّة في التنظيم الإداريّ الأسرة، لا الإعتبار الجغرافيّ. ومن هنا كانت العقيدة والقوميّة في أذهان الناس اعتبارَين متشابكَين يتعذّر الفصل بينهما. وكان كلّ من الفئات الدينيّة في الأمبراطوريّة العثمانيّة تُسمّى ملّة. وكانت أكبر الملل إثنتين: ملّة الإسلام وملّة الروم. وكان الأرمن واليهود يعدّون في جملة الملل. وكانت جميع الملل غير المسلمة، تبعا لهذا النظام، مقسّمة إلى طوائف دينيّة برأس كلاًّ منها رئيس من أبناء الطائفة يمارس بعض المهام المدنيّة الخطيرة، بحيث أدّى هذا الوضع إلى إنشاء نظام خاصّ بحكومات الأقليّات الخاضعة. وكان الأوروبيّون المقيمون في البلاد: من بندقيّين وبروسيّين (ألمان) وفرنسيّين وإنكليز، يعاملون كسائر الملل، ففي سنة ١٥٢١ عقد السلطان سليمان معاهدة مع البندقيّين في ثلاثين فصلاً، ثبّت فيها الإمتيازات التي كانت لهم إبّان الحكم البيزنطيّ. وحصل الفرنسيّون على امتيازاتهم الأولى، بعد ذلك بأربع عشرة سنة، والإنكليز سنة ١٥٨٠.

وقد رأى السلاطين العثمانيّون من الحكمة أن يظلّ الشقاق قائمًا بين الكنيستين اليونانيّة واللاتينيّة[١]، فراحوا يوصلون إلى السدّة البطريركيّة في القسطنطينيّة المعارضين للاتّحاد بين الكنيستَين. وحلّ الفاتح العثمانيّ محلّ الأمبراطور فأصبح يثبت

---

١ - Paparrhigopoulos C., *Istoria Ellenichou Ethnous*, V:504-522; Elliot Sir Charles, *Turkey in Europe*, 242 ff.

البطريرك بقوله: "كن بطريركًا حرسك اللـه وسأوليك عطفي. وتمتّع بجميع الحقوق التي مارسها سلفاؤك"[1]. وإذ حصر العثمانيّون الشعب المسيحيّ الأرثذوكسيّ بالبطريرك الذي كان من حقّه النظر في الخصومات، ومن واجبه جمع الضرائب المفروضة على الروم وكنائسهم، عاد عدد كبير من الروم إلى القسطنطينيّة واستقرّوا حول البطريركيّة، وكان لهم من ثروتهم القائمة على التجارة ومن براعتهم في السياسة ما ضمن لهم مركزًا رفيعًا في مختلف العهود العثمانيّة[2].

ومع أنّ مذهب الدولة العثمانيّة كان المذهب الحنفيّ السنّيّ، وقد خضع السلطان للشرع الشريف واعتزّ بحكمه وأحكامه، لكنّه قال في الوقت نفسه بـ "العادة والعُرف والقانون". والعادة هي ما استمرّ الناس عليه عند حكم العقول وعادوا إليه مرّة بعد أخرى. والعُرف هو ما استقرّ في النفوس من جهة شهادات العقول وتلقّته العقول السليمة بالقبول، وهو عند الأتراك العثمانيّين كان إرادة السلطان السنيّة، وهو من المعاني الخصوميّة التي انفردوا بها[3]. والقانون هو العُرف المدوّن بأمر السلطان أو مجموعة الإرادات السلطانيّة المدوّنة، وهذه الإرادات السنيّة كانت لا تصدر قبل مشاورة العلماء المقرّبين من السلطان العارفين المطّلعين الذين كانوا يجارون السلطان في فتاويهم للمحافظة على المصلحة السياسيّة والاجتماعيّة بمقتضى الظرف. من هنا كانت الإمتيازات التي خصّ بها محمّد الفاتح وخلفاؤه بطاركة القسطنطينيّة[4].

---

١ - Souvorov N., Manuel de Droit Ecclésiaatique, P. 78; Papadopoulo Th., *History of Greek Chirche and People*, II. N 2.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله، ٣: ٦.

٣ - Hammer Joseph Von, *Staatsverfassung*, 30; Fehmi Y., *Histoire de la Turkie*, P. 237; Lybyer A., *Govermment of Ottoman Empire*, PP. 152 -159.

٤ - رستم، كنيسة مدينة الله، ٣: ١٣.

قبل فتح العثمانيّين للقسطنطينيّة، كان بطريركها يُعتبر الثاني بعد "بطريرك" روما، بحسب التعبير البيزنطيّ، وبعد بابا روما بحسب التعبير الغربيّ. وكان يتقدّم على بطاركة الشرق الثلاثة: الأنطاكيّ، والأورشليميّ، والإسكندريّ، الذين سبق لهم واعترفوا بهذا التقدّم. وكان بطريرك القسطنطينيّة قد اتّخذ لنفسه لقب البطريرك المسكونيّ، بمعناه البيزنطيّ أي: بطريرك الأمبراطويّة. ورغم اعتراض روما على هذا اللّقب، فإنّ بطاركة الشرق الثلاثة، دون البطريرك المارونيّ، قد وافقوا على ذلك. وهكذا، فعندما استولى العثمانيّون على البلاد، أصبح بطريرك القسطنطينيّة بطريرك الدولة العثمانيّة[1].

ويرى باحثون معاصرون علماء بتاريخ الكنيسة في الشرق، أنّه ما كاد محمّد الفاتح يستولي على القسطنطينيّة، حتّى أدرك أنّ خير وسيلة للسيطرة على الشعوب المسيحيّة الخاضعة لسلطانه، إنّما هي تقوية مركز البطريرك القسطنطينيّ وتوسيع سلطته الروحيّة. فرسم بأن تخضع له جميع الشعوب التابعة للطقس البيزنطيّ، ومنعها من الإلتجاء إلى رئيس روحيّ آخر. فأضحى البطريرك القسطنطينيّ كأنّه "بابا الشرق" تدعم سلطته الدولة العثمانيّة الشاسعة الأطراف. ونصّب السلطان جناديوس بطريركا على القسطنطينيّة وفق المراسيم المعهودة لدى أباطرة الروم، فاتّخذ البطريرك الجديد كنيسة الرسل مقرًّا له، لأنّ العثمانيّين حوّلوا كنيسة "آجيا صوفيا" إلى مسجد، ثمّ أصدر السلطان فرمانًا أكّد به للروم على أنّه يحترم كنائسهم ومعابدهم ويمنحهم الحريّة المطلقة في ممارسة شعائرهم الدينيّة. واعتادت الحكومة العثمانيّة بعد ذلك أن تأخذ من كلّ مرشّح إلى البطريركيّة مبلغًا من المال. وازداد المبلغ على كرّ الأيّام حتّى أضحى

---

١ - راجع: De Testa I., *Recueil*, V: 170; Appendix I., Néale J., *Patriarchate of Antioch*, P. 194

عبئا ثقيلا ناء به كاهل كنيسة القسطنطينيّة. وفرض السلطان على البطريرك، علاوة على ذلك، أن يدفع له كلّ سنة كميّة محدودة من المال، فإنْ امتنع عن دفعها أقاله ونصّب غيره[1].

إشتهر من بطاركة القسطنطينيّة في القرن السادس عشر إرميا الثاني (١٥٧٢ ـ ١٥٩٥) الذي قاوم البروتستانت اللوثريّين الذين سألوه أن يعلن موافقة الكنيسة الأرثذوكسيّة على مبادئ البروتستانت، فردّ بالتأكيد على توافق المبادئ الأرثذوكسيّة والكاثوليكيّة تجاه البروتستانتيّة. ولكن عندما اتّصل به البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) وعرض عليه قبول إصلاح التقويم السنويّ، عقد في القسطنطينيّة مجمعا رفض التقويم الجديد والسير بموجبه. وقد أجرى هذا البطريرك إصلاحات دينيّة هامّة، فمنع المتاجرة بالقدسيّات، ورفع المستوى الثقافيّ لرجال الدين، وأُسّست في عهده المدرسة اليونانيّة في البندقيّة. أمّا البطريرك كيرلّس الخامس (١٧٤٨ ـ ١٧٧٤) فقد أنكر صحّة معموديّة اللاتين، وقرّر ضرورة إعادة منح المعموديّة لمَن يعود منهم إلى الأرثذوكسيّة. وحظّرت روما على الكاثوليك سنة ١٧٢٩ الإشتراك مع الأرثذوكس في الأسرار، فتوقّفت حركة التقارب الدينيّ بين الغرب والشرق. وابتدأت في مطلع القرن التاسع عشر حركة تحرّر الشعوب المسيحيّة البلقانيّة من نير الاستعمار العثمانيّ، ورافقتها حركة تحرّر كنائس هذه الأقطار من سلطة بطريرك القسطنطينيّة[2].

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٧٥.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

إستقـــــــــــلال

البَطريَركيَّة الأنطَاكيَّة

في وقت تمكّن النفوذ اليونانيّ من السيطرة على بطريركتي الإسكندريّة والقدس في حقبة الاحتلال العثماني، بقيت كنيسة أنطاكية مدّة قرنين في أيدي البطاركة العرب، وقد تجاذبتها في هذه الآونة ثلاث عواصم مسيحيّة هي: روما والقسطنطينيّة وموسكو. وقد قام من بطاركة أنطاكية يواكيم الخامس ضوّ (١٥٨٠ ـ ١٥٩٢)[1] برحلة دامت ثلاث سنوات زار خلالها القسطنطينيّة وموسكو وبولونيا ورومانيا، حيث تباحث مع رؤساء تلك الكنائس في الشؤون المشتركة. وقام بعده البطريرك مكاريوس زعيم الحلبيّ (١٦٤٧ ـ ١٦٧٢) برحلتَين إلى موسكو، ووُصفتا بالمهمّتين. ولمّا انتخب الدمشقيّون عام ١٧٢٤ الأب ساروفيم طاناس بطريركا على أنطاكية باسم كيرلّس السادس، وقد نشأت على يده الكنيسة البيزنطيّة الكاثوليكيّة في أبرشيّة أنطاكية، نصبّت القسطنطينيّة سلفستروس القبرصيّ اليونانيّ (١٧٢٤ ـ ١٧٦٦) بطريركا أنطاكيًّا أرثذوكسيًّا. وتتابع البطاركة اليونانيّون في الفرع الأرثذوكسيّ من البطريركيّة الأنطاكيّة حتّى سنة ١٨٩٨، وكان يعيّنهم بطريرك القسطنطينيّة. فخلف سلفستروس: فيليمون (١٧٦٦)، دانيال (١٧٦٧)، أنثيموس (١٧٩٢)، سيرافيم (١٩١٣)، مثوذيوس (١٨٢٣)، إيروثاوس (١٨٥٠)، جراسيموس (١٨٨٥)، وسبيريدون خلفا لجراسيموس الذي استعفى (١٨٩٠).

---

١ ـ جاء في بعض المراجع أنّ المطران "ليورناردو هابيل المالطيّ" الذي أوفده البابا غريغوريوس الثالث عشر إلى الشرق (١٥٨٣ ـ ١٥٨٧) قد اتّصل في حلب بالبطريرك المستقيل "ميخائيل السابع الصبّاغ"، فقدّم إليه البطريرك إيمانه الكاثوليكيّ، واجتمع بالبطريرك يواكيم الخامس ضوّ في دمشق، وحرّضه على قبول قرارات مجمع فلورنسا والتقويم الغريغوريّ، فاعتذر البطريرك، وأكّد أنّه لا يمكنه البتّ في مثل هذه الأمور قبل الاتّفاق مع بطريركي القسطنطينيّة والإسكندريّة. وأرسل في هذه الأثناء وجهاءُ الطائفة في طرابلس رسالة إلى البابا يظهرون له فيها رغبتهم في الوحدة. ـ يتبع وديك، مرجع سابق، ص ٢٨٩.

في هذه الحقبة، كانت قد انتعشت الروح القوميّة العربيّة، وبدأت النهضة في هذه المنطقة من الشرق. فتقرّر التخلّص من هيمنة القسطنطينيّة والعناصر اليونانيّة على بطريركيّة أنطاكية. فأبدى أعضاء المجمع الأنطاكي المقدّس، والشعب عمومًا، رغبتهم في وضع نظام خاص للكرسيّ الأنطاكيّ يمنع المداخلات غير القانونيّة في انتخاب البطريرك، ويرتّب شؤونه على طريقة موافقة للقوانين الكنسيّة الشرقيّة ولمقتضيات العصر، وتقرّر وضع هذا النظام في المجمع المنعقد سنة ١٨٩٠ لمناسبة انتخاب سبيريدون. وتعيّنت لذلك لجنة من المطارنة أخذت تتداول بشأنه، ولكنّ الظروف لم تساعدها على إخراجه، فظلّت كنيسة أنطاكية خاضعة لأسس النظام القسطنطينيّ. وفي أوائل شباط (فبراير) ١٨٩٨، رفع الشعب الأنطاكيّ عريضتَين: إحداهما إلى المجمع الأنطاكيّ المقدّس، والأخرى إلى الباب العالي التمس بموجبها أن يؤذن للكرسيّ الأنطاكيّ بوضع نظام على غرار النظام القسطنطينيّ. فاستجاب الباب العالي لهذا الطلب وأمر والي سورية أن يساعد على إتمامه. وفي الرابع عشر من آذار (مارس) ١٨٩٨ أعلن الوالي موافقة الباب العالي[١]. فأُقيل البطريرك سبيريدون اليونانيّ عام ١٨٩٨[٢] وانتُخب عوضًا عنه سنة ١٨٩٩ البطريرك ملاتيوس دوماني. فلم تعترف به الكنائس اليونانيّة، وساندته الكنائس السلافيّة[٣].

---

١ ـ رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٣٨١.

٢ ـ بعد تعاظم المعارضة الشعبيّة والأسقفيّة لاستمرار البطريرك اسبيريدون على الكرسي الأنطاكي، وتحقق السلطات الرسميّة التركيّة أنّ بقاءه أصبح غير ممكن، نصحه بعض المخلصين من المطارنة أن يستعفي فقدّم استعفاءه في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨، فقبل المجمع الأنطاكي المقدس هذا الاستعفاء في جلسة ٦ شباط (فبراير) ١٨٩٨، وانتخب جرمانوس متروبوليت ترسي قائمقامًا بطريركيًا ثمّ عيّن مكانه ملاتيوس اللاذقيّة في ١٢ أيّار (مايو) ١٨٩٨ وهو ملاتيوس الدوماني الذي سينتخب بطريركًا أصيلاً باسم ملاتيوس الثاني. تجدر الإشارة إلى أنّ أبرز المعارضين لانتخاب البطريرك اسبيريدون بالطريقة التي انتخب بها كان غفرائيل متروبوليت بيروت (ت١٩٠١) الذي كان أُغفل اسمه من لائحة المطارنة الذين انتخبوا اسبيريدون من دون سبب. للاطلاع على الملابسات راجع: رستم، كنيسة مدينة الله، ٣: ٢٥٣ ـ ٢٦٩.

٣ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

جعل البطريرك ملاتيوس والمجمع باكورة أعمالهم العودة إلى مدرسة إكليريكيّة لتثقيف المرشّحين لخدمة الكنيسة، فأقرّوا افتتاح مدرسة البلمند في دير البلمند من أعمال الكورة في لبنان مطلع السنة ١٩٠٠، واختاروا متروبوليت طرابلس غريغوريوس حدّاد وكيلاً لها وغطّاس قندلفت خرّيج مدارس اليونان الإكليريكيّة مديرًا وأستاذًا للعلوم اللاهوتيّة فيها. وقد برع غريغوريوس في تأمين جميع متطلّبات سير هذه المدرسة التي احتفل بتدشينها على يد رئيس دير البلمند الجديد إيوانيكيوس في ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٠. في الوقت نفسه بدأ البطريرك الجديد جولة رعائيّة شملت أكثر الرعايا والمؤسّسات الأرثذوكسيّة في المناطق اللبنانيّة، وفي خلالها عيّن لجنة بيروتيّة برئاسة الأرشمندريت بولس أبي عضل للنظر في إنشاء مدرسة جامعة أرثذوكسيّة في بيروت. وقام بجولة مماثلة في سورية أنشأ في خلالها مجلسًا مليّا ومحكمة روحيّة وجمعيّة خيريّة أرثذوكسيّة في اللاذقيّة في تمّوز (يوليو) وآب (أغسطس) ١٩٠٠، بينما كان يؤسّس المتروبوليت غريغوريوس حدّاد مجلسًا مليًّا في طرابلس. وفي أيلول (سبتمبر) من العام نفسه حلّ في الإسكندريّة حيث كان لزيارته وقع كبير على جميع الصعد الرسميّة والإكليريكيّة والشعبيّة. وكذلك كانت زيارته لأنطاكية وجوارها. وأتبع هذه الجولة في العام ١٩٠٥ بجولة ثانية شملت حمص وحماة وطرابلس والبلمند والشوير. وفي عهده قام تلميذه البار الأرشمندريت جراسيموس مسرّة بتعريب طبعة القسطنطينيّة الأخيرة من كتاب "التيبيكون" المصدّقة من مجمعها المستعملة في كنيستها العظمى مضيفًا إليها فوائد من "تيبيكون" القديس سابا وكتب الخدمة وسبكها جميعًا بعبارة عربيّة خالصة وطبعها على نفقته وحبسها وقفًا على جميع كنائس الكرسيّ الأنطاكيّ وأبرشيّاته وأديرته تذكارًا لارتقاء معلّمه كيريوس ملاتيوس الثاني على السدّة البطريركيّة الأنطاكيّة. وفي الوقت نفسه قام تلميذ آخر له هو

غريغوريوس جبارة متروبوليت حماة بإكمال كتاب دفع به العقيدة الأرثذوكسيّة وأسماه "التعاليم السنيّة" ورفعه إلى معلّمه الذي لمس فوائد الكتاب فدفعه إلى الطبع ورسم بأن يوزّع مجانًا على كهنة الكرسيّ والجمعيّات الأرثذوكسيّة. ونشط في الحقبة نفسها عبده ينّي بابادوبولوس فعرّب عن اليونانيّة كتاب "رفيق المسافر" الذي أعدّ بسعي المعلّم "فوتيرا" وبإجازة المجمع القسطنطينيّ المقدّس. وكان فضل الله أبو حلقة، عضو جمعيّة القدّيس بولس الأرثذوكسيّة البيرونتيّة بإصدار مجلّة "المحبّة" الأسبوعيّة الدينيّة العلميّة الأدبيّة الإخباريّة. وفي سنة ١٩٠١، ومن ضمن عمليّة ملء الشواغر وتنظيم الأبرشيّات، وإثر وفاة متروبوليت بيروت المطران غفرائيل، وبناء على رغبة أبناء الأبرشيّة، تمّ فصل أبرشيّة بيروت عن جبل لبنان فأضحتا أبرشيّتين بالنظر لكبر الأبرشيّة وتعدّد حاجاتها، أبرشيّة بيروت، وأبرشيّة جبيل والبترون وتوابعهما[١].

وكان البطريرك ملاتيوس قد ترأس لجنة لوضع النظام للكرسيّ الأنطاكيّ ضمّت إليه أربعة مطارنة هم: أثناسيوس (حمص) و"غريغوريوس (حماة) وغريغوريوس (طرابلس) وجراسيموس (سلفكياس أي معلولا وبعلبك وزحلة). واشترك معهم بعض أصحاب الخبرة من العلمانيّين، منهم غطّاس قندلفت. واجتمعت هذه اللجنة في جلسات متتالية وأنجزت عملها سنة ١٩٠١، وصدّق المجمع الأنطاكيّ المقدّس هذا القانون دون أن يعرضه على الحكومة. وفي السادس والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٠٦ قضى البطريرك ملاتيوس الثاني بسكتة دماغيّة. وبعد وفاته، اجتمع المجلس الترشيحيّ برئاسة أثناسيوس متروبوليت حمص وعدّل هذا القانون فحذف من مادّته الأخيرة العبارة التي توجب عرض القانون على الحكومة للحصول على موافقتها. وعليه جرى

---

١ ـ راجع: رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٢٤١ ـ ٣٢٢.

انتخاب غريغوريوس حدّاد[١] متروبوليت طرابلس بطريركًا أنطاكيًّا في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٠٦، حمل اسم غريغوريوس الرابع[٢]. رغم مطالبة بعض أعيان الكنيسة في أبرشيّة "ترسي" و"أدنه" بإجراء الانتخاب على القاعدة القديمة، وقد تعاطف معهم البطريرك الإسكندريّ الذي حاول تحريك كنيسة القسطنطينيّة، ولكنّ السينودس القسطنطينيّ المقدس آثر عدم التدخّل[٣].

وكانت كنيسة موسكو أولى الكنائس المرحّبة بهذا الانتخاب. وأسرعت جميع الكنائس المستقلّة للترحيب أيضًا بمحبّة أخويّة. وإذ برز اعتراض من مطارنة اليونان الأنطاكيّين الأربعة البعيدين عن كرسيهم الذين اعتُبروا مستقيلين، منح السلطان العثمانيّ الوسام المجيديّ الأوّل للبطريرك الجديد، فكان هذا بمثابة ردّ على ذلك الاعتراض. بيد أنّ بطريرك القسطنطينيّة المسكونيّ يواكيم، الذي كان رائدًا في مجال توثيق عرى المحبّة والوفاق بين الكنائس الأرثذوكسيّة، قد ردّ على رسالة الجلوس برسالة تتضح بالمحبّة الأخويّة والتعاضد. وكذلك فعل ثيوكليتُس متروبوليت أثينا،

---

١ ـ **البطريرك غريغوريوس الرابع حدّاد** (١٨٥٩ ـ ١٩٢٨): هو غنطوس بن جرجس بن غنطوس الحداد، ولد في بلدة عبيه من أعمال قضاء عاليه في جبل لبنان وتعلّم في المدرسة الأميركيّة فيها، دخل سلك الكهنوت على يد متروبوليت بيروت ولبنان غفرائيل الذي ألحقه بمدرسته الإكليريكيّة ١٨٧٢ واتخذه كاتبًا له ١٨٧٥ وألبسه الإسكيم الرهباني في دير سيدة النوريّة ١٨٧٧، سامه شمّاسًا ١٨٧٩ وأناط به عدّة مهامّ منها إنشاء جريدة "الهداية" ونيابة رئاسة "جمعيّة القدّيس بولس" وأوقفه على طباعة كتاب "البوق الإنجيلي"، سامه قسًّا ١٨٩٠ ثمّ عيّن متروبوليت لطرابلس خلفًا لصفرينوس نجّار في أيار ١٨٩٠، انتخب بطريركًا لكرسي أنطاكية خلفًا لملاتيوس الثاني ١٩٠٦، اشتهر بنشاطه واستقامته وعفافه وزهده ودماثة أخلاقه، كان ضليعًا بالعربيّة والرياضيّات والمنطق والعلوم الشرعيّة من فقه وميراث، وكان لاهوتيًّا مدقّقًا وخطيبًا مفوّهًا، وكان له اضطلاع باللغات اليونانيّة والتركيّة والروسيّة، اشتهر بأعماله الإنسانيّة والخيريّة والوطنيّة في لبنان وسوريا تجاه جميع المواطنين بدون تمييز، خاصّة في سنوات الحرب العالميّة الأولى التي عانت فيها شعوب البلاد أقسى الويلات، فلقّب ببطريرك العرب.

٢ ـ رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٣٨١.

٣ ـ رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

ودميانُس بطريرك أورشليم، وفوطيوس بابا وبطريرك الإسكندريّة[1]. ومع حلول سنة ١٩٠٩ كانت العلاقات الطيّبة قد عادت بين مختلف الكنائس الأرثذوكسيّة، فاعترفت جميعها بالبطريرك غريغوريوس الرابع حدّاد (١٩٠٦ ـ ١٩٢٨) الحبر اللبنانيّ، الذي يُعتبر مفخرة رجالات عصره، فلقّب ببطريرك العرب.

كان عهد البطريرك حدّاد حافلاً بالإنجازات على كافّة المستويات. فقد سارع إلى ملء الكراسي الشاغرة في الأبرشيّات التابعة لأنطاكية بأساقفة كفوئين، ولم يتوان عن زيارة رعاياه والاطلاع على أحوالها، فقام بجولات رعائيّة إلى حوران وجوارها حيث أصلح بين الأحزاب وأعاد إلى حظيرة الكنيسة الذين تركوها لمناسبة تلك التحزّبات. ثمّ زار مرجعيون وميمس والكفير وعين عطى وشبعا وعين حرشه وراشيّا وزحلة ومحيطها في لبنان، ومنها انتقل إلى بيروت مرورًا بجديتّا والمريجات وبحمدون وعاليه وعاريّا وحدث بيروت، وقد أصدر منشور المحبّة من مركز مطرانيّة بيروت في آذار (مارس) ١٩١٢ بمناسبة الصوم الكبير. وفي أثناء هذا التطواف أنشأ عدّة مدارس وساعد الجمعيّات الخيريّة وبثّ شعور النهضة في قلوب أبنائه، وكانت له مقابلات مع الحكّام واستقبالات شعبيّة ورسميّة كبرى حيثما حلّ. وفي حمص انضمّ مطران السريان المونوفيزيّين إلى كنيسة أنطاكية الأرثذوكسيّة سنة ١٩١٢. وسرعان ما عادت العلاقات إلى مجراها الطبيعيّ بين الكرسيّ البطريركيّ الأنطاكيّ والأبرشيّات التابعة لها، والكراسي البطريركيّة الشقيقة في مختلف الأنحاء. وفي سنة ١٩١٠ عقد مجمعًا أنطاكيًّا في دمشق عالج شؤونًا كنسيّة وتنظيميّة إن داخليّة أو بين الكنيسة والدولة. وقد تمكّن البطريرك حدّاد بسياسته الحكيمة من المساهمة في رفع شأن

---

١ ـ رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٣٢٥ ـ ٣٣٣.

المسيحيّين عموما في الأمبراطوريّة العثمانيّة في تلك الحقبة من التاريخ. فتصدّى لمحاولات الحكومة التركيّة إلغاء حقوق الكنيسة وامتيازاتها التاريخيّة في صيف ١٩٠٩ لمناسبة إعلان الدستور العثماني. وفي السنة نفسها، ساوت الحكومة التركيّة بين المسلمين والمسيحيّين في مجال التجنيد.

وفي عهده جرى تأسيس مدرسة السلام في بيروت سنة ١٩٠٦، وكليّة حمص الأرثذوكسيّة سنة ١٩١٠، وقد اهتمّ البطريرك شخصيًا بتدبير مدرسة البلمند الإكليريكيّة في شمال لبنان.

ولعلّ من أبرز نشاطات البطريرك حدّاد، على صعيد جمع شمل الكنيسة الأرثذوكسيّة، وإعادة الوهج إلى الكرسيّ الأنطاكيّ، تلبيته لدعوة آل "رومانوف" ليرأس الحفلات الدينيّة سنة ١٩١٣ لمناسبة بمرور ثلاثمئة عام على اعتلائهم العرش الروسي[١]. وقد زار بطريق سفره بحرا الآستانة حيث قابل الصدر الأعظم "محمود شوكت باشا" والسلطان "محمّد رشاد" الذي قلّده الوسام العثمانيّ المرصّع، كما زار البطريرك المسكونيّ "جرمانُس الخامس" حيث كان اللقاء أخويًا وحافلاً. وفي روسيا لاقى استقبالا كنسيًّا وقيصريًّا وشعبيًا يليق بكبار القادة والزعماء. ولدى استقبال القيصر للبطريرك الأنطاكيّ، قبّل ووالدته الصليب من يد البطريرك. وخاطب أنطونيوس رئيس أساقفة "فولين" البطريرك الأنطاكيّ باسم كنيسة روسيا فقال: "لقد مضى زمن ينوف عن مئتَي سنة منذ فقدت كنيستنا راعيها الأعلى، ونحو مئتَي وخمسين سنة منذ انقطع حماة الأرثذوكسيّة المسكونيّة عن زيارتنا، وها نحن الآن ننظر إليكِ بتخشّع وسرور فنرى فيك بهجة الكنيسة المسيحيّة بأجملها لأنك بأقنومك

---

١ - رافق البطريرك الأنطاكي غريغوريوس الرابع حدّاد في هذه الرحلة ألكسندرُس الذي كان خلفه متروبوليتًا على طرابلس وحاشية من الاباء.

الرسوليّ تتزأس أعلى قممها". وفي السادس من آذار (مارس) ١٩١٣ ترأس البطريرك الأنطاكيّ الاحتفال الدينيّ في كاتدرائيّة سيّدة قازان، وإلى يمينه القيصر وأسرته وإلى يساره جمهور الإكليروس، وقد بدأ بصلاة الدعاء باليونانيّة وقرأ الإنجيل بالعربيّة. وانتهز البطريرك فرصة وجوده في روسيا لإزالة سوء التفاهم بين الفرقة الروسيّة المسمّاة بـ"المنحازة" وبين الكنيسة الروسيّة الأرثذوكسيّة. وسام هناك الأرشمندريت "ألكسي" أسقفًا على "تيخيفين"، وهو الذي سيصبح أسقفًا على "أمبورغ" ومساعدًا للقائمقام البطريركيّ في موسكو المتروبوليت "سرجيوس"، ثمّ وكيل مطرانيّة "نوفوغورود" بعد انهيار روسيا القيصريّة علم ١٩١٧، ثمّ متروبوليتًا على لينينغراد سنة ١٩٣٣. ولدى وفاة البطريرك الروسيّ سرجيوس سنة ١٩٤٥، انتخب المجمع الروسيّ المقدّس السيّد ألكسي متروبوليت لينينغراد خلفًا له. أمّا البطريرك الأنطاكيّ فعاد من روسيا سنة ١٩١٣ حاملاً من القيصر الأمبراطور "نقولا الثاني" النوط الذهبيّ المضروب لتذكار اليوبيل، ووسام القدّيس "اسكندر نيفسكي" من الرتبة الأولى، وهو من أعظم الأوسمة الروسيّة، وصليبًا مرصّعًا بالماس يعلّق على مقدّمة اللاطية فوق الجبين. ولدى عودة البطريرك إلى كرسيه استقدم بضعة عشر راهبًا روسيًّا أوكل إليهم إدارة دير مار الياس الشوير البطريركيّ في قضاء المتن من لبنان. ولكنّ هؤلاء قد اضطروا إلى مغادرة لبنان سنة ١٩١٥ بسبب الحرب[1].

في خلال ويلات الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) كان البطريرك الأنطاكيّ غريغوريوس الرابع حدّاد مقيمًا في مقرّ كرسيه بدمشق، وقد أجمع المدوّنون من كافّة الانتماءات على ذكر هذا السيّد بأسمى معاني التقريظ والتقدير لِما أبداه تجاه

---

١ - راجع: رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٣٦٤ - ٣٧٠.

الناس من عون من دون أن يفرّق بين مسيحيّ وغير مسيحيّ، ولمّا نفد ماله راح يستدين ويعين. حتّى أنّ جمال باشا السفّاح وأعوانه لم يستطيعوا إلاّ أن يبدوا نحوه الاحترام من دون أن يرضخ لطلب منهم.

وعندما قامت الثورة السوريّة ضدّ الانتداب على يد فيصل الأوّل سنة ١٩٢٠، جهر هذا البطريرك الشجاع بتأييد السوريّين في ما ذهبوا إليه، ووافقه في ذلك معظم أبناء كنيسته. فدخل في مواجهة مع الفرنسيّين دامت طويلاً. ولمّا نادى السوريّون باستقلال سوريا بحدودها الطبيعيّة وبايعوا فيصلا ملكًا عليها في مؤتمر الأعيان بدمشق في ربيع سنة ١٩٢٠، كان البطريرك في طليعة المبايعين. ولم يعبأ بما انطوت عليه معركة "ميسلون" في تمّوز ١٩٢٠ واضطرار فيصل لأن يبرح دمشق، بل حفظ لفيصل عهده وأبرّ بيمينه فخرج لوداعه في أحرج الأوقات، ولعلّه انفرد بهذا الوداع، فتميّز بمبادرته. وهكذا فعندما حلّ الانتداب الفرنسيّ على لبنان وسوريا سنة ١٩٢٠، "جرّأت السلطات الفرنسيّة بعض العناصر على البطريرك فشغبوا وشاغبوا"، فابتعد البطريرك عن الشرّ والفتنة وانتقل إلى لبنان وأقام فيه، وإذ أظلم بصره اضطرّ إلى البقاء في لبنان للمعالجة. وبينما كان يوشك أن يختتم المجمع المقدّس في "سوق الغرب" أعماله، استأثرت بالبطريرك الكبير رحمة الله فيما كان يقوم بواجباته. ويروى أنّه قال وهو يحتضر: "لقد صبرت حتّى النهاية!" وكانت وفاته في الثاني عشر من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٢٨، وبعدما نقل جثمانه الطاهر بموكب نادر المثيل إلى بيروت حيث عرض للتبرك، نقل إلى دمشق حيث ووري الثرى في مدافن البطاركة أمام الكاتدرائيّة المريميّة[1].

---

١ ـ رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٣٧٢ ـ ٣٨٠.

وقام بعده خلاف حول البطريركيّة أدّى إلى تثبيت البطريرك "ألكسندرُس طحّان" (١٩٣٣ ـ ١٩٥٨)، وانتُخب بعده البطريرك "ثاوذوسيوس أبو رجيلي" سنة ١٩٥٨. ولمّا توفّي هذا الأخير عام ١٩٧٠، خلفه البطريرك إيليّا الرابع معوّض (١٩٧٠ ـ ١٩٧٩) وكان مطرانًا على حلب. وتمكّن بحكمته من إعادة وحدة الصفّ في كنيسته، بعد التصدّعات التي عكّرت السنين الأخيرة من عهد سلفه. ورأس السينودس الذي وضع النظام الأساسيّ الجديد للكنيسة الأنطاكيّة بتاريخ ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٧٢. ونشر النظام في الجريدة الرسميّة وحلّ محلّ النظام الأساسيّ الذي أقرّه المؤتمر الأرثذوكسيّ العامّ في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ على عهد البطريرك ألكسندروس طحّان. وقام برحلات كثيرة لزيارة الكنائس الأرثذوكسيّة الشقيقة، وزار العربيّة السعوديّة، ومثّل مسيحيّي سورية ولبنان في مؤتمر "لاهور" الإسلاميّ. ودافع عن القضايا العربيّة حتّى لُقّب هو الآخر ببطريرك العرب. وتوفّي فجأة في ٢١ حزيران (يونيو) ١٩٧٩. فانتُخب خلفًا له البطريرك الحاليّ "اغناطيوس الرابع هزيم" الذي كان مطرانًا على اللاذقيّة، وتابع خطّة سلفه في الدفاع عن القضايا القوميّة، وعن التراث الأرثذوكسيّ الأنطاكيّ، وقد زار، هو أيضًا، المملكة العربيّة السعوديّة (مؤتمر الطائف الإسلاميّ ١٩٨١). وهو علاوة على ذلك، منفتح على الحركة المسكونيّة، وله دور قياديّ في مجلس الكنائس العالميّ[1]، وقد قام سنة ١٩٨٣ بزيارة رسميّة للبابا

---

١ ـ **مجلس الكنائس العالميّ**: أسّس رسميًا في أمستردام ١٩٤٨ من مندوبين يمثّلون ١٥٠ كنيسة أرثذوكسيّة وبروتستنتيّة في ٤٤ بلدًا، وكانت فكرة إيجاد شركة بين الكنائس قد أخذت تتجسّد بشكل محسوس ١٩٣٧ عندما انعقد مؤتمران مسكونيّان للبحث في الحياة والعمل والإيمان والنظام وانتخبت لجنة مشتركة لوضع خطط لإنشاء مجلس الكنائس العالمي واجتمعت تلك اللجنة الموقّتة في مدينة "أرترخت" الهولنديّة ١٩٣٨، بيد أنّه لم يتمّ التصديق على الدستور إلا في الاجتماع الأوّل للمجلس ١٩٤٨، ووضع دستور المجلس تنظيمًا دائمًا تستطيع بمقتضاه جميع الكنائس المشتركة أن تمثّل رسميًا فيه، وأسندت المسؤوليّة الإداريّة في المجلس إلى لجنة مركزيّة مؤلّفة من ٩٠ عضوًا ينتخبهم المجمع نفسه، وليس للمجلس سلطة تشريعيّة على الكنائس الأعضاء المنضمّة إليه، بل يهيّء الفرص لأعضائه كي يعملوا متعاونين لنشر حركة التبشير وتقديم المساعدات الكنسيّة المشتركة لحركة الإسعاف ولإعادة بناء

"يوحنّا بولس الثاني" في روما، كان لها طيّب الأثر. وكان البطريرك هزيم في طليعة رؤساء الكنائس المشرقيّة الذين شاركوا في استقبال البابا يوحنّا بولس الثاني ومرافقته في خلال زيارته الأخيرة إلى دمشق. كما قام بزيارات أخرى لفرنسا وأميركا واستانبول وأثينا وموسكو[1].

أمّا اليوم، فللكنيسة الأرثذوكسيّة الأنطاكيّة، علاوة على الأبرشيّة البطريركيّة في اللاذقيّة، أبرشيّات في كلّ من: حلب والإسكندرونة، حماة، حمص، حوران وجبل العرب، عكّار، طرابلس والكورة، بيروت، جبل لبنان (جبيل والبترون)، صور وصيدا (مرجعيون)، زحلة، بغداد والكويت. ولها في بلدان الانتشار أبرشيّات ومعتمدات بطريركيّة في كلّ من: أميركة الشماليّة (نيويورك)، ساوباولو (البرازيل)، ريو دي جانيرو (البرازيل)، الأرجنتين، التشيلي، المكسيك وأميركا الوسطى، أوستراليا، وأوروبّا الغربيّة (باريس)[2]. وبحسب بعض الدراسات، يبلغ عدد أتباع كنيسة الروم الأرثذوكس اليوم، في البلدان العربيّة، حوالى مليون وربع المليون نسمة، أكثرهم موزّع على سورية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر[3].

الكنائس ولدراسة القضايا الدينيّة والاجتماعيّة، والبحث معًا في الشؤون الدوليّة، وإفساح المجال في الكنيسة لاشتراك النساء والشبيبة في حياتها، وإنماء روح الوعي المسكوني بين الكنائس الأعضاء. وللمجلس مؤسسة للدراسات المسكونيّة في "بوسي" بالقرب من مركز المجمع الرئيسي بجنيف سويسرا. وفي ١٩٤٩ عقدت كنائس الولايات المتحدة المشتركة في عضويّة مجلس الكنائس العالمي، والتي تمثّل معظم الكنائس البروتستانتيّة الكبرى في أميركا، مؤتمرها الأول في "افانستون" بولاية "إلينوي" الأميركيّة.

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٨٠.

٣ - راجع: إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

الفَصلُ الثَّامِن

الأُرثُذوكسِيَّة العَالَمِيَّة

بَطرِيَركِيَّة القُسطَنطِينِيَّة في عَهدِهَا المُعاصِر

الكَنيسَة الأُرثُذوكسِيَّة الرُّوسِيَّة

الكَنائِسُ الأُرثُذوكسِيَّة المُستَقِلَّة

الكَنيسَة البيزَنطِيَّة الأُرثُذوكسِيَّة والحَرَكَة المَسكُونِيَّة

بطريركيّة القسطنطينيّة المسكونيّة

لمّا اندحرت الجيوش العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى، كاد يتحقّق حلم اليونان في استرجاع القسطنطينيّة وإحياء مجدها القديم، إلاّ أنّ انتصارات تركيا عليها بقيادة مصطفى كمال[1]، قد قضت على هذا الحلم. وقامت عمليّة تبادل السكّان بين تركية واليونان، فنزح عن تركية زهاء مليونَي يونانيّ، ما أضعف كثيرًا سلطة بطريرك القسطنطينيّة، خاصّة بعد أن حدّ الأتراك من حرّيّة اتّصاله بالخارج.

على أنّ البطريرك "أثيناغوراس" (١٩٤٨ ـ ١٩٧٢) قد تمكّن من تحسين علاقات بطريركيّة القسطنطينيّة بالحكومة التركيّة والاتّصال بسائر البطريركيّات الأرثذوكسيّة. ونشطت علاقات الأرثذوكس بالكنائس المسيحيّة، فاشتركوا اشتراكًا جدّيًّا في جلسات "مجلس الكنائس العالميّ". وتوصّل البطريرك أثيناغوراس إلى توحيد كلمة الأرثذوكس في مؤتمر "رودوس" سنة ١٩٦١ الذي وضع برنامجًا لمجمع أرثذوكسيّ

---

١ ـ **مصطفى كمال أتاتورك** (١٨٨١ ـ ١٩٣٨): قائد تركي، ولد في سلانيك، زعيم الحزب الوطني ومؤسس الجمهوريّة التركيّة وأوّل رئيس لها ١٩٢٣، أجرى إصلاحات عظيمة من أعمقها تأثيرًا في الحقل الديني والاجتماعي والثقافي استعمال الأبجديّة اللاتينيّة عوض العربيّة في الكتابة التركيّة وعلمنة الدولة، لقّب "أتاتورك" أي أبو الأتراك.

عامّ يُعقد في ما بعد. وتابع خليفة أثيناغوراس البطريرك "ديمتريوس" منذ جلوسه على السدّة البطريركيّة سنة ١٩٧٢، إنفتاح سلفه على الحركة المسكونيّة، وباشر الحوار الرسميّ بين الكنيسة الأرثذوكسيّة والكنيسة الكاثوليكيّة. كما نشطت في عهده تهيئة المجمع الأرثذوكسيّ العام، وعُقدت عدّة مؤتمرات ضمّت ممثّلي سائر الكنائس الأرثذوكسيّة. وزار البابا يوحنّا بولس الثاني في روما من ٣ إلى ٧ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٨٧.

وتبقى للبطريرك القسطنطينيّ أسبقيّة شرفيّة على البطاركة الآخرين في العالم الأرثذوكسيّ، وله سلطته الفعليّة على الأرثذوكس في تركية وفي بعض المناطق المنفصلة حديثًا إلى بلاد اليونان وفي المهاجر، وبه منوط إعلان استقلال الكنائس الأرثذوكسيّة. وفيما لم يحصل الأرثذوكس العرب في بطريركيّتي الإسكندريّة والقدس على حقوقهم المشروعة، وهم ما فتئوا يطالبون بها منذ القرن التاسع عشر، لا يزال طابع البطريركيّتَين يونانيًّا خالصًا[١].

١ - يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٧٦ - ٢٧٧.

الكَنيسَة الأُرثُذُوكسيَّة

الرُّوسيَّـــــة

بعيد منتصف القرن التاسـع، وجّه أمير "مورافيـا"[1] نـداء إلـى القسـطنطينيّة طالبًا إرسـال مبشّـرين، فأرسـل البطريـرك سـنة ٨٦٣ الأخوَيـن "كـيرلّس" و" متوديـوس" السالونيقيّين اللذَين كانا يُحسنان اللغـة الصقليّـة، فقامـا بوضـع أبجديّـة لتلـك اللغـة التـي كانت لغة شفويّة فقط. ونقلا إلى اللغة الصقليّـة الكتـب المقدّسـة والنصـوص الطقسيّة، لكنّهما دخلا في نزاع مع الأسـاقفة "البافـاريّين BAVARAIS" الذيـن رأوا فيهمـا منافسَين، ورفضوا كلّ ليتورجيـة لا تكـون باللاتينيّـة، زاعميـن أنّ الصـلاة لا تجـوز إلاّ باللغـات الثـلاث التـي استعملت فـي الكتابـة التـي وضعهـا بيلاطـس علـى صليـب يسـوع. لكـنّ الأخوَين قاما برحلة إلى روما حيث لقيا أحسن استقبال. وقبل البابا يوحنّا السـابع إقامـة الليتورجية باللغة الصقليّة. وفي تلك الأثناء، توفّي كيرلّس فدفن في كنيسة رومانيّة. أمّا متوديوس، فعيّن رئيس أساقفة مورافيا الكبرى. لكنّ الأساقفة الألمان حصلوا عند وفاته سنة ٨٨٤ من بابا جديد على شجب الليتورجية الصقليّـة، وشـنّ اضطهـاد علـى تلاميذ

---

[1] ـ مورافيا: إقليم في جمهوريّة "التشيك" من أوروبا الشرقيّة، ألّفت مورافيا مع اتحادها بسيليزيا التشيكوسلوفاكيّة مقاطعة واحدة حتى ١٩٤٩، تتحد اليوم مع بوهيميا.

متوديوس، فلجأوا إلى بلغاريا. وكان البلغاريّون، وهم قبيلة أسيويّة تأثّرت بالطابع الصقلّي إلى حدّ بعيد، يتردّدون في النظر إلى روما والقسطنطينيّة. ولكنّهم تبنّوا هم أيضًا الأبجديّة التي وضعها الأخوان كيرلّس ومتوديوس، واتخذوا الليتورجية الصقليّة.

وفي القرن التالي أخذ الروس عن البلغاريّين أبجديّتهم وليتورجيّتهم. وحين قبل دوق روسيا الكبير "فلاديمير" سرّ المعموديّة سنة ٩٨٩، مدّ نفوذ كنيسة القسطنطينيّة إلى بلاده نحو الشمال، وأدخل روسيا بين الدول الأوروبيّة[١].

كانت مدينة كياف، عاصمة أوكرانيا، المركز الرئيسيّ الأوّل للكنيسة الأرثذوكسيّة في روسيا. فلمّا سقطت هذه المدينة في أيدي المغول سنة ١٢٤٠ انتقل رؤساء أساقفتها إلى موسكو، واتّخذوا لقب رؤساء أساقفة كياف وموسكو. وكانت القسطنطينيّة لا تزال آنذاك تتدخّل في تعيينهم. واشترك المتروبوليت إيسيدوروس رئيس أساقفة كياف وموسكو في مجمع فلورنسا عام ١٤٣٩، وكان من أعظم مناصري الاتّحاد. ولمّا عاد إلى موسكو أساء إليه أمير المدينة، وكان مناهضًا للوحدة، فعزله وعيّن بدلا منه سنة ١٤٤١ المتروبوليت يونان، دون أن يستشير القسطنطينيّة في الأمر. واستقلّت الكنيسة الروسيّة عن القسطنطينيّة منذ انهيار الأمبراطوريّة البيزنطيّة، وأسّست بطريركيّة موسكو في ٢٦ كانون الثاني ١٥٨٩، حين حمل متروبوليت موسكو لقب بطريرك، بموافقة سائر البطاركة الشرقيّين، لغة طقوسها السلافيّة القديمة[٢]. وقد ساندت كنيسة موسكو حركة تحرّر الشعوب السلافيّة، وسعت في نشر نفوذها على العالم

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٦ ـ ١٦٧.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ط٢، دار الجيل (بيروت، ٢٠٠١) ٣: ١٩٩٥.

الأرثذوكسيّ بأكمله، معتبرة نفسها "روما الثالثة" بعد زوال روما القديمة وروما الثانية (القسطنطينيّة)[1].

ولمّا كانت السيطرة العثمانيّة التامّة على الشرق كلّه بقسمَيه الغربيّ والبيزنطيّ بدءًا من الربع الأوّل من القرن السادس عشر، نجت روسيا من تسلّط العثمانيّين، فأخذت تواصل نموّها الداخليّ وأصبحت دولة مسيحيّة قويّة[2].

وكان القسم الأكبر من أوكرانيا وروسيا الغربيّة خاضعًا للحكم البولونيّ. فاستقلّت "كياف" عن موسكو سنة ١٤٥٩. وفي عام ١٥٩٥ أُعيد الاتّحاد بين أساقفة أوكرانيا والكنيسة الرومانيّة، وحافظوا على طقسهم البيزنطيّ، وبقي الأوكرانيّون متمسّكين بمعتقدهم الكاثوليكيّ، ما داموا خاضعين للحكم البولونيّ أو النمساويّ. ولمّا قُسّمت بولونيا، وخضع جزء من أوكرانيا للحكومة الروسيّة، ألغى القيصر الروسيّ الكنيسة البيزنطيّة الكاثوليكيّة فيها. وتابعت الحكومة الشيوعيّة الخطّة نفسها بعد الحرب العالميّة الثانية، لمّا استولت على شرق بولونيا. وكان الأوكرانيّون الكاثوليك لا يزالون إذ ذاك خمسة ملايين نسمة. وألغى القيصر بطرس الأكبر (١٦٩٤ ـ ١٧٢٥) البطريركيّة سنة ١٧٢١، وأحلّ محلّها مجمعًا دينيًّا (سينودُس مقدّس) يشرف عليه علمانيّ نائب عنه[3]، وذلك رغبة منه في تجديد روسيا، بقوّة السلطة، على نمط "الأنوار"[4] في الغرب. ففرض بذلك على الكنيسة الروسيّة "نظامًا روحانيًّا" جديدًا، وأصبح فيه "الوكيل العلمانيّ" الرئيس الإداريّ الحقيقيّ للكنيسة التي لم يعد لها أيّ استقلال عن السلطة.

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٧٦.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٥٥.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٧٧.

٤ ـ راجع الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

ونهجت كاترينا الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) النهج نفسه في "علمنة الكنيسة"[1]. وفي القرن التاسع عشر بسطت روسيا نفوذها على العالم الأرثذوكسيّ. ولمّا استقال القيصر نقولا الثاني بعد ثورة ١٩١٧ أُعيدت بطريركيّة موسكو إلى الوجود، وذلك قبيل الثورة البولشيفيّة بقليل، فانتخب البطريرك "طيخون". لكنّ البطريرك الجديد ترأس كنيسة سوف تحتمل اضطهادات من قِبل النظام البولشيفيّ[2]. إذ لم تلبث الثورة أن هدمت النظام الكنسيّ، وقاومت الكنيسة، ولم تسمح بتنصيب بطريرك أصيل، بل نفت وقتلت كثيرين من الكهنة والمطارنة. كما أنّ الثورة الروسيّة قد سبّبت هجرة كبيرة لمسيحيّي روسيا[3].

كانت كنيسة روسيا تعيش آخر أيّامها تحت حكم القياصرة الذي منع كلّ تطوّر في المؤسّسات، دون أن يتوصّل إلى الحدّ من حريّة المفكّرين. وهكذا نجد الفيلسوف "فلاديمير سولوفييف"[4] يعمل على التقرّب من الكنيسة الكاثوليكيّة. و"تولستوي"[5] يعرض مسيحيّة إنجيليّة لا عنف فيها، ممّا حمل السينودُس المقدّس على حرمه. و"يوحنّا كرونشاد" (١٨٢٩ ـ ١٩٠٨) المتصوّف العظيم وكاهن الرعيّة، يجمع إلى حياة روحيّة عميقة، في خطّ الفيلو كاليا"، عمل المحبّة حتّى

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٩٠.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

٣ ـ كمبي، المرجع السابق؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٩٩٥.

٤ ـ **فلاديمير سولوفييف** SOLOVIEV (١٨٥٠ ـ ١٩٠٣): فيلسوف روسي، اعتنق الكثلكة وعمل جاهدًا في سبيل وحدة الكنيسة.

٥ ـ **لاون تولستوي** TOLSTOY (١٨٨١ ـ ١٩١٠): كاتب قصصي روسي كبير، حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبّة وعدم العنف، صوّر العادات الروسيّة وانتقد المساوئ، أشهر رواياته: "الحرب والسلم"، و"آنا كارنينا"، تُرجمتا إلى أكثر اللغات الحيّة وأخرجتهما هوليود أفلامًا سينمائيّة غنيّة.

الفقر المدقع. وقد ترك مؤسّسات تذكّرنا بمؤسّسات "دون بوسكو"[١] الإيطالي[٢].

وعندما كان ما كان من أمر تلك الثورة، رأى المجمع الأنطاكيّ المقدّس أن يقيم في الأميركتين الشماليّة والجنوبيّة رئيسين روحيّين يرعيان نفوس المهاجرين الأرثذوكسيّين في تلك الأصقاع النائية. فانتخب في أوّل تشرين الأوّل (أوكتوبر) ١٩١٩ ميخائيل شحادة أسقفًا على ريو دي جانيرو وسائر البرازيل، وانتخب في السابع من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٢٣ فيكتور يعقوب مطرانًا على أبرشيّة نيويورك[٣]. وانعزلت الكنيسة الروسيّة عن العالم الأرثذوكسيّ. وإذ حاولت الحكومة الشيوعيّة أن تنشئ كنيسة جديدة منفصلة عن الكنائس الأخرى، بعد أن أظهر المسيحيّون الروس في الحرب العالميّة الثانية وطنيّة صادقة، سمحت لهم الحكومة الشيوعيّة بانتخاب بطريرك، على أن تعلن الكنيسة ولاءها للحكومة وتأييدها لسياستها ضدّ الغرب[٤]. فانتخبوا البطريرك ألكسيوس في ٣١ كانون الثّاني (يناير) ١٩٤٥ ونُصّب بطريركًا باحتفال عظيم اشترك فيه البطريرك الأنطاكيّ الكسندروس طحّان[٥]. ولم تلبث الكنائس الأرثذوكسيّة في الدول الشيوعيّة أن انضمّت إلى الكنيسة الروسيّة مثل كنيسة بلغاريا، وكنيسة رومانيا التي هي من أكثر الكنائس الأرثذوكسيّة تنظيمًا،

---

١ ـ القدّيس يوحنّا دون بوسكو DON BOSCO (١٨١٥ ـ ١٨٨٨): راهب إيطالي، أسّس الرهبانيّة السالسيّة ورهبانيّة مريم معونة النصارى ١٨٧٢.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣.

٣ ـ رستم، مدينة الله، مرجع سابق، ٣: ٣٧٣.

٤ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٩٩٥.

٥ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٧٧؛ قابل: كمبي، مرجع سابق، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠، حيث جاء أنّ الحكومة السوفياتيّة قد استفادت من العاطفة الدينيّة الروسيّة لتشجّع الروح الوطنيّة ضدّ الزحف الألمانيّ، فعاد أوّلاً البطريرك سرجيوس إلى موسكو سنة ١٩٤٣، ثمّ انتُخب ألكسيوس.

وقد أدمجت فيها الأبرشيّات الرومانيّة. وهكذا فبعد الحرب العالميّة الثانية، أثّرت الشيوعيّة على الكنائس الأرثذوكسيّة في بلغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا وبولندا[١]، كما جاء في بداية التعريف بالكنيسة الأرثذوكسيّة.

لمّا توفّي البطريرك ألكسيوس خلفه البطريرك "بيمين" (١٩٧١ ـ ١٩٩٠) ثمّ البطريرك الحاليّ "ألكسي الثاني" سنة ١٩٩٠. وقد تحسّنت أوضاع الكنيسة الروسيّة وحصل انفراج بينها وبين الحكم السوفياتيّ في عهد "ميخائيل غورباتشوف" آخر رؤساء الاتّحاد السوفياتيّ (١٩٨٩ ـ ١٩٩١)، وتجلّى هذا بشكل خاص في الاحتفالات الرائعة للذكرى الألف لتنصّر الروس[٢]. ومع انهيار الشيوعيّة في دول شرق أوروبّا في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن العشرين، استعاد العديد من الكنائس الأرثذوكسيّة في تلك البلدان نشاطه. وبدأت الكنيسة الأرثذوكسيّة الروسيّة تتمتّع بالحريّة التامّة. وهي تحاول الآن استعادة مركز طليعيّ في العالم الأرثذوكسيّ، وتسعى جهدها في الداخل لأن تحافظ قدر المستطاع على وديعة المعتقد المسيحيّ.

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦.

٢ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٧٧.

الكَنائِسُ الأرثُذوكْسِيَّة المُستَقِلَّــــــــــة

فـي القـرن التاسـع عشـر، إستقلّ عـن السـلطنة العثمانيّـة كـلّ مـن يوغوسـلافيا[1] واليونـان[2] ورومانيا[3] وبلغاريا[4]، وذلك على مراحل متتابعة. وتبع هـذا التحـرّر المدنـيّ

---

١ ـ **يوغوسلافيا**: جمهوريّة فيدراليّة في أوروبا الجنوبيّة الشرقيّة، معظم أرضها في شبه جزيرة البلقان، ضمّت سلوفانيا وصربيا وكرواتيا والبوسنة والجبل الأسود والهرسك ومقدونيا وإقليم فويفودين ومنطقة كوسوفوبيتوخيا، كان عدد سكّانها مجتمعة نحو ٢٠ مليونًا و٥٠٠ ألف نسمة، يتألف شعبها من أربع فئات: صربيّون ٦٣٪، ألبان ١٤٪، مغيار ٤٪، منتنغريّون ٦٪، وأقليّات أخرى ١٣٪؛ يعتنق ٦٥ ٪ من السكّان المذهب الأرثذوكسي، و٤٪ الكاثوليكيّة، و١٪ البروتستانت، و١٩٪ الإسلام. في ١٩٩١ انفصلت عنها كل من سلوفانيا وكرواتيا، وتصاعد القتال بين القوات الكرواتيّة والصربيّة إلى حرب أهليّة ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ كما أصبحت البوسنة والهرسك ١٩٩١ ومقدونيا ١٩٩٢ جمهوريّات مستقلّة، نشب قتال عنيف في البوسنة وفرضت الأمم المتحدة عقوبات اقتصاديّة على يوغوسلافيا ١٩٩٢، ثمّ حاولت صربيا برئاسة سلوبودان ميلوسوفيتش الاحتفاظ بيوغوسلافيا تحت سيطرتها وضم المناطق الصربيّة في الجمهوريّات الأخرى لتكوين صربيا الكبرى فقامت الحرب في كرواتيا والبوسنة والهرسك وفرضت الأمم المتحدة عقوبات إقتصاديّة على صربيا، ولمّا أصرّ ميلوسوفيتش على سياسته تدخّل الحلف الأطلسي عسكريًا وأسقط حكمه وتمّ اعتقاله وإحالته إلى المحكمة الدوليّة.

٢ ـ عدد سكّان اليونان اليوم نحو ١١ مليون نسمة والدين السائد فيها المسيحي الأرثذوكسي، كانت المسيحيّة قد دخلت اليونان في عهد الرسل قبل أن تصبح جزءًا من الأمبراطوريّة الشرقيّة إلى أن احتلّها الأتراك بين ١٣٥٤ و١٤٦١، استقلّت عن الأمبراطوريّة العثمانيّة ١٨٢٩ ومع هذا الاستقلال استقلّت كنيستها، أصبحت مملكة ١٨٣٢، وجمهوريّة ١٩٧٣، شهدت في ستينات القرن العشرين أكبر مؤتمر يضمّ قادة الكنائس الأرثذوكسيّة الشرقيّة منذ مجمع نيقية الثاني في القرن الثامن.

٣ ـ **رومانيا**: جمهوريّة في أوروبا الجنوبيّة الشرقيّة، إسمها القديم داسيا أو داقيا، فتحها تريانُس في القرن الثاني وجلب إليها المستعمرين الرومانيّين فاختلطوا بالسكّان الأصليّين وعرفت مذذاك باسم رومانيا قبل أن ينضمّ إليها السلافيّون لاحقًا، لغة السواد الأعظم من أبنائها الرومانيّة وهي مشتقّة من اللغة اللاتينيّة، حكمها الأتراك منذ أواخر القرن الخامس عشر بواسطة ولاة يونان واستقلّت تمامًا ١٨٧٨ وتبنّت النظام الملكي ١٨٨١، أعلنت الجمهوريّة الشعبيّة ١٩٤٧، عدد سكّان رومانيا حوالى ٢٣ مليون نسمة، تتبع أغلبيّتهم الكنيسة الأرثذوكسيّة، وفيها أقليّات لا بأس بعددها من المجر والألمان، وبعض الأقليّات من الكاثوليك، واليهود، والمسلمين.

٤ ـ **بلغاريا**: جمهوريّة في جنوب شرق أوروبا وفي شبه جزيرة البلقان، أدخل بوريس الأوّل المسيحيّة إليها ٨٦٥ وزاد ابنه سيمون الأوّل كثيرًا في أراضيها واتخذ لقب قيصر، في الوقت ذاته اختلط البلغار بالصقالبة واتخذوا لغتهم وبدأ الأدب السلافوني القديم في الانتعاش وبدأت إذذاك تنتشر فيها بدعة الهرطقة "البوجوميليّة" القائلة بثنائيّة الخير والشر والخالطة بين الدين والسياسة والرافضة

الاستقلال الدينيّ عن البطريركيّة القسطنطينيّة، الذي جرى هو الآخر على مراحل متوالية. وفي كلّ بلد أسّس المسيحيّون الأرثذوكس كنيسة مستقلّة لكلّ منها بطريركها. فأصبح للأرثذوكس خمس عشرة كنيسة[1]. وأصبح رئيس أساقفة بلغراد سنة ١٩٢٠ بطريركًا على يوغوسلافيا، ورئيس أساقفة بوخارست بطريركا على رومانيا سنة ١٩٢٥، ورئيس أساقفة صوفيا بطريركًا على بلغاريا سنة ١٩٥٣. وكانت الكنائس الأرثذوكسيّة في الدول الشيوعيّة قد انضمّت إلى الكنيسة الروسيّة مثل كنيسة بلغاريا، وكنيسة رومانيا كما سبق أن ذكرنا. ولم تعترف القسطنطينيّة بالبطريركيّة البلغاريّة إلاّ عام ١٩٦١. أمّا رئيس أساقفة أثينا، وهو مستقلّ فعلاً، فلم يحمل لقب بطريركا إكراما للبطريرك القسطنطينيّ اليونانيّ اللغة. وهناك كنائس أرثذوكسيّة أخرى مستقلّة، والمؤمنون فيها أقلّ عددًا، وهي: كنيسة جورجيا[2] التي تُعتبر من أقدم الكنائس

للثقافة البيزنطيّة والمعروف أصحابها بـ"الطاهرين" و"الكاثاريين"، انهارت بلغاريا تحت وطأة هجمات بيزنطية وضمّها باسيل الثاني ١٠١٨ إلى أن قامت أمبراطوريّة بلغارية جديدة ١١٨٦ حين توّج إيفان الأوّل اسن قيصرًا في "ترنوفو" وهزم ابنه "كالويان" المتوّج ١٢٠٤ بموافقة البابا، أصبحت تابعة لصربيا ١٣٢٠، بعد موقعتي كوسوفو ١٣٨٩ ونيوكوبول ١٣٩٦ ابتلعتها الأمبراطوريّة العثمانيّة وحكمها الأتراك بقسوة، استعادت استقلالها بمساعدة روسيا ـ معاهدة سان ستيفانو ١٨٧٨ ـ جزئت في مؤتمر برلين إلى إمارة مستقلّة في الشمال وولاية الروملي في الجنوب وعليها حاكم مسيحي يعيّنه السلطان العثماني حتى توحدت في دولة مستقلّة ١٩٠٨، أصبحت جمهوريّة ١٩٤٦، عدد سكّانها اليوم نحو ٨ ملايين و٤٠٠ ألف نسمة، ٨٨٪ من البلغار و٨٪ من الترك، يتبع ٨٥٪ من سكانها الكنيسة الأرثذوكسيّة و١٣ ٪ يدينون بالإسلام.

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٥٢.

٢ ـ **جمهوريّة جورجيا**: في آسية الجنوبيّة الغربيّة، تضمّ جمهوريّتي أبخازيا وأغار المستقلّتين ومنطقة أوسيشا الجنوبيّة، ثلثا السكان البالغ عددهم نحو ٦ ملايين و٥٠٠ ألف نسمة من العناصر الجورجيّة التي تتكلّم اللغة القوقازيّة الجنوبيّة، فيها أقليّات روسيّة وأرمنيّة ويونانيّة وعناصر إسلاميّة مختلفة، امّا أكثريّة السكّان فتدين بالأرثذوكسيّة، كانت مملكة في القرن الرابع ق.م.، حكمها الساسانيّون والفرس في القرنين الثالث والرابع وحكمها فرع من أسرة الباجريين الأرمنيّة من القرن السادس إلى التاسع عشر، سادتها روسيا في القرن الثامن عشر وخلع اخر ملوكها ١٨٠١، استقلّت ١٩١٨، واصبحت جمهوريّة سوفياتيّة ١٩٢١ ثمّ استقلّت ١٩٩١، انضمّت إلى كومنولث الدول المستقلّة ١٩٩٣.

الأرثوذكسيّة الشرقيّة؛ وكنيسة قبرص [1] التي دخلتها المسيحيّة على يد الرسولين بولس وبرنابا؛ وكنيسة ألبانيا [2]؛ وكنيسة بولونيا [3]

---

١ ـ **جزيرة قبرص**: في البحر المتوسّط، معظم سكّانها البالغ عددهم نحو ٨٠٠ ألف نسمة يونانيّون مسيحيّون أرثذوكس، فيها أقليّة تركيّة مسلمة، أعطيت لأسرة لوزينيان الفرنسيّة في الحروب الصليبيّة ثم استولى عليها البنادقة، ثمّ الترك ١٥٧١، فبريطانيا ١٨٧٨، ثارت ضد الحكم البريطاني ١٩٥٠ وطالب اليونان بالانضمام إلى اليونان وتنازعوا مع الأقليّة التركيّة، جمهوريّة ١٩٥٩ بالاتفاق بين بريطانيا وتركيا واليونان رأسها الأسقف الأرثذوكسي القبرصي مكاريوس الثالث ١٩٦٠، قامت مجموعة من الضباط اليونان بانقلاب على حكومته ونصبوا الصحافي "سامبسون" رئيسًا ١٩٧٤ وسرعان ما تدخّلت اليونان وتركيا التي غزت الجزيرة واحتلّت ٤٠٪ من أراضيها، عاد الأسقف مكاريوس إلى منصبه ١٩٧٤، قام الاتراك بحركة انفصاليّة ١٩٧٥ تهدف إلى تقسيم الجزيرة إلى طائفتين يونانيّة وتركيّة، أصبح سبيروس كبريانو رئيسًا للجمهوريّة ١٩٧٧، أعلن الأتراك قيام دولة الجمهوريّة التركيّة لشمال قبرص برئاسة رؤوف دنكتاش ١٩٨٣، انتخب غلافكوس كلاريديس رئيسًا لقبرص ١٩٩٣، لم تنجح المفاوضات في إنهاء تقسيم الجزيرة.

٢ ـ **ألبانيا**: عرفت ببلاد الأرناؤوط، جمهوريّة في جنوب شرق أوروبا، كان داخلُ البلاد مملكة مستقلّة بلغت ذروتها في القرن الثالث قبل الميلاد، حاربتها مقدونيا وروما ووقعت تحت سيادة روما الإسميّة في القرن الأوّل ميلادي، احتلّها القوط الشرقيّون في القرن الخامس، استردتها بيزنطية ٥٣٥، أصبحت بعد القرن الحادي عشر مسرحًا للمنافسات الدوليّة، نشأت فيها مستعمرات للبندقيّة على جزء منها، وسادت "أمالفي" جزءًا آخر، نازع النورمان بيزنطية السيادة عليها، فتح الصرب معظمها في القرن الرابع عشر، انهارت مقاومتها للأتراك ١٤٧٨ فدخلت في الحكم العثماني طويلا فأصبح الإسلام دين الغالبيّة، أضحت عرضة للتقلّبات في حروب البلقان ١٩١٢ ـ ١٩١٣ حين احتلها الصرب، دخلها البلغار والنمساويّون ١٩١٩ وأضحت ميدانًا للحروب حتى أعلنت جمهوريّة ١٩٢٥، ثمّ مملكة ١٩٢٨، احتلتها ايطاليا ١٩٣٩، قامت فيها مقاومة حرّرتها فأضحت جمهوريّة ١٩٤٦ ذات نظام شيوعي دارت في فلك الاتحاد السوفياتي، عضو مؤسس في حلف وارسو ١٩٥٥، عضو في الأمم المتحدة ١٩٥٥، قاطعت أنشطة حلف وارسو بعد خلافات مع السوفيات ١٩٦١ وانسحبت من الحلف ١٩٦٨، في انتخابات ١٩٩١ فاز الشيوعيّون وتدهور الاقتصاد ففاز الديموقراطيّون ١٩٩٢، عدد سكّانها نحو ٣ ملايين و٥٠٠ ألف نسمة، معظم شعبها من قبائل جبلية من جنس قديم جدًا، ٧٠٪ منهم مسلمون، ٢٠٪ أرثذوكس، ١٠٪ كاثوليك، أعلنت أنها دولة ملحدة ١٩٦٧ ـ ١٩٨٩، عاد سكّانها إلى ممارسة شعائرهم الدينيّة بعد ١٩٩٢.

٣ ـ **بولونيا أو بولندا**: أصل إسمها POLSKA أي "سكّان الحقول"، جمهوريّة في وسط أوروبا، بدأ تاريخها أوائل القرن التاسع لمّا تمكّن البولنيانيّون (سكّان الحقول) من السيادة على القبائل السلافيّة الأخرى التي كانت حطّت رحالها فيها، وحّدت أسرة "بياست" قبائلها في القرن العاشر وحكمتها ووسّعت ممتلكاتها، حاربت طويلا في سبيل استقلالها لا سيما في القرن الثامن عشر إذ شرعت روسيا والنمسا وبروسيا تتقاسم أراضيها، بعد الحرب العالميّة الأولى التأمت أجزاؤها منذ ١٩١٩ حينًا إلى أن اشتعلت الحرب العالميّة الثانية ففقدت أطرافها الشرقيّة وضمّت إليها ما يوازيها تقريبًا شمالاً وغربًا، بعد تقلّبات ومنازعات دوليّة نشأت فيها حكومة يسيطر عليها الشيوعيّون ١٩٤٥، أصبح المارشال السوفياتي روكوسوفسكي وزيرًا للدفاع وقائدًا للجيش البولندي ١٩٤٧، صدر دستور جديد ١٩٥٢ ألغى وظيفة رئيس الجمهوريّة وأحلّ محلّها مجلس الدولة، عضو حلف وارسو ١٩٥٥، قامت تحرّكات عماليّة وشعبيّة

وتشيكوسلوفاكيا [1] وفنلندا [2]،

ضد سيطرة السوفيات والحكم الإرهابي منذ ١٩٥٦ أسفرت عن تغيير الحكّام وتحسين معاملة الكنيسة وعن توقيع معاهدة مع السوفيات لتنظيم الوجود الموقّت للجيش الروسي في بولندا، أدّت حركة اتحاد العمّال المعروف باسم "تضامن" برئاسة "ليخ فاونسا" إلى فرض أحكام عرفيّة واعتقال زعماء الحركة ١٩٨١، انتهت الأحكام العرفيّة ١٩٨٤ وأفرج عن المعتقلين ١٩٨٦، وافقت الحكومة على شرعيّة قيام اتحاد تضامن وإعادة تنظيم البرلمان والرئاسة ١٩٨٩ وفاز مرشحو "تضامن" في انتخابات شبه حرّة بجميع مقاعد التمثيل وبدأت مرحلة انتقاليّة لاقتصاد السوق الحرّة، أصبح الثائر العمالي "فاونسا" رئيسًا للجمهوريّة ١٩٩٠ وأصبح البرلمان يضمّ أعضاء من ٢٩ حزبًا وأصبحت "سوشوكا" أوّل رئيسة وزراء أعقبها "فلاديمار بولاك" من التحالف اليساري الديمقراطي الشيوعي سابقًا ١٩٩٣، عدد سكّان بولونيا نحو ٣٩ مليون نسمة غالبيتهم تعتنق المذهب الكاثوليكي (راجع الجزء العاشر من هذه الموسوعة).

١ ـ **تشيكوسلوفاكيا**: جمهوريّة إتحاديّة سابقة (١٩١٨ ـ ١٩٣٩؛ ١٩٤٥ ـ ١٩٩٢) في أوروبا الوسطى، أسّست نتيجة تفكك مملكة النمسا والمجر، قسّمت منذ ١٩٩٣ إلى جمهوريّتي "التشيك" و"سلوفاكيا". **جمهوريّة التشيك**: عدد سكّانها نحو ١٠ ملايين و ٥٠٠ ألف نسمة، تشمل أراضيها بوهيميا ومورافيا وسيليزيا، غالبيّة السكّان سلاف ٩٤ ٪ منهم تشيك و٣٪ سلوفاك، وفيها أقليّات من الألمان والمغيار، والمذهب الكاثوليكي هو الغالب وتوجد جماعات بروتستانتيّة كبيرة في بوهيميا ومورافيا ولا سيّما من الهسّتيين، وأقليّة أرثذوكسيّة، والتشيكيّة هي اللغة الرسميّة؛ **جمهوريّة سلوفاكيا**: عدد سكّانها نحو ٥ ملايين و ٥٠٠ ألف نسمة، استعمرتها القبائل السلافيّة بين القرنين الخامس والسادس، غزتها أمبراطوريّة مورافيا في القرن التاسع ودخلتها المسيحيّة إبّان حكمها، جزء من المجر ١٩١٠ ـ ١٩٠٨، عاضد المهاجرون السلوفاكيّون في الولايات المتحدة الأميركيّة الحركات الإستقلاليّة السلوفاكيّة ووافق القادة في الحرب العالميّة الأولى على اتحاد يضمّ التشيك والسلوفاك، أعلنت جمهوريّة تشيكوسلوفاكيا ١٩١٨، حدّدت معاهدة تريانون حدودها ١٩٢٠ وضمّت إليها أكثر من مليون مجريّ، ولاية مستقلّة ١٩١٨ ـ ١٩٣٨ داخل جمهوريّة تشيك ـ سلوفاكيا التي تنازلت عن جزء من جنوب سلوفاكيا للمجر وبعض ضواحي الشمال لبولندا، استولى النازيّون على بوهيميا ومورافيا وسليزيا كمحميّات ألمانيّة وأصبحت سلوفاكيا ولاية مستقلّة إسميًا ١٩٣٩ قبل أن تحتلّها القوات الألمانيّة، اشتركت في الحرب العالميّة الثانية إلى جانب ألمانيا، طردت القوات الروسيّة الألمان منها ١٩٤٥، أعاد انتصار الحلفاء حدودها إلى ما كانت عليه قبل حلف ميونيخ.

٢ ـ **فنلندا**: جمهوريّة في أوروبا الشماليّة، عدد سكّانها نحو ٥ ملايين و ٥٠٠ ألف نسمة، يتألف شعبها من ثلاث جماعات "فينيّة": واحدة في هلسنكي، واثنتان في توركوم، ومعظم الفنلنديّين بروتستنت، يتكلّمون "الفينيّة" وبعض السويديّة، فيها أقليّات أرثذوكسيّة وكاثوليكيّة، قدم الفينيّون من الأقاليم الواقعة جنوب البلطيك في القرن الثامن واستولوا على البلاد من اللاب الذين ارتدّوا شمالا، وفي القرن الثاني عشر فتح السويديّون فنلندا ونشروا فيها المسيحيّة وجعلوها في القرن السادس عشر دوقيّة كبرى تتبع الملك وأصبحت السويديّة اللغة الرسميّة ولغة الأدب، عانت بشدّة من الحروب بين السويد وروسيا، أهلك ثلث سكانها قحط شديد ضربها ١٦٩٦، استولى بطرس الأوّل قيصر روسيا على مقاطعة "فيبوري" منها وانتقلت بقيّة فنلندا لروسيا ١٨٠٩ ومنحت دستورًا فتمتّعت بشبه استقلال كدوقيّة روسيّة زهاء قرن، أصبحت الفنلنديّة حركة قوميّة في بداية القرن التاسع عشر بإلهام من أمثال الشاعر "رونبرغ" والفقيه "لونروت"، لمّا اشتدّت قبضة الروس ١٨٩٠ قام إضراب عام ١٩٠٥ وأعلن استقلال فنلندا ١٩١٧، شهدت

والأرثذوكس في البلدان الثلاثة الأخيرة أقليّات[1].

وبفضل الانتشار نحو الشرق والفتح التدريجيّ لسيبيريا، تمكّنت الكنيسة الروسيّة من أن تبشّر البلدان النائية. ففي القرن السادس عشر هدى رؤساء أساقفة كازان القبائل التتريّة التي كانت تحيط بالمدينة. ثمّ أرسل متروبوليت "توبولسك TOBOLSK" "فيلاريتس PHILARÈTE" بعض المرسلين إلى "كمتشاتكا KAMATCHATKA" سنة ١٧٠٥، وإلى "ياكوتسك YAKOUTSK" سنة ١٧٢٤. لا بل أوفد بعثة إلى الصين سنة ١٧١٤. وشكّل الأسرى الروس في بيكين منذ سنة ١٦٨٩ جماعة أرثذوكسيّة. وفي نهاية القرن الثامن عشر، أقام بعض رهبان بحيرة "لادوغا LADOGA" في الاسكا وأنشأوا جماعة فيها[2].

أمّا الكنيسة اليابانيّة الأرثذوكسيّة فليست سوى فرع من الكنيسة الروسيّة، أنشأتها إرساليّة روسيّة سنة ١٨٦٠ ثمّ استقلّت لاعتبارات سياسيّة[3].

وطالعنا مؤخّرًا معلومات هامّة عن وجود كنيسة أرثذوكسيّة حديثة العهد في مالبورن الأستراليّة، أسّسها مهاجرون لبنانيّون في خلال العقدَين الأخيرَين من القرن

نزاعات أهليّة بين القوميّين وأنصار الروس انتصر بنتيجتها القوميّون بمساندة الألمان فنشأ حكم عسكري قصير عقبه تأسيس جمهوريّة انتخب أوّل رئيس لها ١٩١٩، اعترفت روسيا السوفياتية باستقلال فنلندا ١٩٢٠، نشأت فيها حركة مناهضة للشيوعيّة ١٩٣١ أدت لحلّ الحزب الشيوعي، دخلت في حرب مع روسيا ١٩٣٩ - ١٩٤٠، ثمّ أدّى الهجوم الروسي الشامل إلى تسليم فنلندا ١٩٤٤، نتج بعدذاك عن نشوب القتال بين الفنلنديّين والألمان تخريب شمال البلاد، وقّعت معاهدة صلح مع كبار الحلفاء ما عدا أميركا ١٩٤٧، فشلت محاولة الشيوعيّين الاستيلاء على الحكم ١٩٤٩، وقعت معاهدة صداقة وتعاون مع اتحاد الجمهوريّات السوفياتيّة في العام نفسه جددت ١٩٥٩، انضمّت إلى الأمم المتحدة ١٩٥٥، وإلى منظمة التجارة الأوروبيّة الحرة ١٩٦١، منذ ١٩٩٤ أصبح رئيس الجمهوريّة ينتخب من الشعب.

١ - بتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٨٣.

٢ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

٣ - الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٩٩٦.

التاسع عشر، وبنوا أوّل كنيسة أرثذوكسيّة في مالبورن سنة ١٩٠٢ على اسم القدّيس نيقولاوس، فعُدّت تلك الكنيسة "مهد الأرثذوكسيّة في مالبورن". كان أوّل كهنتها لبنانيًّا استعمل في الصلوات اللغتين العربيّة واليونانيّة، كما هي الحال في البلاد العربيّة. وتولّى رئاسة هذه الكنيسة الأرشمندريت أنطونيوس مبيّض (١٩٣١ ـ ١٩٤٣). ثمّ انضمّ إلى تلك الكنيسة مؤمنون روس ومن جنسيّات أخرى مختلفة، قبل أن يبني الروس لهم أوّل كنيسة هناك سنة ١٩٥٠. وبعد وفاة مبيّض أصبحت الكنيسة برعاية أسقف أوستراليا "تيمُتاوُس إفانجيليدس"، ممثّلا بالأرشمندريت "تيوفيلاكتُس" والإيكونوموس "ميشال شحادة" راعي أبرشيّة القديس جاورجيوس الأرثذوكسيّة في سيدني.

١ ـ بتروني ترافور، كنيسة القديس نيقولاوس الأنطاكيّة في مدينة مالبورن، مجلّة "كرونوس"، العدد السابع (٢٠٠٣) ص١٣٣.

الكَنِيسَة البيزَنطِيَّة الأرثذوكسيَّة والحَرَكَة المَسكُونِيَّة

تتفاعل الكنيســة البيزَنطيَّـة الأرثذُوكسيَّة حثيثًا مـع الحركـة المسكونيّة المعـاصرة الناشطة بهـدف معالجـة الإنقسـامات التـي تفصـل بيـن جميـع المؤمنيـن بالمسيح، بغيـة التوصّل إلى الوحدة التي أرادها المسيح.

نظرة الأرثذوكس التقليديّة تقول بأنّ الكنيسة الأرثذوكسيّة هي، دون سواها، كنيسـة المسيح الواحدة الجامعة المقدّسة الرسوليّة، وبـأنّ الخلافـات التـي فصلـت عنهـا سـائر المسيحيّين لم تبدّل من حقيقة وضعها.

وفي نظر الكاثوليك أنّ كنيسة المسيح الواحدة تتجسّـم بمـلء أبعادهـا وفعاليّتهـا فـي الكنيسة الكاثوليكيّة. أمّا سائر المسيحيّين فمنهـم مَـن ينعمـون حقيقـةً بصفـة كنـائس، إذ حافظوا على الخلافة الرسوليّة وهم يعطون الأسرار بشكل صحيح، وإنْ كـان ينقصهـم بعض مـا يؤهّلهم ليكونـوا فـي شركة تامّـة مع كنيسـة المسيح كمـا أرادهـا (الكنـائس الأرثذوكسيّة الشرقيّة)، ومنهم مَن هم مجرّد جماعات مسيحيّة تنعم بكثير من الخيرات التي سلّمها المسيح لكنيسته (كالمعموديّة ووديعة الإيمان القديم والكتـاب المقدّس)، إنّمـا تنقصـها المقوّمـات الأساسيّة لبُنية الكنيسة.

هاتان النظرتان بدأتـا تتطـوّران إثـر تجـدّد العلاقـات بيـن الكنيسـتَين الأرثذوكسـيّة والكاثوليكيّة وبعض الكنائس الإصلاحيّة، خاصّة في خـلال النصـف الثـاني مـن القـرن العشرين. وعلى الأخصّ بعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني. فقد جاء فـي رسـالة البطريـرك

المسكونيّ "ديمتريوس"[١] المرسَلة إلى البابا يوحنّا بولس الثاني، بمناسبة عيد القدّيس بطرس، عام ١٩٨٤:

> إنّنا ونحن نحتفل معًا بعيد كنيسة روما المقدّسة، هذه التي تترأس المحبّة، نرى أنّنا أكثر وعيًا لكوننا، رغم انقسامنا الناجم عن أحكام نجهلها نحن وأنتم، مبنيّين على أساس الرسل والأنبياء. ويسوع المسيح هو رأس الزاوية.

لقد برزت عقليّة جديدة وروح جديدة في علاقات الكنائس ببعضها البعض، وسعيها إلى الوحدة، بعيدة عن روح الجدل العقيم والتدخّلات السياسيّة، وقد استُنبطت تسمية جديرة بالتعبير عن هذه الظاهرة الثقافيّة والروحيّة الجديدة هي: "الحركة المسكونيّة".

تنطلق هذه الحركة من اعتبار أنّ هناك عمل للروح القدس، روح "العنصرة" الذي يتغلّب على بلبلة الألسن والشقاق، والروح الذي هو رابطة الوحدة بين الآب والإبن. ومن اعتبار أنّ وحدة الكنيسة سرّ من أسرار النعمة، والحركة المسكونيّة المعاصرة من ثمار أعمال الروح القدس. إلاّ أنّ عمل الروح هذا يرافق تطوّرًا تاريخيًا وحضاريًّا وثقافيًّا يمهّد له ويؤهّل الإنسان لتقبّله، إذ إنّ النعمة لا تتجاهل الطبيعة. فهناك انفصال الكنيسة عن الدولة وتحرّرها من العوامل السياسيّة والقوميّة. وتقدُّم علوم الكتاب المقدّس. والآباءُ وتاريخُ الكنيسة. وهناك الإنفتاحُ العالميّ الذي يميّز إنسان القرن العشرين. وتلاقي الثقافات واحترام الشخص الإنسانيّ وحرّيّته. واكتشاف البُعد النسبيّ والتاريخيّ للقيم الإنسانيّة، ولا سيّما في أساليب التعبير وفي الممارسات... ومن

---

١ - البطريرك ديمتريوس: خليفة أثيناغوراس على كرسي البطريركيّة المسكونيّة، منذ جلوسه على السّدة البطريركيّة ١٩٧٢ تابع انفتاح سلفه على الحركة المسكونيّة وباشر الحوار الرسميّ بين الكنيسة الأرثذوكسيّة والكنيسة الكاثوليكيّة، كما نشطت في عهده تهيئة المجمع الأرثذوكسيّ العام، وعُقدت عدّة مؤتمرات ضمّت ممثّلي سائر الكنائس الأرثذوكسيّة، وزار البابا يوحنّا بولس الثاني في روما من ٣ إلى ٧ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٨٧.

البديهيّ أنّ الروح المسكونيّة نشطت أكثر في المناطق التي تأثّرت أكثر بهذه العوامل، وهي شبه معدمة في المناطق التي ظلّت عقليّتها ملتصقة بالقرون الغابرة[1].

ومنعًا للتكرار، نشير إلى أنّنا أسهبنا في التوضيح حول موضوع الحركة المسكونيّة الجديدة، ومشاركة الكنيسة البيزنطيّة الأرثوذكسيّة فيها بحيويّة ومحبّة وعمق، وذلك في نهاية الجزء العاشر من هذه الموسوعة الذي يمكن الرجوع إليه.

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٩٢ ـ ٣٩٣.

NOBILIS

بيروت